دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء السابع عشر

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية

فهرس الجزء السابع عشر

سورة ق

صفحة

ســورة الذاريات

سورة القمر

ســورة الرحمن

صفحة

سورة الواقعة

ســـورة الحـــديد

صفحة

سورة المجادلة

إصلاح خطأ

جزء	ص	س	خطأ	صواب
١٧	٧٤	٧	مُغرم	« مَغرم »
١٧	٧٦	١٠	»	»

وقع التحريف المتقدّم فى بعض نسخ هذا الجزء وصحح فى أثناء الطبع .

محمد محمد حسنين
المصحح بالقسم الأدبى
بدار الكتب المصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

مكية كلها وهى خمس وأربعون آية

مكية كلها فى قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر . قال ابن عباس وقتادة إلا آية ، وهى قوله تعالى : «وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ» . وفى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان قالت : لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا سنتين — أو سنةً و بعضَ سنةٍ — وما أخذت «ق والقرآن المجيد» إلا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ يقرؤها كلَّ يومِ جمعة على المنبر إذا خطب الناس . وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أبا واقدٍ الليثيّ ما كان يقرأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأضحى والفطر؟ فقال : كان يقرأ فيهما بـ «قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» و «وَاقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ» . وعن جابر بن سَمُرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى الفجر بـ «قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ» وكان صلاته بعدُ تخفيفا .

قوله تعالى : قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قرأ العامة «قافْ» بالجزم . وقرأ الحسن وابن أبى إسحق ونصر بن عاصم «قافِ» بكسر الفاء؛ لأن الكسر أخو الجزم ، فلما سكن

آخره حركوه بحركة الخفض . وقرأ عيسى الثقفيّ بفتح الفاء حرّكه إلى أخف الحركات . وقرأ هرون ومحمد بن السَّمَيْقَع « قافُ » بالضم ؛ لأنه في غالب الأمر حركة البناء نحو منذُ وقطُّ وقبلُ وبعدُ . واختلف في معنى « قٓ » ما هو؟ فقال ابن زيد وعكرمة والضحاك : هو جبل محيط بالأرض من زمردة خضراء اخضرت السماء منه ؛ وعليه طَرَفَا السماء والسماءُ عليه مَقْبِيَّةٌ ، وما أصاب الناسُ من زمرد كان مما تساقط من ذلك الجبل . ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس . قال الفرّاء : كان يجب على هذا أن يظهر الإعراب في « قٓ » ؛ لأنه اسم وليس بهجاء . قال : ولعل القاف وحدها ذكرت من اسمه ؛ كقول القائل :

* قلتُ لها قِفِي فقالتْ قافْ *

أي أنا واقفة . وهذا وجه حسن وقد تقدّم أوّل « البقرة »(١) . وقال وهب : أشرف ذو القرنين على جبل قاف فرأى تحته جبالا صغارا ؛ فقال له : ما أنت؟ قال : أنا قاف ؛ قال : فما هذه الجبال حولك؟ قال : هي عروقي وما من مدينة إلا وفيها عرق من عروقي ؛ فإذا أراد الله أن يزلزل مدينة أمرني فحركت عرقي ذلك فتزلزلت تلك الأرض ؛ فقال له : يا قاف أخبرني بشيء من عظمة الله ؛ قال : إن شأن ربّنا لعظيمٌ ، وإن ورائي أرضا مسيرة خمسمائة عام في خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضا ، لولا هي لاحترقتُ من حر جهنم . (فهذا يدل على أن جهنم على وجه الأرض والله أعلم بموضعها ، وأين هي من الأرض)(٢) . قال : زدني ، قال : إن جبريل عليه السلام واقف بين يدى الله تُرْعَد فرائصُه ، يخلق الله من كل رِعْدة مائة ألف ملك ، فأولئك الملائكة وقوف بين يدى الله تعالى منكسو رءوسهم ، فإذا أذن الله لهم في الكلام قالوا : لا إله إلا الله ؛ وهو قوله تعالى : « يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » يعني قول : لا إله إلا الله . وقال الزجاج : قوله « قٓ » أي قُضِيَ الأمر كما قيل في « حمٓ » أي حُمَّ الأمرُ . وقال ابن عباس : « قٓ » اسم من أسماء الله تعالى أقسم به . وعنه أيضا : أنه اسم من أسماء

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الزيادة من حاشية الجمل عن القرطبي .

القرآن . وهو قول قتادة . وقال القُرظيّ : افتتاح أسماء الله تعالى قدير وقاهر وقريب وقاض وقابض . وقال الشَّعْبيّ : فاتحة السورة . وقال أبو بكر الورّاق : معناه قِفْ عند أمرنا ونهينا ولا تعدُهما . وقال محمد بن عاصم الأنطاكيّ : هو قرب الله من عباده، بيانه « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » . وقال ابن عطاء : أقسم الله بقوّة قلب حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، حيث حمل الخطاب ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله . « وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » أي الرفيع القدر . وقيل : الكريم؛ قاله الحسن . وقيل : الكثير؛ مأخوذ من كثرة القدر والمنزلة لا من كثرة العدد، من قولهم : كثير فلان في النفوس؛ ومنه قول العرب في المثل السائر : في كلّ شجرٍ نارٌ، واستمجد المَرْخُ والعَفَار . أي استكثر هذان النوعان من النار فزادا على سائر الشجر؛ قاله ابن بحر . وجواب القسم قيل هو : « قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ » على إرادة اللام؛ أي لقد علمنا . وقيل هو : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى » وهو اختيار الترمذيّ . محمد بن عليّ قال : « قٓ » قسم باسم هو أعظم الأسماء التي خرجت إلى العباد وهو القدرة، وأقسم أيضا بالقرآن المجيد، ثم اقتص ما خرج من القدرة من خلق السموات والأرضين وأرزاق العباد، وخلق الآدميين، وصفة يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال : « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » فوقع القسم على هذه الكلمة كأنه قال : « قٓ » أي بالقدرة والقرآن المجيد أقسمت أن فيما اقتصصت في هذه السورة « لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » . وقال ابن كيسان : جوابه « ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ » . وقال أهل الكوفة : جواب هذا القسم « بَلْ عَجِبُوا » . وقال الأخفش : جوابه محذوف كأنه قال « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » لَتُبْعَثُنَّ؛ يدل عليه « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا » .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ « أَنْ » في موضع نصب على تقدير لأن جاءهم منذر منهم، يعني محمدا صلى الله عليه وسلم، والضمير للكفّار . وقيل : للمؤمنين والكفار جميعا . ثم ميز بينهم بقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ ولم يقل فقالوا، بل قبّح حالهم وفعلهم ووصفهم بالكفر، كما تقول : جاءني فلان فأسمعني المكروه، وقال لي الفاسق

أنت كذا وكذا . ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ العجيب الأمر الذى يتعجب منه ، وكذلك العُجَاب بالضم ، والعُجَّاب بالتشديد أكثر منه ، وكذلك الأعجوبة . وقال قتادة : عجبهم أن دُعوا إلى إله واحد . وقيل : من إنذارهم بالبعث والنشور . والذى نص عليه القرآن أولى .

قوله تعالى : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ نبعث ؛ ففيه إضمار . ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ الرجع الرّد أى هو ردّ بعيد أى محال . يقال : رَجَعْتُه أَرْجِعه رَجْعًا ، ورَجَع هو يَرجِع رُجوعا ، وفيه إضمار آخر ؛ أى وقالوا أنبعث إذا متنا . وذكر البعث وإن لم يجر ها هنا فقد جرى فى مواضع ، والقرآن كالسورة الواحدة . وأيضا ذكر البعث منطوٍ تحت قوله : « بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ » لأنه إنما ينذر بالعقاب والحساب فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أى ما تأكل من أجسادهم فلا يضل عنا شىء حتى تتعذر علينا الإعادة . وفى التنزيل : « قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » . وفى الصحيح : " كُلُّ ٱبنِ آدمَ يأكلُه الترابُ إلا عَجْبَ الذَّنَبِ منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ " وقد تقدّم . وثبت أن الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكل الأرضُ أجسادهم ؛ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسادهم . وقد بينا هذا فى كتاب « التذكرة » وتقدّم أيضا فى هذا الكتاب . وقال السدى : النقص هنا الموت يقول قد علمنا منهم من يموت ومن يبقى ؛ لأن من مات دُفِن فكأنّ الأرضَ تَنقصُ من الناس . وعن ابن عباس : هو من يدخل فى الإسلام من المشركين . ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أى بعدّتهم وأسمائهم فهو فعيل بمعنى فاعل . وقيل : اللوح المحفوظ أى محفوظ من الشياطين أو محفوظ فيه كل شىء . وقيل : الكتاب عبارة عن العلم والإحصاء ؛ كما تقول : كتبت عليك هذا أى حفظته ؛ وهذا ترك الظاهر من غير ضرورة . وقيل : أى وعندنا كتاب حفيظ لأعمال بنى آدم لنحاسبهم عليها .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ أى القرآن فى قول الجميع ؛ حكاه الماوردى . وقال الثعلبى : بالحق القرآن . وقيل : الإسلام . وقيل : محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾

أى مختلط . يقولون مرة ساحر ومرة شاعر ومرة كاهن ؛ قاله الضحاك وابن زيد . وقال قتادة : مختلف . الحسن : ملتبس ؛ والمعنى متقارب . وقال أبو هريرة : فاسد ؛ ومنه مَرِجت أماناتُ الناس أى فسدت ، ومَرِجَ الدينُ والأمرُ آختلط ؛ قال أبو دؤاد :

مَرِجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحَارِكِ مَحْبُوكَ الكَتَدْ (١)

وقال آبن عباس : المريج الأمر المنكر . وقال عنه عمران بن أبى عطاء : « مريج » مختلط . وأنشد (٢) :

فَجَالَتْ فَآلتمستُ به حَشَاهَا * فخَـرَّ كأنهُ خُـوطٌ مَرِيجُ

الخُوطُ الغصن . وقال عنه العوفىّ : فى أمر ضلالة وهو قولهم ساحر شاعر مجنون كاهن . وقيل : متغير . وأصل المَرَج الآضطراب والقلق ؛ يقال : مَرِجَ أمرُ الناس ومَرِجَ أمرُ الدين ومرِج الخاتمُ فى إصبعى إذا قَلِق من الهزال . وفى الحديث : "كيف بك يا عبد الله (٣) إذا كنت فى قوم قد مَرِجت عهودُهم وأماناتُهم وآختلفوا فكانوا هكذا وهكذا" وشَبَّكَ بين أصابعه . أخرجه أبو داود وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

(١) الحارك الكاهل . والكتد مجمع الكتفين من الإنسان والفرس .
(٢) البيت للداخل الهذلى ؛ ويروى فراغت بدل فجالت والضمير للبقرة . وبه أى بالسهم .
(٣) هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما فى مسند أبى داود .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ نظر آعتبار وتفكر ، وأن القادر على إيجـادها قادر على الإعادة . ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ فرفعناها بلا عمـد ﴿ وَزَيَّنَّـاهَا ﴾ بالنجوم ﴿ وَمَا لَهَـا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ جمع فَرْج وهو الشقّ ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

* تَسُدُّ بِهِ فَرْجَها مِنْ دُبُرْ * (١)

وقال الكسائى : ليس فيها تفاوت ولا آختلاف ولا فتوق . ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ تقـدّم فى « الرعد » (٢) بيانه . ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَـا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ أى من كل نوع من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ أى حسن يسر الناظرين؛ وقد تقدّم فى « الحج » (٣) بيانه . ﴿تَبْصِرَةً﴾ أى جعلنا ذلك تبصرة لندلّ به على كمال قدرتنا . وقال أبو حاتم : نصب على المصدر؛ يعنى جعلنا ذلك تبصيرا وتنبيها على قدرتنا ﴿ وَذِكْرَى ﴾ معطوف عليـه . ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ راجع إلى الله مفكر فى قدرته .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَـا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب ﴿ مَاءً مُبَارَكًا ﴾ أى كثير البركة . ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ التقدير؛ وحبَّ النبت الحصيد وهو كل مايحصد . هذا قول البصريين . وقال الكوفيون : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال : مسجدُ الجامع وربيـعُ الأوّلِ وحقُّ اليقينِ وحبل الوريد ونحوها ؛ قاله الفرّاء . والأصل الحبّ الحصيد فحذفت الألف واللام وأضـيف المنعوت إلى النعت . وقال الضحاك : حبّ الحصيد الـبرُّ والشَّعيرُ . وقيل : كلّ حبٍّ يُحْصد ويدّخر ويُقْتات . ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾ نصب على الحال (٤) ردّا على قوله : « وَحَبَّ الْحَصِيدِ » و « بَاسِقَاتٍ » حال . والباسقات الطوال؛ قاله مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال عبد الله بن شدّاد : بُسُوقها آستقامتها فى الطول . وقال سعيد بن جبير:

---

(١) البيت فى وصف فرسه؛ وصدره :

* لها ذنب مثل ذيل العروس *

(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) راجع جـ ١٢ ص ١٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) هكذا فى الأصول ، ولعل صواب العبارة أن تكون كما قال السمين : «والنخل» منصوب على العطف أى وأنبتنا النخل؛ و «باسقات» حال .

مستويات . وقال الحسن وعكرمة أيضا والفراء : مواقير حوامل ؛ يقال للشاة بَسَقت إذا ولدت ، قال الشاعر :

فَلَمَّا تَرَكْنا الدارَ ظَلَّتْ مُنِيفَةً * بِقُرَّانَ فيه الباسقات المواقرُ

والأوّل في اللغة أكثر وأشهر ؛ [يقال] : بَسَقَ النخلُ بُسوقًا إذا طال . قال :

لنا خمرٌ وليست خمرَ كَرْمٍ * ولكنْ مِن نِتاجِ الباسِقاتِ

كِرامٌ في السماء ذَهَبْنَ طولًا * وفاتَ ثمارُها أيدى الجُناةِ

ويقال : بَسَقَ فلانٌ على أصحابه أى عَلَاهم ، وأبسقت الناقةُ إذا وقع في ضَرْعها اللِّبَن(١) قبل النِّتاج فهى مُبْسِق ونُوقٌ مَباسِيق . وقال قطبة بن مالك : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ « باصِقاتٍ » بالصاد ؛ ذكره الثعلبي .

قلت : الذى في صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال : صلّيت وصلّى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقرأ « قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » حتى قرأ « وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ » قال فجعلت أردّدها ولا أدرى ماقال ؛ إلا أنه يجوز إبدال الصاد من السين لأجل القاف . ﴿ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ الطلع هو أوّل ما يخرج من ثمر النخل ؛ يقال : طَلَعَ الطلعُ طُلوعًا وأطلعت النخلةُ ، وطَلْعها كُفُرّاها قبل أن ينشقّ . « نَضِيدٌ » أى متراكب قد نُضِّد بعضُه على بعض . وفي البخارى : « النضيد » الكُفُرّى مادام في أكمامه ، ومعناه منضود بعضه على بعض ؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد . ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ أى رزقناهم رزقا ، أو على معنى أنبتناها رزقا ؛ لأن الإنبات في معنى الرزق ، أو على أنه مفعول له أى أنبتناها لرزقهم ، والرزق ماكان مهيأ للانتفاع به . وقد تقدّم القول فيه(٢) . ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أى من القبور أى كما أحيا الله هذه الأرض الميتة فكذلك يخرجكم أحياء بعد موتكم ؛ فالكاف في محل رفع على الابتداء . وقد مضى هذا المعنى في غير موضع(٣) . وقال « ميتا » لأن المقصود المكان ولو قال ميتة لجاز .

---

(١) في بعض النسخ اللبأ وهو وزان عنب أوّل اللبن عند الولادة. (٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ وما بعدها .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢١١ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أي كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب؛ ذكرهم بناء على من كان قبلهم من المكذّبين وخوّفهم ما أخذهم . وقد ذكرنا قصصهم في غير موضع عند ذكرهم . ﴿ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ من هذه الأمم المكذبة . ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فحق عليهم وعيدي وعقابي .

قوله تعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ أي أفعيينا به فنعيا بالبعث . وهذا توبيخ لمنكري البعث وجواب قولهم : « ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ » . يقال : عَيِيت بالأمر إذا لم تعرف وجهه . ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي في حَيْرة من البعث منهم مصدّق ومنهم مكذّب؛ يقال : لَبَس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْسا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعني الناس ، وقيل آدم . ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أي ما يختلج في سرّه وقلبه وضميره، وفي هذا زجر عن المعاصي التي يستخفي بها . ومن قال : إن المراد بالإنسان آدم ؛ فالذي وسوست به نفسه هو الأكل من الشجرة ، ثم هو عامٌّ لولده . والوسوسة حديث النفس بمنزلة الكلام الخفيّ . قال الأعشى :

تَسْمَعُ لِلْحَلْي وَسْوَاسًا إذا انْصَرَفَتْ * كما اسْتَعَانَ بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ (١)

وقد مضى فى « الأعراف » (٢). ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه ، وهما وريدان عن يمين وشمال . روى معناه عن ابن عباس وغيره وهو المعروف فى اللغة . والحبل هو الوريد فأضيف إلى نفسه لاختلاف اللفظين . وقال الحسن : الوريد الوتين وهو عرق معلّق بالقلب . وهذا تمثيل للقرب ؛ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده الذى هو منه ، وليس على وجه قرب المسافة . وقيل : أى ونحن أملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه . وقيل : أى ونحن أعلم بما توسوس به نفسه من حبل وريده الذى هو من نفسه ؛ لأنه عرق يخالط القلب ، فعلم الربّ أقربُ إليه من علم القلب ؛ روى معناه عن مقاتل قال : الوريد عرق يخالط القلب ؛ وهذا القرب قرب العلم والقدرة ، وأبعاض الإنسان يحجب البعضُ البعضَ ولا يحجب علم الله شىء .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أى نحن أقرب إليه من حبل وريده حين يتلقى المتلقيان ، وهما الملكان الموكلان به ؛ أى نحن أعلم بأحواله فلا نحتاج إلى ملك يخبر ، ولكنهما وكلا به إلزاما للحجة ، وتوكيدا للأمر عليه . وقال الحسن ومجاهد وقتادة : « المتلقيان » ملكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك . قال الحسن : حتى إذا متّ طُويت صحيفةُ عملك وقيل لك يوم القيامة : « اقرأ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » عَدَلَ واللهِ عليك من جعلك حسيبَ نفسك . وقال مجاهد : وَكَّلَ اللهُ بالإنسان مع علمه بأحواله ملكين بالليل وملكين بالنهار يحفظان عمله ، ويكتبان أثره إلزاما للحجة : أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات ، والآخر عن شماله يكتب السيئات ؛ فذلك قوله تعالى : « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ » . وقال سفيان : بلغنى أن كاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا أذنب [العبد] قال

(١) عشرق كزبرج : شجر ينفرش على الأرض عريض الورق وليس له شوك ، وثمرته قشرة إذا هبت الريح فاقت تلك القشرة فتخشخشت فسمعت للوادى الذى تكون به زجلا وجلبة تفزع الإبل .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لا تعجل لعــله يستغفر الله . وروى معناه من حديث أبي أمامة ؛ قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يساره وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات فإذا عَمِل حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا و إذا عَمِل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال دعه ســبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر " . وروى من حديث على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن مقعدَ مَلَكيك على ثَنِيَّتَــيك[(١)] لسانُك قلمهما ورِيقُك مِدَادُهما وأنت تجرى فيما لا يعنيك فلا تستحى من الله ولا منهما " . وقال الضحاك : مجلسهما تحت الثغر على الحنك . ورواه عوف عن الحسن قال : وكان الحسن يعجبه أن ينظف عَنْفَقته . و إنمـا قال : « قَعِيــدٌ » ولم يقــل قعيدان وهما اثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيــد وعن الشمال قعيد فحذف الأول لدلالة الثانى عليــه . قاله سيبويه ؛ ومنه قول الشاعر[(٢)] :

نَحْنُ بمـا عندنا وأنتَ بمـا * عنــدكَ راضٍ والرَّأْىُ مُخْتلِفُ

وقال الفرزدق :

إنِّى ضَمِنتُ لمـن أتانى ما جَنَى * وأَبِى فكانَ وكنتُ غيرَ غَدُورِ

ولم يقــل راضيان ولا غدورين . ومذهب المبرِّد : أن الذى فى التــلاوة أوَّلٌ أُخِّرَ آتساعا ، وحذف الثانى لدلالة الأول عليــه . ومذهب الأخفش والفراء : أن الذى فى التلاوة يؤدّى عن الآثنين والجمع ولا حذف فى الكلام . و « قَعِيــدٌ » بمعنى قاعد كالسميع والعليم والقدير والشهيد . وقيل : « قَعِيدٌ » بمعنى مقاعد مثل أكيل ونديم بمعنى مؤاكل ومنادم .

وقال الجوهرى : فعيل وفعول ممـا يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا رَسُــولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » وقال الشاعر فى الجمع ؛ أنشده الثعلبى :

أَلِكْنِي إِلَيْهَـا وَخَيْرُ الرَّسُــو * لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَــوَاحِى الخَــبَرْ[(٣)]

(١) فى رواية أخرى عن على رضى الله عنه : « إن الملكين قاعدان على ناجذى العبد ... الخ » .

(٢) هو قيس بن الخطيم .

(٣) ألكنى إليها : أرسلنى إليها ؛ والأصل فى ألكنى ألئكنى فحوّلت كسرة الهمزة إلى اللام وحذفت الهمزة .

والمراد بالقعيد هاهنا الملازم الثابت لا ضد القائم .

قوله تعـالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيـدٌ ﴾ أى ما يتكلم بشيء إلا كتب عليه؛ مأخوذ من لفظ الطعام وهو إخراجه من الفم . وفى الرقيب ثلاثة أوجه : أحدها أنه المتبع للأمور . الثـانى أنه الحافظ؛ قاله السدى . الثـالث أنه الشاهد؛ قاله الضحاك . وفى العتيد وجهان : أحدهمـا أنه الحاضر الذى لا يغيب . الثـانى أنه الحافظ المُعَدّ إما للحفظ وإما للشهادة . قال الجوهرى : العتيد الشيء الحاضر المهيأ وقد عَتَّده تعتيدا وأَعْتَده إعتادا أى أعدّه ليـوم؛ ومنه قوله تعـالى : « وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً » وفرس عَتَدٌ وعَتِدٌ بفتح التـاء وكسرها المعَدّ للجرى .

قلت : وكله يرجع إلى معنى الحضور؛ ومنه قول الشاعر :

لئن كُنتَ مِنِّى فى العِيَانِ مُغَيَّبًا * فذكرك عندى فى الفؤادِ عَتِيدُ

قال أبو الجوزاء ومجاهد : يكتب على الإنسان كل شيء حتى الأنين فى مرضـه . وقال عكرمـة : لا يُكتب إلا ما يؤجَر به أو يؤزَر عليـه . وقيل : يكتب عليه كل ما يتكلم به؛ فإذا كان آخر النهار محى عنه ما كان مباحا، نحو انطلِق اقعد كُلْ مما لا يتعلق به أجر ولا وزر؛ والله أعلم . وروى عن أبى هريرة وأنس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله فى أوّل الصحيفـة خيرا وفى آخرها خيرا إلا قال الله تعـالى لملائكته اشهدوا أنى قد غفرت لعبدى ما بين طرَفَى الصحيفة " . وقال على رضى الله عنه : "إن لله ملائكة معهم صحف بيض فأملوا فى أوّلها وفى آخرها خيرا يغفر لكم ما بين ذلك " . وأخرج أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا أبو طاهر محمـد بن الفضل بن محمد بن إسحق بن خزيمة قال حدّثنا جدّى محمـد بن إسحق قال حدّثنا محمـد بن موسى الحَـرَشيّ قال حدّثنا سهيل ابن عبد الله قال : سمعت الأعمش يحـدّث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود؛ قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن الحافظين إذا نزلا على العبـد أو الأمة معهما كتاب مختوم فيكتبان ما يلفظ العبـدُ أو الأمةُ فإذا أرادا أن ينهضا قال أحدهمـا للآخر فُكَّ الكتاب المختوم الذى معك فيفكه له فإذا فيـه ما كتب سواء فذلك قوله تعـالى « ما يَلفِـظ من قولٍ

إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ » " غريب من حديث الأعمش عن زيد ، لم يروه عنه إلا سهيل . وروى من حديث أنس أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله وكل بعبده ملكين يكتبان عمله فإذا مات قالا ربنا قد مات فلان فأذن لنا أن نصعد إلى السماء فيقول الله تعالى إن سمواتي مملوءة من ملائكتي يسبحونني فيقولان ربنا نقيم في الأرض فيقول الله تعالى إن أرضي مملوءة من خلق يسبحونني فيقولان يارب فأين نكون فيقول الله تعالى كونا على قبر عبدي فكبراني وهللاني وسبحاني واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة " .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ أي غمرته وشدته ؛ فالإنسان ما دام حيا تكتب عليه أقواله وأفعاله ليحاسب عليها ، ثم يجيئه الموت وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحق فيما كان الله تعالى وعده وأوعده . وقيل : الحقّ هو الموت سمى حقّا إما لاستحقاقه وإما لانتقاله إلى دار الحق ؛ فعلى هذا يكون في الكلام تقديم وتأخير ، وتقديره وجاءت سكرة الحقّ بالموت ، وكذلك في قراءة أبي بكر وابن مسعود رضي الله عنهما ؛ لأن السكرة هي الحق فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين . وقيل : يجوز أن يكون الحق على هذه القراءة هو الله تعالى ؛ أي جاءت سكرة أمر الله تعالى بالموت . وقيل : الحق هو الموت والمعنى وجاءت سكرة الموت بالموت ؛ ذكره المهدوي . وقد زعم من طعن على القرآن فقال : أخالف المصحف كما خالف أبو بكر الصدّيق فقرأ : وجاءت سكرة الحق بالموت . فاحتج عليه بأن أبا بكر رويت عنه روايتان : إحداهما موافقة للصحف فعليها العمل ، والأخرى مرفوضة تجرى مجرى النسيان منه إن كان قالها أو الغلط من بعض من نقل الحديث . قال أبو بكر الأنباري : حدّثنا إسمعيل بن إسحق القاضي حدّثنا علي بن عبد الله حدّثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن مسروق قال : لما احتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة فلما دخلت عليه قالت : هذا كما قال الشاعر :

* إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضاق بها الصَّدْرُ (١) *

---

(١) صدر البيت : * لعمرك ما يغنى الثراء ولا الغنى *

فقال أبو بكر : هَلَّا قلتِ كما قال الله : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » وذكر الحديث . والسَّكْرة واحدة السَّكَرات . وفى الصحيح عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه رِكْوة — أو عُلْبة — فيها ماء فجعل يدخل يديه فى الماء ، فيمسح بهما وجهه و يقول : " لا إله إلا الله إن للموت سكرات " ثم نصب يده فجعل يقول : " فى الرفيق الأعلى " حتى قُبِض ومالت يده . خرجه البخارى . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن العبد الصالح ليعالج الموت وسكراته و إن مفاصله ليسلِّم بعضها على بعض تقول السلام عليك تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة " . وقال عيسى بن مريم : « يا معشر الحواريين آدعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكْرة » يعنى سَكَرات الموت . وروى : " إن الموت أشد من ضرب بالسيوف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض " . ﴿ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أى يقال لمن جاءته سكرة الموت ذلك ما كنت تفرّ منه وتميل عنه . يقال : حادَ عن الشيء يَحيد حُيودًا وحَيْدَة وحَيْدُودة مال عنه وعدل . وأصله حَيَدودة بتحريك الياء فسكنت ؛ لأنه ليس فى الكلام فَعْلُول غير صَعْفُوق . وتقول فى الإخبار عن نفسك : حِدْتُ عن الشيء أَحيد حَيْدا ومَحِيدا إذا ملت عنه ؛ قال طَرَفة :

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فَهِبْتَهُ * وحِدْتَ كما حاد البعيرُ عن الدَّحْضِ

قوله تعالى : وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ هى النفخة الآخرة للبعث ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ الذى وعده الله للكفار أن يعذبهم فيه . وقد مضى الكلام فى النفخ فى الصُّور مستوفى[1] والحمد لله .

(١) راجع ج ١٣ ص ٢٣٩ و ج ١٥ ص ٢٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ آختلف فى السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس : السائق من الملائكة والشهيد من أنفسهم الأيدى والأرجل؛ رواه العوفى عن آبن عبـاس . وقال أبو هريرة : السائق الملك والشهيد العمل . وقال الحسن وقتادة : المعنى سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها بعملها . وقال آبن مسلم : السائق قرينها من الشياطين سمى سائقا لأنه يتبعها وإن لم يحثّها . وقال مجاهـد : السائق والشهيد ملَكان . وعن عثمان آبن عفان رضى الله عنه أنه قال وهو على المنبر : « وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ » سائق ملك يسوقها إلى أمر الله، وشهيد يشهد عليها بعملها .

قلت : هذا أصح فإن فى حديث جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن آبن آدم لفى غفلة عما خلقه الله عز وجل له إن الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك آكتب رزقه وأثره وأجله وآكتبه شقيا أو سعيدا ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكا آخر فيحفظه حتى يدرك ثم يبعث الله ملكين يكتبان حسـناته وسيئاته فإذا جاءه الموت آرتفع ذلك الملكان(١) ثم جاءه ملك الموت عليه السلام فيقبض روحه فإذا أُدخل حُفْرته ردّ الروح فى جسـده ثم يرتفع ملك الموت ثم جاءه ملكا القبر فآمتحناه ثم يرتفعان فإذا قامت الساعة آنحط عليه ملك الحسنات وملك السيئات فأنشطا(٢) كتابا معقودا فى عنقه ثم حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد ثم قال الله تعالى « لَقَـدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَـذَا فَكَشَفْنَا عَنْـكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » " قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ » قال : "حالا بعد حال" ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : "إن قُدّامكم أمرًا عظيما فاستعينوا بالله العظيم" خرجه أبو نعيم الحافظ من حديث جعفر بن محمد بن على عن جابر وقال فيه : هـذا حديث غريب من حديث جعفر، وحديث جابر تفرّد به عنه جابر الجُعفىّ وعنه المفضّـل . ثم فى الآية قولان : أحدهما أنها عامة فى المسـلم والكافر وهو قول الجمهور . الثانى أنها خاصة فى الكافر؛ قاله الضحاك .

(١) كذا فى جميع الأصول والدر المنثور، والظاهر أن يكون « ذانك » .
(٢) أنشط الكتاب : حل عقدته .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ ﴾ قال ابن زيد : المراد به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي لقد كنت يا محمد في غفلة من الرسالة في قريش في جاهليتهم . وقال ابن عباس والضحاك : إن المراد به المشركون أي كانوا في غفلة من عواقب أمورهم . وقال أكثر المفسرين : إن المراد به البر والفاجر . وهو اختيار الطبري . وقيل : أي لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن أن كل نفس معها سائق وشهيد ؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالنصوص الإلهية . «فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ» أي عماك ؛ وفيه أربعة أوجه : أحدها إذا كان في بطن أمه فولد ؛ قاله السدي . الثاني إذا كان في القبر فنشر . وهذا معنى قول ابن عباس . الثالث وقت العرض في القيامة ؛ قاله مجاهد . الرابع أنه نزول الوحي وتحمل الرسالة . وهذا معنى قول ابن زيد . ﴿ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ قيل : يراد به بصر القلب كما يقال هو بصير بالفقه ؛ فبصر القلب وبصيرته تبصرته شواهد الأفكار ونتائج الاعتبار ، كما تبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام . وقيل : المراد به بصر العين وهو الظاهر أي بصر عينك اليوم حديد ؛ أي قوي نافذ يرى ما كان محجوبا عنك . قال مجاهد : « فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ » يعني نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك . وقاله الضحاك . وقيل : يعاين ما يصير إليه من ثواب وعقاب . وهو معنى قول ابن عباس . وقيل : يعني أن الكافر يحشر وبصره حديد ثم يزرق ويعمى . وقرئ « لَقَدْ كُنتِ » « عَنكِ » «فَبَصَرُكِ» بالكسر على خطاب النفس .

قوله تعالى : وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ يعنى الملك الموكّل به فى قول الحسن وقتادة والضحاك .
﴿ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴾ أى هذا ما عندى من كتابة عمله مُعَدّ محفوظ . وقال مجاهد : يقول هذا الذى وكلتنى به من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله . وقيل : المعنى هذا ما عندى من العذاب حاضر . وعن مجاهد أيضا : قرينه الذى قيض له من الشياطين .
وقال ابن زيد فى رواية ابن وهب عنه : إنه قرينه من الإنس ؛ فيقول الله تعالى لقرينه :
﴿ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ ﴾ قال الخليل والأخفش : هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول : ويلك ارحلاها وازجراها ، وخذاه وأطلقاه للواحد . قال الفراء :
تقول للواحد قوما عنا ؛ وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل فى إبله وغنمه ورفقته فى سفره اثنان فجرى كلام الرجل على صاحبيه ؛ ومنه قولهم للواحد فى الشعر : خليلىّ ؛ ثم يقول :
يا صاح . قال امرؤ القيس :

خَلِيلَىَّ مُرَّا بِى على أُمِّ جُنْدَبٍ * نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ الْمُعَذَّبِ

وقال أيضا :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وقال آخر :

فإن تَزْجُرَانِى يابنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ * وإنْ [تَدَعَانِى](1) أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعَا

وقيل : جاء كذلك لأن القرين يقع للجماعة والاثنين . وقال المازنىّ : قوله « أَلْقِيَا » يدل على أَلْقِ أَلْقِ . وقال المبرّد : هى تثنية على التوكيد المعنى أَلْقِ أَلْقِ فناب « أَلْقِيَا » مناب التكرار . ويجوز أن يكون « أَلْقِيَا » تثنية على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطب به الملكين . وقيل : هو مخاطبة للسائق والحافظ . وقيل : إن الأصل أَلْقِيَنْ بالنون الخفيفة تقلب فى الوقف ألفا فحمل الوصل على الوقف . وقرأ الحسن « أَلْقِيَنْ » بالنون الخفيفة نحو قوله : « وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ » وقوله : « لَنَسْفَعًا » . ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

(١) فى الأصول : « تدعوانى » وما أثبتناه هو ما عليه الرواية فى تفسير الطبرى والألوسى والفراء وغيرها .
ولعل ما فى الأصول رواية أخرى .

أي معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة . وقال بعضهم : العنيد المعرض عن الحق؛ يقال عَنَدَ يَعنِد بالكسر عُنُودا أي خالف وردّ الحق وهو يعرفه فهو عَنِيد وعاند ، وجمع العَنِيد عُنُد مثل رَغِيف ورُغُف . ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾ يعني الزكاة المفروضة وكل حقّ واجب . ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ في منطقه وسيرته وأمره؛ ظالم . ﴿ مُرِيبٍ ﴾ شاكّ في التوحيد؛ قاله الحسن وقتادة . يقال : أراب الرجلُ فهو مُرِيب إذا جاء بالريبة . وهو المشرك يدل عليه قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ . وقيل : نزلت في الوليد بن المغيرة . وأراد بقوله : «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» أنه كان يمنع بني أخيه الإسلام . ﴿ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ تأكيد للأمر الأول . ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ يعني الشيطان الذي قيض لهذا الكافر العنيد تبرأ منه وكذّبه . ﴿ وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ عن الحق وكان طاغيا بٱختياره وإنما دعوته فاستجاب لي . وقرينه هنا هو شيطانه بغير ٱختلاف . حكاه المهدوي . وحكى الثعلبي قال ٱبن عباس ومقاتل : قرينه الملك؛ وذلك أن الوليد بن المغيرة يقول للملك الذي كان يكتب سيئاته : ربّ إنه أعجلني ، فيقول الملك : ربنا ما أطغيته أي ما أعجلته . وقال سعيد بن جبير : يقول الكافر ربّ إنه زاد عليّ في الكتابة ، فيقول الملك : ربنا ما أطغيته أي ما زدت عليه في الكتابة . فحينئذ يقول الله تعالى : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ يعني الكافرين وقرناءهم من الشياطين . قال القشيري : وهذا يدل على أن القرين الشيطان . ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أي أرسلت الرسل . وقيل : هذا خطاب لكل من ٱختصم . وقيل : هو للآثنين وجاء بلفظ الجمع . ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ قيل هو قوله : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » وقيل هو قوله : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . وقال الفرّاء : ما يكذب عندي أي ما يزاد في القول ولا ينقص لعلمي بالغيب . ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أي ما أنا بمعذّب من لم يجرم؛ قاله ٱبن عباس . وقد مضى القول في معناه في «الحج» وغيرها (١) .

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٦ و جـ ١٥ ص ٣٧٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ قرأ نافع وأبو بكر « يَوْمَ يَقُولُ » بالياء اعتبارا بقوله : « لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ » . الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى وهى نون العظمة . وقرأ الحسن « يَوْمَ أَقُولُ » . وعن ابن مسعود وغيره « يَوْمَ يُقَالُ » . وانتصب « يوم » على معنى ما يبدل القول لدىّ يومَ . وقيل : بفعل مقدر معناه وأنذرهم « يَومَ نَقولُ لجهنمَ هَلِ ٱمْتَلأْتِ » لما سبق من وعده إياها أنه يملؤها . وهذا الاستفهام على سبيل التصديق لخبره ، والتحقيق لوعده ، والتقريع لأعدائه ، والتنبيه لجميع عباده . و « تَقُولُ » جهنم « هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » أى ما بقى فىّ موضع الزيادة ؛ كقوله عليه السلام : " هل تَرَكَ لنا عَقِيل من رَبْع أو منزل" أى ما ترك ؛ فمعنى الكلام الجحد . ويحتمل أن يكون استفهاما بمعنى الاستزادة ؛ أى هل من مزيد فأزداد؟ . وإنما صلح هذا للوجهين ؛ لأن فى الاستفهام ضربا من الجحد . وقيل : ليس ثَمَّ قول وإنما هو على طريق المثل ؛ أى إنها فيما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة بذلك ؛ كما قال الشاعر :

ٱمتلأَ الحوضُ وقال قَطْنِي * مَهْلًا رُوَيْدًا قد مَلأْتَ بَطْنِي

وهذا تفسير مجاهد وغيره . أى هل فىّ من مسلك قد امتلأت . وقيل : ينطق الله النار حتى تقول هذا كما تنطق الجوارح . وهذا أصح على ما بيناه فى سورة « الفرقان »(١) . وفى صحيح مسلم والبخارى والترمذى عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(١) راجع جـ ١٣ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية .

" لا تزال جهنم يُلْقَ فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع ربُّ العزة فيها قَدَمه فينْزَوِي(١) بعضُها إلى بعض وتقول قَطْ قَطْ بعزتك وكرمك ولا يزال في الجنة فَضْلٌ حتى يُنشئ الله لها خلقا فيسكنَهم فَضْلَ الجنة " لفظ مسلم . وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة : " وأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله عليها رِجْله يقول لها قَطْ قَطْ فهنالك تمتلئ و ينْزَوِي بعضُها إلى بعض فلا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا " . قال علماؤنا رحمهم الله : أما معنى القَدَم هنا فهم قوم يُقدِّمهم الله إلى النار، وقد سبق في علمه أنهم من أهل النار . وكذلك الرِّجْل وهو العدد الكثير من الناس وغيرهم ؛ يقال : رأيت رِجْلًا من الناس ورِجْلًا من جَرَاد، قال الشاعر :

فَمَرَّ بنا رِجْلٌ من الناس وانْزَوَى * إليهم من الحيِّ اليمانين أَرْجُلُ
قبائلُ من لَخْمٍ وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ * على ٱبْنَيْ نِزارٍ بالعَدَاوة أَحْفَلُ

و يبين هذا المعنى ما روي عن ٱبن مسعود أنه قال : ما في النار بيتٌ ولا سلسلة ولا مِقمع ولا تابوت إلا وعليه ٱسم صاحبه، فكل واحد من الخزنة ينتظر صاحبه الذي قد عرف ٱسمه وصفته ، فإذا ٱستوفى ما أمر به وما ينتظره ولم يبق منهم أحد قال الخزنة : قَطْ قَطْ حسبُنا حسبُنا ٱكتفينا ٱكتفينا، وحينئذ تنزوي جهنم على من فيها وتنطبق إذ لم يبق أحد ينتظر . فعبر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم ؛ و يشهد لهذا التأويل قوله في نفس الحديث : " ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئَ الله لها خلقا فيسكنهم فضل الجنة " وقد زدنا هذا المعنى بيانا ومهدناه في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى والحمد لله . وقال النضر بن شُمَيل في معنى قوله عليه السلام : " حتى يَضعَ الجبَّار فيها قَدَمه " أي من سبق في علمه أنه من أهل النار .

قوله تعالى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي قربت منهم . قيل : هذا قبل الدخول في الدنيا؛ أي قربت من قلوبهم حين قيل لهم ٱجتنبوا المعاصي . وقيل : بعد الدخول

(١) ينزوي بعضها إلى بعض : أي تنقبض على من فيها ، وتشتمل بهذا بهم، وتكف عن سؤال هل من مزيد . (بهامش مسلم) .

قربت لهم مواضعهم فيها فلا تبعد . «غَيْرَ بَعِيدٍ» أى منهم وهذا تأكيد . ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ أى ويقال لهم هذا الجزاء الذى وعدتم فى الدنيا على ألسنة الرسل . وقراءة العامة « تُوعَدُونَ » بالتاء على الخطاب . وقرأ آبن كثير بالياء على الخبر ؛ لأنه أتى بعد ذكر المتقين . ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ أوّاب أى رجّاع إلى الله عن المعاصى ، ثم يرجع ويذنب ثم يرجع ، هكذا قاله الضحاك وغيره . وقال آبن عباس وعطاء : الأوّاب المسبّح من قوله « يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » . وقال الحكم بن عُيَينة : هو الذاكر لله تعالى فى الخلوة . وقال الشعبي ومجاهد : هو الذى يذكر ذنوبه فى الخلوة فيستغفر الله منها . وهو قول آبن مسعود . وقال عُبيد بن عُمير : هو الذى لا يجلس مجلسا حتى يستغفر الله تعالى فيه . وعنه قال : كنا نحدّث أن الأوّاب الحفيظ الذى إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده، اللهم إنى أستغفرك مما أصبت فى مجلسى هذا . وفى الحديث : " من قال إذا قام من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك غفر الله له ما كان فى ذلك المجلس " . وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول . وقال بعض العلماء : أنا أحبّ أن أقول أستغفرك وأسألك التوبة ، ولا أحبّ أن أقول وأتوب إليك إلا على حقيقته .

قلت : هذا آستحسان وآتباع الحديث أولى . وقال أبو بكر الورّاق : هو المتوكل على الله فى السراء والضراء . وقال القاسم : هو الذى لا يشتغل إلا بالله عز وجل . «حَفِيظٍ» قال آبن عباس : هو الذى حفظ ذنوبه حتى يرجع عنها . وقال قتادة : حفيظ لما آستودعه الله من حقه ونعمته وأُتمنه عليه . وعن آبن عباس أيضا : هو الحافظ لأمر الله . مجاهد : هو الحافظ لحق الله تعالى بالاعتراف ولنعمه بالشكر . قال الضحاك : هو الحافظ لوصية الله تعالى بالقبول . وروى مكحول عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حافظ على أربع ركعات من أول النهار كان أوّابا حفيظا " ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ﴾ « مَن » فى محل خفض على البدل من قوله : « لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ » أو فى موضع الصفة لـ « أوّاب » . ويجوز الرفع على الآستئناف ، والخبر

« ٱدْخُلُوهَا » على تقدير حذف جواب الشرط والتقدير فيقال لهم « ٱدْخُلُوهَا » . والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره . وقال الضحاك والسدى : يعنى فى الخلوة حين لا يراه أحد . وقال الحسن : إذا أرخى الستر وأغلق الباب . ﴿ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ مقبل على الطاعة . وقيل : مخلص . وقال أبو بكر الوراق : علامة المنيب أن يكون عارفا لحرمته ومواليا له ، متواضعا لجلاله تاركا لهوى نفسه .

قلت : ويحتمل أن يكون القلب المنيب القلب السليم ؛ كما قال تعالى : « إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » على ما تقدم[(١)] . والله أعلم . ﴿ ٱدْخُلُوهَا ﴾ أى يقال لأهل هذه الصفات ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ أى بسلامة من العذاب . وقيل : بسلام من الله وملائكته عليهم . وقيل : بسلامة من زوال النعم . وقال : « ٱدْخُلُوهَا » وفى أول الكلام « مَنْ خَشِىَ » ؛ لأن « مَنْ » تكون بمعنى الجمع .

قوله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ يعنى ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم . ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ من النعم مما لم يخطر على بالهم . وقال أنس وجابر : المزيد النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف . وقد ورد ذلك فى أخبار مرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ »[(٢)] قال : الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم . وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام ، قالا : أخبرنا المسعودى عن المنهال بن عمرو عن أبى عبيدة بن عبد الله ابن عتبة عن ابن مسعود ، قال : تسارعوا إلى الجمعة فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة كل يوم جمعة فى كثيب من كافور أبيض فيكونون منه فى القرب . قال ابن المبارك : على قدر تسارعهم إلى الجمعة فى الدنيا . وقال يحيى بن سلام : لمسارعتهم إلى الجمع فى الدنيا وزاد " فيحدث الله لهم من الكرامة شيئا لم يكونوا رأوه قبل ذلك " . قال يحيى : وسمعت غير المسعودى يزيد فيه ؛ قوله تعالى : « وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ » .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١١٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

قلت : قوله "في كثيب" يريد أهل الجنة؛ أي وهم على كثيب . كما في مرسل الحسن؛ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أهل الجنة ينظرون ربهم في كل يوم جمعة على كثيب من كافور" . الحديث . وقد ذكرناه في كتاب « التذكرة » وقيل : إن المزيد ما يُزوَّجون به من الحور العين ؛ رواه أبو سعيد الخدري مرفوعا .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨)

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمة هم أشدّ منهم بطشا وقوّة . ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي ساروا فيها طلبا للهرب . وقيل : أثَّروا في البلاد ؛ قاله ٱبن عباس . وقال مجاهد: ضربوا وطافوا. وقال النضر بن شميل : دوَّروا . وقال قتادة : طوَّفوا . وقال المؤرِّج تباعدوا ؛ ومنه قول آمرئ القيس :

وقد نَقَّبتُ في الآفاق حتَّى * رَضيتُ من الغنيمة بالإياب

ثم قيل : طافوا في أقاصي البلاد طلبا للتجارات ، وهل وجدوا من الموت محيصا ؟ . وقيل : طوّفوا في البلاد يلتمسون مَحيصًا من الموت . قال الحرث بن حلِّزة :

نَقَّبُوا في البلادِ من حَذَرِ المو * تِ وجَالُوا في الأرضِ كُلَّ مَجالِ

وقرأ الحسن وأبو العالية «فَنَقَبُوا» بفتح القاف وتخفيفها . والنَّقْب هو الخرق والدخول في الشيء . وقيل : النَّقْب الطريق في الجبل، وكذلك المَنْقَب والمَنْقَبة عن ٱبن السكيت . ونَقَب الجدارَ نَقْبا ، وٱسم تلك النَّقْبة نَقْب أيضا ، وجمع النَّقْب النُّقوب ؛ أي خرقوا البلاد وساروا في نقوبها . وقيل : أثّروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقب . وقرأ السُّلَمِي ويحيى بن يَعْمَر «فَنَقِّبُوا» بكسر القاف والتشديد على الأمر بالتهديد والوعيد؛ أي طَوِّفوا البلاد وسيروا

فيها فانظروا ﴿ هَلْ مِن ﴾ الموت ﴿ مَحِيصٍ ﴾ ومَهْرَب ؛ ذكره الثعلبي . وحكى القشيري «فَنَقِبُوا» بكسر القاف مع التخفيف أي أكثروا السير فيها حتى نَقِبت دوابُّهم . الجوهري : ونَقِبَ البعيرُ بالكسر إذا رَقَّت أخفافُه ، وأنقب الرجلُ إذا نَقِب بعيرُه ، ونَقِب الخفُّ الملبوس أي تخرق . والمحيص مصدر حاص عنه يحيص حَيْصا وحُيوصا ومَحيصا ومَحاصا وحَيَصانا أي عَدَل وحاد . يقال ما عنه مَحِيص أي مَحِيد ومَهْرَب . والانحياص مثله ؛ يقال للأولياء : حاصوا عن العدو وللأعداء انهزموا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرة وموعظة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي عقل يتدبر به ؛ فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه ؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : لمن كان له حياة ونفس مميزة فعبر عن النفس الحية بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها ؛ كما قال امرؤ القيس :

أَغَـرَّكِ مِنِّي أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِي * وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِ

وفي التنزيل : « لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا » . وقال يحيى بن معاذ : القلب قلبان ؛ قلب محتش بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة . ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أي استمع القرآن . تقول العرب : ألق إليّ سمعك أي استمع . وقد مضى في «طه»(١) كيفية الاستماع وثمرته . « وَهُوَ شَهِيدٌ » أي شاهد القلب ؛ قال الزجاج : أي وقلبه حاضر فيما يسمع . وقال سفيان : أي لا يكون حاضرا وقلبه غائب . ثم قيل : الآية لأهل الكتاب ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال الحسن : إنها في اليهود والنصارى خاصة . وقال محمد ابن كعب وأبو صالح : إنها في أهل القرآن خاصة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ تقدم في « الأعراف »(٢) وغيرها . واللغوب التعب والإعياء ؛ تقول منه : لَغَب

(١) راجع جـ ١١ ص ١٧٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يَلْغُب بالضم لُغُوبا، ولَغِب بالكسر يلْغَب لُغُوبا لغة ضعيفة فيه . وألغبته أنا أى أنصبته . قال قتادة والكلبي : هذه الآية نزلت فى يهود المدينة؛ زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ؛ فجعلوه راحة ، فأكذبهم الله تعالى فى ذلك .

قوله تعالى : فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون؛ أى هوّن أمرهم عليك . ونزلت قبل الأمر بالقتال فهى منسوخة . وقيل : هو ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم وأمته . وقيل معناه : فاصبر على ما يقوله اليهود من قولها إن الله استراح يوم السبت .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ قيل : إنه أراد به الصلوات الخمس . قال أبو صالح : قبل طلوع الشمس صلاة الصبح، وقبل الغروب صلاة العصر . ورواه جرير بن عبد الله مرفوعا؛ قال : كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال : "أمَا إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تُضامون فى رؤيته فإن استطعتم ألا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها — يعنى العصر والفجر ثم قرأ جرير — « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا » " متفق عليه واللفظ لمسلم . وقال ابن عباس : « قَبْلَ الْغُرُوبِ » الظهر والعصر . ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ يعنى صلاة العشاءين . وقيل : المراد تسبيحه بالقول تنزيها قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخُراسانى وأبو الأحوص . وقال بعض العلماء فى قوله : «قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ» قال ركعتى الفجر «وَقَبْلَ الْغُرُوبِ» الركعتين قبل المغرب؛ وقال ثُمَامة بن

عبد الله بن أنس كان ذوو الألباب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يُصلُّون الركعتين قبل المغرب . وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا بالمدينة فإذا أذّن المؤذِّنُ لصلاة المغرب آبتدروا السَّوارِيَ(١) فركعوا ركعتين ، حتى إن الرجل الغريب ليدخل المسجد فيحسب أن الصلاة قد صُلِّيت من كثرة من يصلّيهما . وقال قتادة : ما أدركت أحدا يُصلّي الركعتين إلا أنساً وأبا بَرْزَة الأسلمي .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ ﴾ فيه أربعة أقوال : الأول — هو تسبيح الله تعالى في الليل ؛ قاله أبو الأحوص . الثاني — إنها صلاة الليل كله ؛ قاله مجاهد . الثالث — إنها ركعتا الفجر ؛ قاله آبن عباس . الرابع — إنها صلاة العشاء الآخرة ؛ قاله آبن زيد . قال آبن العربي : من قال إنه التسبيح في الليل فيعضُده الصحيح "مَنْ تعارّ(٢) من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم" . وأما من قال إنها الصلاة بالليل فإن الصلاة تسمى تسبيحا لما فيها من تسبيح الله ، ومنه سبحة الضحى . وأما من قال إنها صلاة الفجر أو العشاء فلأنهما من صلاة الليل ، والعشاء أوضحه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ ﴾ قال عمر وعليّ وأبو هريرة والحسن بن عليّ والحسن البصريّ والنخعيّ والشعبيّ والأوزاعيّ والزهريّ : أدبار السجود الركعتان بعد المغرب ، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر ؛ ورواه العوفي عن آبن عباس ، وقد رفعه آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ركعتان بعد المغرب أدبار السجود" ذكره الثعلبي . ولفظ الماوردي : وروى عن آبن عباس قال : بِتُّ ليلةً عند النبي صلى الله عليه وسلم فصلى ركعتين قبل الفجر ، ثم خرج إلى الصلاة فقال : "يابن عباس ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم وركعتان بعد المغرب أدبار السجود" : وقال أنس قال النبي صلى الله

(١) آبتدروا السواري : أي سارعوا إليها ، والسواري جمع السارية وهي الأسطوانة ؛ أي يقف كل مصلّ خلف أسطوانة لئلا يقع المرور بين يديه في صلاته منفردا .	(٢) تعارّ : آستيقظ .

عليه وسلم " من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين ". قال أنس : فقرأ في الركعة الأولى « قُلْ يأيُّهَا الْكَافِرُونَ » وفي الثانية « قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ » قال مقاتل : ووقتها ما لم يغرب الشفق الأحمر. وعن آبن عباس أيضا : هو الوتر. قال آبن زيد هو النوافل بعد الصلوات، ركعتان بعد كل صلاة مكتوبة؛ قال النحاس : والظاهر يدل على هذا إلا أن الأولى آتباع الأكثر وهو صحيح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . وقال أبو الأحوص : هو التسبيح في أدبار السجود. قال آبن العربي وهو الأقوى في النظر. وفي صحيح الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر الصلاة المكتوبة " لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدُّ"(١) وقيل : إنه منسوخ بالفرائض فلا يجب على أحد إلا خمس صلوات؛ نقل ذلك الجماعة .

الخامسة — قرأ نافع وآبن كثير وحمزة « وإِدْبَارَ السُّجُودِ» بكسر الهمزة على المصدر من أدبر الشيء إدبارا إذا ولّى . الباقون بفتحها جمع دُبُر. وهي قراءة علي وآبن عباس؛ ومثالها طُنُب وأطناب ، أو دُبْر كقُفْل وأقفال . وقد آستعملوه ظرفا نحو جئتك في دبر الصلاة وفي أدبار الصلاة. ولا خلاف في آخر «والطور» . «وإِدْبَارَ النُّجُومِ» أنه بالكسر مصدر؛ وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثاني؛ وهو البياض المنشق من سواد الليل .

قوله تعالى : وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(١) "ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ" أى لا ينفع ذا الغنى منك غناه، إنما ينفعه الإيمان والطاعة. (النهاية لابن الأثير).

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ مفعول الأستماع محذوف؛ أى آستمع النداء والصوت أو الصيحة وهى صيحة القيامة، وهى النفخة الثانية ، والمنادى جبريل . وقيل : إسرافيل . الزمخشرى : وقيل إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى ، فينادى بالحشر ويقول : هلمّوا إلى الحساب.فالنداء على هذا فى المحشر . وقيل : وآستمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب، أى يسمع الجميع فلا يبعد أحد عن ذلك النداء . قال عكرمة : ينادى منادى الرحمن فكأنما ينادى فى آذانهم . وقيل : المكان القريب صخرة بيت المقدس . ويقال : إنها وسط الأرض وأقرب الأرض من السماء بآثنى عشر ميلا . وقال كعب : بثمانية عشر ميلا؛ ذكر الأوّل القشيرى والزمخشرى، والثانى الماوردى . فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة فينادى بالحشر أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، وياعظاما نخرة، ويا أكفانا فانية، ويا قلوبا خاوية ، ويا أبدانا فاسدة، ويا عيونا سائلة، قوموا لعرض رب العالمين . قال قتادة : هو إسرافيل صاحب الصّور . ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعنى صيحة البعث . ومعنى «الخروج» الاجتماع إلى الحساب . ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أى يوم الخروج من القبور.﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ نميت الأحياء ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة.﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ إلى المنادى صاحب الصّور إلى بيت المقدس . ﴿ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أى هين سهل . وقرأ الكوفيون « تَشَقَّقُ » بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى . الباقون بإدغام التاء فى الشين . وأثبت آبن محيصن وآبن كثير ويعقوب ياء « المنادى » فى الحالين على الأصل، وأثبتها نافع وأبو عمرو فى الوصل لا غير، وحذف الباقون فى الحالين .

قلت : وقد زادت السنة هذه الآية بيانا؛ فروى الترمذى عن معاوية بن حَيْدة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره، قال وأشار بيده إلى الشام فقال : "من هاهنا إلى هاهنا تُحشَرون ركبانا ومشاة وتُجَرّون على وجوهكم يوم القيامة على أفواهكم الفِدَام تُوفُون سبعين أمة أنتم خيرهم وأكرمهم على الله وإن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه" فى رواية أخرى "فخذه وكفّه" وخرج علىّ بن معبد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث ذكره

ثم يقول — يعني الله تعالى — لإسرافيل : "انفخ نفخة البعث فينفخ فتخرج الأرواح كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل وعزتى وجلالى ليرجعنّ كلّ رُوح إلى جسده فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد ثم تدخل فى الخياشيم فتمشى فى الأجساد مشى السم فى اللديغ ثم تنشق الأرض عنكم وأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها شبابا كلكم أبناء ثلاث وثلاثين واللسان يومئذ بالسريانية" وذكر الحديث ، وقد ذكرنا جميع هذا وغيره فى « التذكرة » مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أى من تكذيبك وشتمك . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أى بمسلّط تجبرهم على الإسلام ، فتكون الآية منسوخة بالأمر بالقتال . والجبّار من الجبرية والتسلّط إذ لا يقال جبّار بمعنى مُجبِر، كما لا يقال خرّاج بمعنى مُخرِج؛ حكاه القشيرى . النحاس : وقيل معنى جبّار لست تُجبِرهم ، وهو خطأ لأنه لا يكون فعّال من أفعل . وحكى الثعلبى : وقال ثعلب قد جاءت أحرف فعّال بمعنى مُفعِل وهى شاذة، جبّار بمعنى مُجبِر، ودرّاك بمعنى مُدرِك ، وسرّاع بمعنى مُسرِع ، وبكّاء بمعنى مُبكٍ ، وعدّاء بمعنى مُعدٍ . وقد قرئ « وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَّادِ » بتشديد الشين بمعنى المرشد وهو موسى . وقيل هو الله . وكذلك قرئ «وَأَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ» يعنى ممسكين . وقال أبو حامد الخارزنجى(١) : تقول العرب سيف سقّاط بمعنى مُسقِط . وقيل : « بِجَبَّارٍ » بمسيطر كما فى الغاشية « لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ » . وقال الفرّاء : سمعت من العرب من يقول جبَره على الأمر أى قهره ، فالجبار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح . وقيل : الجبار من قولهم جبرته على الأمر أى أجبرته وهى لغة كنانية وهما لغتان . الجوهرى : وأجبرته على الأمر أكرهته عليه ، وأجبرته أيضا نسبته إلى [الجبر ، كما تقول أكفرته إذا نسبته إلى الكفر](٢) . ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ قال ابن عباس : قالوا يارسول الله لو خوفتنا فنزلت «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ» أى ما أعددته لمن عصانى من العذاب؛ فالوعيد العذاب والوعد الثواب، قال الشاعر :

(١) الخارزنجى : نسبة إلى خارزنج قرية بنواحى نيسابور . (٢) الزيادة من الصحاح للجوهرى .

وإنّى وإنْ أوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُهُ * لَمُخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ مَوْعِدى

وكان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك . وأثبت الياء « فى وعيدى » يعقوب فى الحالين، وأثبتها ورش فى الوصل دون الوقف، وحذف الباقون فى الحالين . والله أعلم . تم تفسير سورة « قٓ » والحمد لله .

ســورة والذاريات

مكية فى قول الجميع وهى ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا (١) فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا (٢) فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا (٣) فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ (٦)

قوله تعالى : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴾ قال أبو بكر الأنبارى : حدّثنا عبد الله بن ناجية، حدّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدّثنا مكى بن إبراهيم، حدّثنا الجعيد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خصيفة، عن السائب بن يزيد أن رجلا قال لعمر رضى الله عنه : إنى مررت برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن، فقال عمر : اللهم أمكنى منه؛ فدخل الرجل على عمر يوما وهو لابس ثيابا وعمامة وعمر يقرأ القرآن، فلما فرغ قام إليه الرجل فقال : يا أمير المؤمنين ما « الذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » فقام عمر فحسر عن ذراعيه وجعل يجلده، ثم قال : ألبسوه ثيابه واحملوه على قتب، وأبلغوا به حيّه، ثم ليقم خطيبا فليقل : إن صبيغا طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعا فى قومه بعد أن كان سيدا فيهم . وعن عامر بن واثلة أن ابن الكوّاء سأل عليا رضى الله عنه، فقال : يا أمير المؤمنين ما « الذاريات ذروا » [قال] : ويلك سَلْ تفقها ولا تسأل تعنتا « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » الرياح « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » السحاب « فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا » السفن « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » الملائكة . وروى الحرث عن علىّ رضى الله عنه « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا »

قال : الرياح « فَالْحَامِلاتِ وِقْـرًا » قال : السحاب تحمل المـاء كما تحمل ذوات الأربع الوقر « فالجَارِيَاتِ يُسْرًا » قال : السفن مُوقَـرة « فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا » قال : الملائكة تأتى بأمر مختلف ؛ جبريل بالغلظة ، وميكائيل صاحب الرحمـة ، وملك الموت يأتى بالموت . وقال الفراء : وقيل تأتى بأمر مختلف من الخِصْب والجَدْب والمطر والموت والحوادث(١) . ويقال: ذَرَتِ الريحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْوًا وتَذْرِيه ذَرْيا . ثم قيل : « وَالذارِيَاتِ » وما بعده أقسام، وإذا أقسم الـربّ بشيء أثبت له شرفا . وقيـل : المعـنى وربِّ الذاريا ت ؛ والجـواب ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ ﴾ أى الذى توعدون من الخير والشر والثواب والعقاب ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ لا كذب فيه ؛ ومعنى ﴿ لَصَادِقٌ ﴾ لصدق ؛ وقع الاسم موقع المصدر . ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِـعٌ ﴾ يعنى الجزاء نازل بكم . ثم ابتدأ قَسَما آخر فقال : « والسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ . إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » وقيل : إن الذاريات النسـاء الولودات لأن فى ذرايتهنّ ذروا الخلق ؛ لأنهنّ يذرين الأولاد فصرن ذاريات ؛ وأقسم بهنّ لما فى ترائبهنّ من خيرة عبـاده الصالحين . وخص النسـاء بذلك دون الرجال وإن كان كل واحد منهما ذاريا لأمرين : أحدهما لأنهنّ أوعيـة دون الرجال ، فلاجتماع الذّروين فيهنّ خصصن بالذكر . الثانى — أن الذّرو فيهنّ أطول زمانا ، وهنّ بالمباشرة أقرب عهدا . « فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا » السحاب . وقيل : الحاملات من النساء إذا ثقلن بالحمـل . والوِقر بكسر الواو ثقل الحمـل على ظهر أو فى بطن ؛ يقال : جاء يحمل وِقره وقد أوقر بعيرَه . وأكثر مايستعمل الوِقر فى حمـل البغل والحمار ، والوَسْق فى حمـل البعير . وهذه امرأة مُوقَرة بفتح القاف إذا حملت حملا ثقيلا . وأوقرت النخلة كثر حَمْلُها ؛ يقال : نخلة مُوقِرة ومُوقِر ومُوقَرة ، وحكى مُوقَر وهو على غير القياس ؛ لأن الفعل للنخلة . وإنما قيل : مُوقِر بكسر القاف على [قياس](٢) قولك امرأة حامل ؛ لأن حمل الشجر مشبه بحمل النساء ؛ فأما مُوقَر بالفتح فشاذ ؛ وقد روى فى قول لبيد يصف نخيلا :

عَصَبٌ كَوارِعُ فى خليج مُحَلِّمٍ * حَمَلَتْ فمنهـا مُوقَـرٌ مَكْمُـومُ

---

(١) وفى نسخ من الأصل الخوارق . (٢) الزيادة من كتب اللغة .

والجمع مواقر. فأما الوَقْر بالفتح فهو ثقل الأذن؛ وقد وقرت أذنه تَوْقر وَقْرا أى صَمّت؛ وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين وقد تقدّم في «الأنعام»(١) القول فيه.

«فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا» السفن تجرى بالرياح يسرًا إلى حيث سيرت. وقيل: السحاب؛ وفي جريها يسرًا على هذا القول وجهان: أحدهما — إلى حيث يسيرها الله تعالى من البلاد والبقاع. الثاني — هو سهولة تسييرها؛ وذلك معروف عند العرب، كما قال الأعشى:

كأنّ مِشيَتَها مِنْ بيتِ جارتِها * مَشْيُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

قوله تعالى: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ قيل: المراد بالسماء هاهنا السُّحُب التي تظل الأرض. وقيل: السماء المرفوعة. ابن عمر: هي السماء السابعة؛ ذكره المهدوى والثعلبي والماوردى وغيرهم. وفي «الْحُبُك» أقوال سبعة: الأول — قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والربيع: ذات الخلق الحسن المستوى. وقاله عكرمة؛ قال: ألم تر إلى النساج إذا نسج الثوب فأجاد نسجه يقال منه حَبَكَ الثوبَ يَحْبِكُه بالكسر حَبْكًا أى أجاد نسجه. قال ابن الأعرابي: كل شيء أحكمته وأحسنت عمله فقد احتبكته. والثاني — ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بن جبير، وعن الحسن أيضا ذات النجوم وهو الثالث. الرابع — قال الضحاك: ذات الطرائق؛ يقال لما تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح حُبُك. ونحوه قول الفراء؛ قال: الحُبُك تكسّر كل شيء كالرمل إذا مرت به الريح الساكنة، والماء القائم

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ طبعة أولى أو ثانية.

إذا مرت به الريح ، ودرع الحديد لها حُبُك ، والشعرة الجَعْدة تكسّرها حُبُك ، وفى حديث الدجّال إنّ شعره حُبُك . قال زهير :

مُكَلَّلٌ بأصـولِ النَّجْـمِ تَنْسِجُه * رِيحٌ خَرِيقٌ لِضاحِى مائِه حُبُكُ (١)

ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها . الخامس — ذات الشدة ؛ قاله ابن زيد ، وقرأ « وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا » . والمحبوك الشديد الخَلْق من الفرس وغيره ؛ قال امرؤ القيس :

قـد غَدَا يَحْمِلُنِى فى أنْفِـهِ * لَاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحْبُوكٌ مُمَرّ

وقال آخـر (٢) :

مَرِجَ الدِّينُ فأعددتُ لَهُ * مُشْرِفَ الحارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدْ

وفى الحديث : إن عائشة رضى الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع فى الصلاة ؛ أى تشدّ الإزار وتحكمه . السادس — ذات الصّفاقة ؛ قاله خَصِيف . ومنه ثوب صفيق ووجه صفيق بيّن الصفاقة . السابع — أن المراد بالطرق المجرّة التى فى السماء سميت بذلك ؛ لأنها كأثر المَجَر . و « الحُبُك » جمع حِباك ؛ قال الراجز :

كأنّما جَلَّلَها الحُوّاكُ * طنفسة فى وَشْيِها حِبَاكُ

والحِبَاك والحَبِيكة الطريقة فى الرمل ونحوه . وجمع الحِبَاك حُبُك وجمع الحَبِيكة حَبَائك ، والحُبَكة مثل العُبَكة وهى الحبّة من السّويق ؛ عن الجوهرى . وروى عن الحسن فى قوله : «ذَاتِ الْحُبُكِ» «الْحُبْك» و«الحِبِك» و «الحِبْك» والحِبَك والحُبَك [وقرأ أيضا «الْحُبُك»] كالجماعة . وروى عن عكرمة وأبى مِجْلَز «الحُبَك» . و«الحِبُك» واحدتها حَبِيكة ؛ «والْحُبْك» مخفّف منه . و « الحِبَك » واحدتها حِبكة . ومن قرأ « الْحُبَك » فالواحدة حُبْكة كبُرقة وبُرَق أو حُبُكة كظُلُمة وظُلَم . ومن قرأ «الحِبِك» فهو كإبِل وإِطِل (٣) و «الحِبْك» مخففة منه .

(١) النجم : كل شىء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل . ريح خريق : شديدة . لضاحى مائه : ماضحا للشمس من الماء أى برز . والبيت فى وصف غدير . (٢) هو أبو دؤاد يصف فرسا .

(٣) الإطل الخاصرة كالها وقيل غير ذلك .

ومن قرأ « الحُبِك » فهو شاذ إذ ليس في كلام العرب فِعُل، وهو محمول على تداخل اللغات؛ كأنه كسر الحاء ليكسر الباء ثم تصوّر « الحُبُك » فضم الباء . وقال جميعه المهدوى .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ هذا جواب القسم الذى هو « والسَّمَاءِ » أى إنكم يأهل مكة « فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ » في محمد والقرآن فمن مصدّق ومكذّب . وقيل : نزلت في المقتسمين . وقيل : آختلافهم قولهم ساحر بل شاعر بل آفتراه بل هو مجنون بل هو كاهن بل هو أساطير الأوّلين . وقيل : آختلافهم أن منهم من نفى الحشر ومنهم من شك فيه . وقيل : المراد عبدة الأوثان والأصنام يقرون بأن الله خالقهم ويعبدون غيره .

قوله تعالى : ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أى يُصرَف عن الإيمان بمحمد والقرآن من صُرِف؛ عن الحسن وغيره . وقيل : المعنى يُصرَف عن الإيمان من أراده بقولهم هو سحر وكهانة وأساطير الأوّلين . وقيل : المعنى يُصرَف عن ذلك الآختلاف من عصمه الله . أَفَكَه يأفِكه أَفْكًا أى قلبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قوله تعالى : «أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا» . وقال مجاهد : معنى « يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ » يُؤفَن عنه من أُفِن والأَفْن فساد العقل . الزمخشرى : وقرئ « يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ » أى يحرمه من حرم؛ من أَفَن الضَّرْعَ إذا أنهكه حَلْبا . وقال قُطْرُب : يُخدَع عنه من خُدِع . وقال اليزيدى : يُدفَع عنه من دُفِع . والمعنى واحد وكله راجع إلى معنى الصرف .

قوله تعالى : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ في التفسير : لُعِن الكذّابون . وقال آبن عباس : أى قُتِل المرتابون؛ يعنى الكهنة . وقال الحسن : هم الذين يقولون لسنا نبعث . ومعنى « قُتِل » أى هؤلاء ممن يجب أن يدعى عليهم بالقتل على أيدى المؤمنين . وقال الفراء : معنى «قُتِل» لُعِن؛ قال : و«الْخَرَّاصُونَ» الكذّابون الذين يتخرّصون بما لا يعلمون؛ فيقولون : إن محمدا مجنون كذّاب ساحر شاعر ؛ وهذا دعاء عليهم؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك . قال آبن الأنبارى : علمنا الدعاء عليهم؛ أى قولوا : «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ» وهو جمع خارص والخَرْص الكذب والخرّاص الكذّاب، وقد خَرَص يَخْرُص بالضم خَرْصا أى كَذَب؛

يقال : خَرَص وٱخْتَرص ، وخَلَق وٱختلَق ، وبَشَك وٱبْتَشك ، وسَرَج وٱسْترج ، ومان ، بمعنى كذب ؛ حكاه النحاس . والخَرْص أيضا حَزْر ما على النخل من الرطب تمرا . وقد خَرَصتُ النخلَ والاسم الخِرْص بالكسر ؛ يقال : كم خِرْص نخلك والخرّاص الذى يخرصها فهو مشترك . وأصل الخُرْص القطع على ما تقـدّم بيانه فى «الأنعام» (١) ومنه الخَـرِيص للخليج ؛ لأنه ينقطع إليه المـاء ، والخُـرْص حبّة القُرْط إذا كانت منفردة ؛ لانقطاعها عن أخواتها ، والخُـرْص العود ؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته . والخَرِص الذى به جوع وبَرْد لأنه ينقطع به ؛ يقال : خَرِص الرجلُ بالكسر فهو خَرِص ، أى جائع مقرور ، ولا يقال للجوع بلا برد خَرَص . ويقال للبرد بلا جوع خَصَر . والخُـرْص بالضم والكسر الحَلْقة من الذهب أو الفضة والجمع الخِرْصان . ويدخل فى الخَـرْص قول المنجمين وكل من يدّعى الحَـدْس والتخمين . وقال آبن عباس : هم المقتسمون الذين آقتسموا أعقاب مكة ، وآقتسموا القول فى نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ؛ ليصرفوا الناس عن الإيمـان به .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ الغَمْرة ماستر الشيء وغطّاه . ومنه نهر غَمْر أى يغمُر من دخله ، ومنه غَمَرات الموت . «سَاهُونَ» أى لاهون غافلون عن أمر الآخرة .

قوله تعـالى : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ أى متى يوم الحساب ؛ يقولون ذلك آستهزاءً وشكًّا فى القيـامة . ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ نصب « يَوْمَ » على تقـدير الجزاء أى هـذا الجزاء « يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ » أى يُحرقون ، وهو من قولهم : فتنت الذهب أى أحرقته لتختبره ، وأصل الفتنة الاختبار . وقيل : إنه مبنىّ بنى لإضافته إلى غير متمكن ، وموضعه نصب على التقدير المتقدّم ، أو رفع على البدل من « يَوْمُ ٱلدِّينِ » . وقال الزجاج : يقول يعجبنى يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم ، وإن شئت فتحت وهو فى موضع رفع ، فإنمـا آنتصب هذا وهو فى المعنى رفع . وقال آبن عباس : «يُفْتَنُونَ» يعذَّبون . ومنه قول الشاعر :

كلُّ آمرِئٍ من عبـادِ اللهِ مُضطَهدٌ * ببطـنِ مكةَ مقهـورٌ ومفتـونُ

(١) راجع جـ ٧ ص ٧١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أي يقال لهم ذوقوا عذابكم ؛ قاله ابن زيد . مجاهد : حريقكم . ابن عباس : أي تكذيبكم يعني جزاءه . الفرّاء : أي عذابكم ﴿ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ في الدنيا . وقال : « هذا » ولم يقل هذه؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ لما ذكر مآل الكفار ذكر مآل المؤمنين أي هم في بساتين فيها عيون جارية على نهاية ما يتنزه به . ﴿ آخِذِينَ ﴾ نصب على الحال . ﴿ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي ما أعطاهم من الثواب وأنواع الكرامات ؛ قاله الضحاك . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : « آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ » أي عاملين بالفرائض . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ أي قبل دخولهم الجنة في الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ بالفرائض . وقال ابن عباس : المعنى كانوا قبل أن يفرض عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم .

قوله تعالى : كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ معنى « يهجعون » ينامون والهجوع النوم ليلا ، والتّهجاع النّومة الخفيفة ؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت :

قد حَصَّت البيضةُ رأسي فما * أَطْعَـــمُ نوماً غـــيرَ تَهْجاع

وقال عمرو بن مَعْدِي كَرِب يتشوّق أخته وكان أسرها الصِّمَّة أبو دُرَيد بن الصِّمَّة :

أَمِنْ رَيْحانَةَ الدّاعي السَّميعُ * يُؤرِّقُني وأَصحابي هُجُـــوعُ

يقال : هَجَع يَهْجَع هُجوعا وهَبَغ يَهْبَغ هُبوغا بالغين المعجمة إذا نام ؛ قاله الجوهري .

واختلف في « ما » فقيل : صلة زائدة — قاله إبراهيم النخعي — والتقدير كانوا قليلا من الليل

يهجعون ؛ أى ينامون قليــلا من الليل ويصلّون أكثره . قال عطاء : وهذا لمـا أمروا بقيام الليــل . وكان أبو ذرّ يحتجز ويأخذ العصا فيعتمد عليها حتى نزلت الرخصــة « قُمِ اللَّيْــلَ إِلَّا قَلِيلًا » الآية . وقيل : ليس « ما » صــلة بل الوقف عند قوله : « قَلِيلًا » ثم يبتدئ « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » فـ « ـما » للنفى وهو نفى النوم عنهم البتــة . قال الحسن : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله وربما نشطوا فجدّوا إلى السحر . روى عن يعقوب الحضرمى أنه قال : آختلفوا فى تفسير هــذه الآية فقال بعضهم : « كَانُوا قَلِيلًا » معناه كان عددهم يسيرا ثم آبتدأ فقال : « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون ؛ قال آبن الأنبارى : وهذا فاسد ؛ لأن الآية إنمـا تدل على قلة نومهم لا على قلة عددهم ، وبعد فلو آبتدأنا « مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » على معنى من الليل يهجعون لم يكن فى هــذا مدح لهم ؛ لأن الناس كلهم يهجعون من الليل إلا أن تكون « ما » جحدا .

قلت : وعلى ما تأوّله بعض الناس — وهو قول الضحاك — من أن عددهم كان يسيرا يكون الكلام متصلا بما قبل من قوله : « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ » أى كان المحسنون قليلا ، ثم آســتأنف فقال : « مِنَ اللَّيْــلِ مَا يَهْجَعُونَ » وعلى التأويل الأوّل والثــانى يكون « كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ» خطابا مستأنفا بعد تمام ما تقدّمه ويكون الوقف على « مَا يَهْجَعُونَ» وكذلك إن جعلت « قَلِيلًا » خبر كان وترفع « ما » بقليل؛ كأنه قال : كانوا قليلا من الليل هجوعهم . فـ « ـما » يجوز أن تكون نافية ، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدرا ، ويجوز أن تكون رفعا على البــدل من آسم كان ، التقدير كان هجوعهم قليــلا من الليل ، وآنتصاب قوله « قَلِيلًا » إن قدرت « ما » زائدة مؤكدة بـ « يَهْجَعُونَ» على تقدير كانوا وقتا قليلا أو هجوعا قليــلا يهجعون ، وإن لم تقدر « ما » زائدة كان قوله : « قَلِيــلًا » خبر كان ولم يجز نصبه بـ « يَهْجَعُونَ » ؛ لأنه إذا قدر نصبه بـ « يهجعون » مع تقدير « ما » مصدرا قدمت الصلة على الموصول . وقال أنس وقتادة فى تأويل الآية : أى كانوا يصلّون بين العشاءين ؛ المغرب والعشاء . أبو العاليــة : كانو لا ينامون بين العشاءين . وقاله آبن وهب . وقال مجاهــد :

نزلت فى الأنصار كانوا يصلون العشاءين فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثم يمضون إلى قُباء . وقال محمد بن على بن الحسين : كانوا لا ينامون حتى يصلّوا العَتَمة . قال الحسن : كأنه عَدّ هجوعهم قليلا فى جنب يقظتهم للصلاة . وقال آبن عباس ومُطرِّف : قلّ ليلة لا تأتى عليهم إلا يصلّون لله فيها إما من أوّلها وإما من وسطها .

الثانيــة — روى عن بعض المتهجدين أنه أتاه آتٍ فى منامه فأنشده :

وكيف تنامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ * ولم تدرِ فى أىّ المجالِسِ تنزلُ

وروى عن رجل من الأزد أنه قال : كنت لا أنام الليل فنمت فى آخر الليل ، فإذا أنا بشابين أحسن ما رأيت ومعهما حُلَل ، فوقفا على كل مصلّ وكسواه حلّة ، ثم آنتهيا إلى النيام فلم يكسواهم ، فقلت لهما : آكسوانى من حُلَلكما هذه ؛ فقالا لى : إنها ليست حُلّة لباس إنما هى رضوان الله يحلّ على كل مصلّ . ويروى عن أبى خَلّاد أنه قال : حدّثنى صاحب لى قال : فبينا أنا نائم ذات ليلة إذ مُثّلت لى القيامةُ ، فنظرت إلى أقوام من إخوانى قد أضاءت وجوههم ، وأشرقت ألوانهم ، وعليهم الحلل من دون الخلائق ، فقلت : ما بال هؤلاء مكتسون والناس عُراة ، ووجوههم مشرقة ووجوه الناس مغبرة ، فقال لى قائل : الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلّون بين الأذان والإقامة ، والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجد ، قال : ورأيت أقواما على نجائب فقلت : ما بال هؤلاء ركبانا والناس مشاة حفاة؟ فقال لى : هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقرّبا لله تعالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب ؛ قال : فصحت فى منامى واهًا للعابدين ، ما أشرف مقامهم . ثم آستيقظت من منامى وأنا خائف .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ مدح ثان ؛ أى يستغفرون من ذنوبهم ؛ قاله الحسن . والسحر وقت يرجى فيه إجابة الدعاء . وقد مضى فى «آل عمران»[(1)] القول فيه . وقال آبن عمر ومجاهد : أى يصلّون وقت السحر فسمّوا الصلاة آستغفارا . وقال الحسن فى قوله تعالى : « كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ » مدّوا الصلاة من أوّل الليل

---

(١) راجع ج ٤ ص ٣٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إلى السحر ثم استغفروا فى السحر . ابن وهب : هى فى الأنصار؛ يعنى أنهم كانوا يغدون من قُباء فيصلون فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم . ابن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قالوا : كانوا ينضحون لناس من الأنصار بالدلاء على الثمار ثم يهجعون قليلا ، ثم يصلّون آخر الليل . الضحاك : صلاة الفجر . قال الأحنف بن قيس : عرضت عملى على أعمال أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بَوْنا بعيدا لا نبلغ أعمالهم «كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ» وعرضت عملى على أعمال أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم، يكذّبون بكتاب الله وبرسوله وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ مدح ثالث . قال محمد بن سيرين وقتادة : الحق هنا الزكاة المفروضة . وقيل : إنه حقّ سوى الزكاة يصل به رَحما، أو يَقرى به ضيفا، أو يحمل به كَلّا، أو يغنى به محروما . وقاله ابن عباس؛ لأن السورة مكية وفرضت الزكاة بالمدينة . ابن العربى : والأقوى فى هذه الآية أنها الزكاة؛ لقوله تعالى فى سورة سأل سائل : « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ . لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » والحقّ المعلوم هو الزكاة التى بين الشرع قدرها وجنسها ووقتها، فأما غيرها لمن يقول به فليس بمعلوم؛ لأنه غير مقدّر ولا مجنّس ولا موقّت .

الخامسة — قوله تعالى : «لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ» السائل الذى يسأل الناس لفاقته؛ قاله ابن عباس وسعيد بن المسيِّب وغيرهما . « وَالْمَحْرُومِ » الذى حُرم المالَ . واختلف فى تعيينه؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما : المحروم المُحارَف الذى ليس له فى الإسلام سهم . وقالت عائشة رضى الله عنها : المحروم المُحارَف الذى لا يتيسر له مكسبه؛ يقال : رجل مُحارَف بفتح الراء أى محدود محروم وهو خلاف قولك مُبارَك . وقد حُورِف كسبُ فلان إذا شُدِّد عليه فى معاشه كأنه مِيل برزقه عنه . وقال قتادة والزهرى : المحروم المتعفِّف الذى لا يسأل الناس شيئا ولا يُعلِم بحاجته . وقال الحسن ومحمد بن الحنفية : المحروم الذى يجىء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث سرية فأصابوا وغنموا فجاء قوم بعد ما فرغوا فنزلت هذه الآية « وفى أَمْوَالِهِمْ » . وقال

عكرمة : المحروم الذي لا يبقى له مال . وقال زيد بن أسلم : هو الذي أصيب ثمره أو زرعه أو نسل ماشيته . وقال القُرَظيّ : المحروم الذي أصابته الجائحة ثم قرأ «إِنَّا لَمُغْرَمُونَ . بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» نظيره في قصة أصحاب الجنة حيث قالوا : « بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» وقال أبو قِلابة: كان رجل من أهل اليمامة له مال فجاء سيل فذهب بماله، فقال رجل من أصحابه هذا المحروم فاقسموا له . وقيل : إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبِر عنه . وهو يروى عن ابن عباس أيضا . وقال عبد الرحمن بن حميد : المحروم المملوك . وقيل: إنه الكلب . روى أن عمر بن عبد العزيز كان في طريق مكة، فجاء كلب فانتزع عمر رحمه الله كتِف شاه فرمى بها إليه وقال : يقولون إنه المحروم . وقيل : إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوى الأنساب؛ لأنه قد حُرِم كسب نفسه حتى وجبت نفقته في مال غيره . وروى ابن وهب عن مالك : أنه الذي يُحرَم الرزق وهذا قول حسن؛ لأنه يعم جميع الأقوال . وقال الشعبي: لي اليوم سبعون سنة منذ احتلمت أسأل عن المحروم فما أنا اليوم بأعلم مني فيه يومئذ . رواه شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي . وأصله في اللغة الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع . قال عَلْقَمة :

ومُطْعَمُ الغُنْمِ يومَ الغُنْمِ مُطْعَمُهُ * أَنَّى تَوَجَّـه والمحـرومُ محـرومُ

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنـا ظلمونا حقوقنا التي فَرَضتَ لنـا عليهم فيقول الله تعـالى وعزتي وجلالي لأقربنكم ولأبعدنّهم" ثم تلا رسـول الله صلى الله عليه وسلم « وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » ذكره الثعلبي .

قوله تعـالى : وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

قوله تعـالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ لمـا ذكر أمر الفريقين بيّن أن في الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور؛ فمنها عود النبات بعد أن صار هشيما، ومنها أنه

قدر الأقوات فيها قواما للحيوانات ، ومنها سيرهم فى البلدان التى يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذّبة . والموقنون هم العارفون المحقّقون وحدانية ربهم، وصدق نبوّة نبيهم؛ خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قيل : التقدير وفى الأرض وفى أنفسكم آيات للموقنين . وقال قتادة : المعنى من سار فى الأرض رأى آياتٍ وعبرا، ومن تفكر فى نفسه علم أنه خلق ليعبد الله . ابن الزبير ومجاهد : المراد سبيل الخلاء والبول . وقال السائب ابن شريك : يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين؛ ولو شرب لبنا محضا لخرج منه الماء ومنه الغائط فتلك الآية فى النفس . وقال ابن زيد : المعنى أنه خلقكم من تراب ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . السدى : «وَفِي أَنْفُسِكُمْ» أى فى حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم . الحسن : وفى الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، والشيب بعد السواد . وقيل : المعنى وفى خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح ، وفى اختلاف الألسنة والألوان والصُّور ، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة ، وحسبك بالقلوب وما فيها من العقول، وما خصّت به من أنواع المعانى والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتّيها لما خُلقت له ، وما سوّى فى الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنى ، وأنه إذا جسا شىء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » . ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يعنى بصر القلب ليعرفوا كمال قدرته . وقيل : إنه نُجْح العاجز، وحرمان الحازم .

قلت : كل ما ذكر مراد فى الاعتبار . وقد قدّمنا فى آية التوحيد من سورة « البقرة »[(١)] أن ما فى بدن الإنسان الذى هو العالم الصغير شىء إلا وله نظير فى العالم الكبير، وذكرنا هنالك من الاعتبار ما يكفى ويغنى لمن تدبر .

(١) راجع ج ٢ ص ٢٠٢ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق . قال سعيد بن جبير : كل عين قائمة فإنها من الثلج . وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم . وقال أهل المعاني : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » معناه وفي المطر رزقكم سمي المطر سماء؛ لأنه من السماء ينزل . قال الشاعر (١) :

إذا سقط السماءُ بأرض قومٍ * رعيناه وإنْ كانوا غضابَا

وقال ابن كيسان : يعني وعلى رب السماء رزقكم ؛ نظيره : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » . وقال سفيان الثوري : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » أي عند الله في السماء رزقكم . وقيل : المعنى وفي السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب في أم الكتاب . وعن سفيان قال : قرأ واصل الأحدب « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : ألا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، فدخل خربة فمكث ثلاثا لا يصيب شيئا فإذا هو في الثالثة بدوخلة (٢) رطب ، وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دوخلتين ، فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق الله بالموت بينهما . وقرأ ابن محيصن ومجاهد « وَفِي السَّمَاءِ رَازِقُكُمْ » بالألف وكذلك في آخرها « إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّازِقُ » . ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال مجاهد : يعني من خير وشر . وقال غيره : من خير خاصة . وقيل : الشر خاصة . وقيل : الجنة ؛ عن سفيان بن عيينة . الضحاك : « وَمَا تُوعَدُونَ » من الجنة والنار . وقال ابن سيرين : « وَمَا تُوعَدُونَ » من أمر الساعة . وقاله الربيع .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أكد ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق ، وأقسم عليه بأنه لحق ثم أكده بقوله : ﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ وخص النطق من بين سائر الحواس ؛ لأن ما سواه من الحواس يدخله التشبيه ، كالذي

(١) هو معود الحكماء معاوية بن مالك ؛ وسمي معود الحكماء لقوله في هذه القصيدة :

أعود مثلها الحكماء بعدي * إذا ما الحق في الحدثان نابا

(٢) الدوخلة (بتشديد اللام وتخفيفها) : سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب .

يُرى فى المـرآة ، وٱستحالة الذوق عند غلبـة الصفراء ونحوها ، والدوىّ والطنين فى الأذن ، والنطق سالم من ذلك ، ولا يُعترض بالصَّدَى لأنه لا يكون إلا بعد حصول الكلام من الناطق غير مَشُوب بما يشكل به . وقال بعض الحكماء : كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره ، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنـه أن يأكل رزق غيره . وقال الحسن : بلغنى أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال : "قاتل الله أقواما أقسم لهم ربهم بنفسه ثم لم يصدّقوه قال الله تعالى « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ »" . وقال الأصمعى : أقبلت ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابىّ جلف جاف على قعود له متقلّدا سيفه وبيـده قوسه ، فدنا وسـلّم وقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى أَصْمَـع ، قال : أنت الأصمعىّ ؟ قلت : نعـم . قال : ومن أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يُتلَى فيـه كلامُ الرحمن ؛ قال : وللرحمن كلام يتلوه الآدميون ؟ قلت : نعم ؛ قال : فاتل علىّ منه شيئا ؛ فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا » إلى قوله : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » فقال : يا أصمعى حسبك . ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها ، وقال : أَعِنِّى على توزيعها ، ففرّقناها على من أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما ووضعهما تحت الرَّحل وولى نحو البادية وهو يقول : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فمقتُّ نفسى ولمتُها ، ثم حججت مع الرشـيد ، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيـق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى وهو ناحل مصفر ، فسلّم علىّ وأخذ بيدى وقال : اتل علىّ كلام الرحمن ، وأجلسنى من وراء المقام فقرأت « وَالذَّارِيَاتِ » حـتى وصلت إلى قوله تعـالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ » فقـال الأعرابى : لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقًّا ، وقال : وهل غير هـذا ؟ قلت : نعم ؛ يقول الله تبارك وتعـالى : « فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » قال فصاح الأعرابى وقال : ياسبحان الله من الذى أغضب الجليل حتى حلف ! ألم يصدّقوه فى قوله حتى ألجئوه إلى اليمين ؟ فقالهـا ثلاثا وخرجت بهـا نَفْسه . وقال يزيد بن مرثد : إن رجلا جاع بمكان ليس فيـه شىء فقال : اللهـم رزقك الذى وعدتنى فأتنى به ، فشبـع وروِى من غير طعام ولا شراب . وعن أبى سعيد الخدرىّ قال قال النبى صلى الله عليـه وسلم : "لو أن أحدكم

فرّ من رزقه لتبعه كما يتبعه الموت " أسنده الثعلبي . وفي سنن ابن ماجه عن حبة وسواء ابني خالد قالا دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعالج شيئا فأعنّاه عليه، فقال : "لا تيأسا من الرزق ماتهززت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قِشْر (١) ثم يرزقه الله " . وروى أن قوما من الأعراب زرعوا زرعا فأصابته جائحة فحزنوا لأجله ، فخرجت عليهم أعرابية فقالت : مالى أراكم قد نكستم رءوسكم ، وضاقت صدوركم ، هو ربنا والعالم بنا ، رزقنا عليه يأتينا به من حيث شاء ، ثم أنشأت تقول :

لو كان في صخرةٍ في البحر راسيةٍ * صَمّا مُلَملَمةٍ مُلْسًا نواحيها
رِزْقٌ لنفسٍ بَرَاها اللهُ لانفلقتْ * حتى تؤدى إليها كُلَّ ما فيها
أو كان بين طِباقِ السبعِ مَسْلَكُها * لَسهَّل اللهُ في المَرقَى مَرَاقيها
حتّى تنالَ الذى فى اللوحِ خُطَّ لها * إنْ لم تنَلْه وإلا سوف يأتيها

قلت : وفي هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمع قوله تعالى : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » فرجع ولم يكلم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ليس الأشعريون بأهونَ على الله من الدواب : وقد ذكرناه في سورة « هود » (٢) . وقال لقمان : « يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ » الآية . وقد مضى في « لقمان » (٣) وقد استوفينا هذا الباب في كتاب (قمع الحرص بالزهد والقناعة) والحمد لله . وهذا هو التوكل الحقيقي الذى لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ ؛ رَزَقنا الله إياه، ولا أحالنا على أحد سواه بمنّه وكرمه .

قوله تعالى : « مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ » قراءة العامة « مِثْلَ » بالنصب أى كمثل « مَا أَنَّكُمْ » فهو منصوب على تقدير حذف الكاف أى كمثل نطقكم و « ما » زائدة ؛ قاله بعض الكوفيين . وقال الزجاج والفراء : يجوز أن ينتصب على التوكيد ؛ أى لحَقّ حقًّا مثلَ

(١) القشر هنا الثياب . (٢) راجع حـ ٩ ص ٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع حـ ١٤ ص ٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

نطقك؛ فكأنه نعت لمصدر محذوف. وقول سيبويه: إنه مبني بني حين أضيف إلى غير متمكن و « ما » زائدة للتوكيد. المازني: « مثل » مع « ما » بمنزلة شيء واحد فبني على الفتح لذلك. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: ولأن من العرب من يجعل مثلا منصوبا أبدا؛ فتقول: قال لي رجل مثلك، ومررت برجل مثلك بنصب [مثل على معنى كمثل][1]. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي والأعمش « مثلُ » بالرفع على أنه صفة لحق؛ لأنه نكرة وإن أضيف إلى معرفة، إذ لا يختص بالإضافة لكثرة الأشياء التي يقع بعدها التماثل بين المتماثلين. و « مثل » مضاف إلى « أنكم » و « ما » زائدة ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر إذ لا فعل معها تكون معه مصدرا. ويجوز أن تكون بدلا من « الحق ».

قوله تعالى: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ذكر قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته كما فعل بقوم لوط. « هَلْ أَتَاكَ » أي ألم يأتك. وقيل: « هل » بمعنى قد؛ كقوله تعالى: « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ ». وقد مضى الكلام في ضيف إبراهيم في « هود »[2] « والحجر »[3]. « الْمُكْرَمِينَ » أي عند الله؛ دليله قوله تعالى: « بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ » قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل — زاد عثمان بن حصين — ورفائيل عليهم الصلاة والسلام. وقال محمد بن كعب: كان جبريل ومعه تسعة. وقال عطاء وجماعة: كانوا ثلاثة جبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر.

(١) الزيادة من إعراب القرآن للنحاس. (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ طبعة أولى أو ثانية.

قال ابن عباس : سماهم مكرمين لأنهم غير مدعورين . وقال مجاهد : سماهم مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه . قال عبد الوهاب : قال لي علي بن عياض : عندي هريسة ما رأيك فيها ؟ قلت : ما أحسن رأيي فيها ؛ قال : امض بنا ؛ فدخلت الدار فنادى الغلام فإذا هو غائب ، فما راعني إلا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت وعلى عاتقه المِنْديل ، فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، لو علمتُ يا أبا الحسن أن الأمر هكذا ؛ قال : هَوِّنْ عليك فإنك عندنا مُكْرَم ، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس ؛ انظر إلى قوله تعالى : «هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ» .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ تقدّم في « الحجر » . ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أي عليكم سلام . ويجوز بمعنى أمري سلام أو ردّي لكم سلام . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما « سِلْمٌ » بكسر السين . ﴿ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أي أنتم قوم منكرون ؛ أي غرباء لا نعرفكم . وقيل : لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم فنكرهم ، فقال : « قَوْمٌ مُنْكَرُونَ » . وقيل : أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان . وقال أبو العالية : أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض . وقيل : خافهم ؛ يقال : أنكرته إذا خفته ؛ قال الشاعر (1) :

فَأَنْكَرَتْنِي وما كان الذي نَكِرَتْ * مِنَ الحوادِثِ إلّا الشَّيْبَ والصَّلَعَا

قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ ﴾ قال الزجاج : أي عدل إلى أهله . وقد مضى في « والصافّات » (2) . ويقال : أراغ وارتاغ بمعنى طاب ، وماذا تُرِيغ أي تريد وتطلب ، وأراغ إلى كذا أي مال إليه سرًّا وحاد ؛ فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتان بمعنى . ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أي جاء ضيفه بعجل قد شواه لهم كما في « هود » : « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » . ويقال : إن إبراهيم انطلق إلى منزله كالمستخفي من ضيفه ؛ لئلا يظهروا على ما يريد أن يتخذ لهم من الطعام .

(1) هو الأعشى .

(2) راجع جـ ١٥ ص ٩٤

قوله تعالى : ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ يعنى العجل . ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ قال قتادة : كان عامة مال إبراهيم البقر ، وآختاره لهم سمينا زيادة فى إكرامهم . وقيل : العجل فى بعض اللغات الشاة ، ذكره القشيرى . وفى الصحاح : العِجْل ولد البقرة والعِجَّوْل مثله والجمع العَجاجيل والأنثى عِجْلة ؛ عن أبى الجراح ، وبقرة مُعْجِل ذات عِجْل ، وعِجْل قبيلة من ربيعة .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أى أحسّ منهم فى نفسه خوفا . وقيل : أضمر لما لم يتحرّموا بطعامه . ومن أخلاق الناس أن من تحرّم بطعام إنسان أمنه . وقال عمرو بن دينار : قالت الملائكة لا نأكل إلا بالثمن . قال : كلوا وأدّوا ثمنه . قالوا : وما ثمنه ؟ قال : تسمّون الله إذا أكلتم وتحمدونه إذا فرغتم . فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا : لهذا آتخذك الله خليلا . وقد تقدّم هذا فى « هود » . ولما رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله . ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى بولد يولد له من سارة زوجته . وقيل : لما أخبروه أنهم ملائكة لم يصدّقهم ، فدعوا الله فأحيا العجل الذى قرّبه إليهم . وروى عون بن أبى شدّاد : أن جبريل مسح العجل بجناحه ، فقام يدرج حتى لحق بأمّه وأمّ العجل فى الدار . ومعنى « عليم » أى يكون بعد بلوغه من أولى العلم بالله وبدينه . والجمهور على أن المبشر به هو إسحق . وقال مجاهد وحده : هو إسمعيل وليس بشىء فإن الله تعالى يقول : « فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ » . وهذا نص .

قوله تعالى : فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ ﴾ أى فى صيحة وضجة ؛ عن آبن عباس وغيره . ومنه أخذ صرير الباب وهو صوته . وقال عكرمة وقتادة : إنها الرّنّة والتأوّه ولم يكن هذا الإقبال من مكان إلى مكان . قال الفراء : وإنما هو كقولك أقبل يشتمنى أى أخذ فى شتمى . وقيل : أقبلت فى صَرّة أى فى جماعة من النساء تسمع كلام الملائكة . قال

الجوهري : الصَّرة الضجّة والصيحة ، والصَّرة الجماعة ، والصَّرة الشدّة من كرب وغيره ؛ قال امرؤ القيس :

فَأَلْحَقَهُ بِالهَادِيَاتِ وَدُونَهُ * جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزَيَّلِ (١)

يحتمل هذا البيت الوجوه الثلاثة . وصَرة القيظ شدّة حَرّه . فلما سمعت سارة البشارة صَكَّت وجهها ؛ أي ضربت يدها على وجهها على عادة النّسوان عند التعجب ؛ قاله سفيان الثوري وغيره . وقال ابن عباس : صَكَّت وجهها لطمته . وأصل الصّك الضرب ؛ صكّه أي ضربه ؛ قال الراجز (٢) :

* يَا كَرَوَانًا صُكَّ فَاكْبَأَنَّا *

قال الأموي : كَبَن الظّبيُ إذا لَطأ بالأرض واكْبَأَنّ انقبض . ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أي أتلد عجوز عقيم . الزجاج : أي وقالت أنا عجوز عقيم فكيف ألد؛ كما قالت : « يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ » . ﴿ قَالُوا كَذَلِكِ ﴾ أي كما قلنا لكِ وأخبرناكِ ﴿ قَالَ رَبُّكِ ﴾ فلا تَشُكِّي فيه ، وكان بين البشارة والولادة سنة ، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم يومئذ ابن مائة سنة وقد مضى هذا . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ حكيم فيما يفعله عليم بمصالح خلقه .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٣٧)

(١) ويروى فألحقنا والبيت من معلقته ، والهاديات أوائل بقر الوحش ، وجواحرها متخلفاتها ، ولم تزيل ، أي لم تتفرق ؛ يقول : لما لحق هذا الفرس أوائل بقر الوحش بقيت أواخرها لم تتفرق .

(٢) هو مدرك بن حصن . وتمامه : * قشن بالسلح فلما شنا *

قوله تعالى : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ لما تيقن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة قال لهم : « فَمَا خَطْبُكُمْ » أي شأنكم وقصّتكم « أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ » ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ يريد قوم لوط . ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ أي لنرجمهم بها . ﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي مُعلَّمة . قيل : كانت مخطّطة بسواد وبياض . وقيل : بسواد وحُمرة . وقيل : « مُسَوَّمَةً » أي معروفة بأنها حجارة العذاب . وقيل : على كل حجر آسم من يهلك به . وقيل : عليها أمثال الخواتيم . وقد مضى هذا كله في « هود » . فجعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذّاذهم فلم يفلت منهم مخبر . ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي عند الله وقد أعدّها لرجم من قضى برجمه . ثم قيل : كانت مطبوخة طبخ الآجر ؛ قاله آبن زيد ؛ وهو معنى قوله تعالى : « حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » على ما تقدّم بيانه في « هود » . وقيل : هي الحجارة التي نراها وأصلها طين ، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مر الدهور . وإنما قال « مِنْ طِينٍ » ليعلم أنها ليست حجارة الماء التي هي البَرَد . حكاه القشيري .

قوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لما أردنا إهلاك قوم لوط أخرجنا من كان في قومه من المؤمنين ؛ لئلا يهلك المؤمنون ، وذلك قوله تعالى : « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ » . ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ يعني لوطا وبنتيه وفيه إضمار ، أي فما وجدنا فيها غير أهل بيت . وقد يقال بيت شريف يراد به الأهل . وقوله : « فِيهَا » كناية عن القرية ولم يتقدّم لها ذكر ؛ لأن المعنى مفهوم . وأيضا فقوله تعالى : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ » يدل على القرية ؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية . وقيل : الضمير فيها للجماعة . والمؤمنون والمسلمون ها هنا سواء فجنّس اللفظ لئلا يتكرر ؛ كما قال : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ » . وقيل : الإيمان تصديق القلب ، والإسلام الآنقياد بالظاهر ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنا . فسماهم في الآية الأولى مؤمنين ؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم . وقد مضى الكلام في هذا المعنى في «البقرة»(1) وغيرها . وقوله : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ

(1) راجع جـ ١ ص ١٩٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا » يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام وهو مقتضى حديث جبريل عليه السلام في صحيح مسلم وغيره . وقد بيناه في غير موضع .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً ﴾ أي عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم . نظيره : « وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » . ثم قيل : الآية المتروكة نفس القرية الخربة . وقيل : الحجارة المنضودة التي رُجموا بها هي الآية . ﴿ لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون[1] .

قوله تعالى : وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي مُوسَىٰ ﴾ أي وتركنا أيضا في قصة موسى آية . وقال الفراء : هو معطوف على قوله : « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ » « وَفِي مُوسَىٰ » . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة بيّنة وهي العصا . وقيل : أي بالمعجزات من العصا وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ ﴾ أي فرعون أعرض عن الإيمان « بِرُكْنِهِ » أي بجموعه وأجناده ؛ قاله ابن زيد . وهو معنى قول مجاهد ، ومنه قوله : « أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » يعني المنعة والعشيرة . وقال ابن عباس وقتادة : بقوته . ومنه قول عنترة :

فما أَوْهَى مِرَاسُ الْحَرْبِ رُكْنِي * ولكنْ ما تَقَادَمَ مِن زَمَانِي[2]

وقيل : بنفسه . وقال الأخفش : بجانبه ؛ كقوله تعالى : « أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ » وقاله المؤرّج . الجوهري : وركن الشيء جانبه الأقوى ، وهو يأوي إلى ركن شديد أي عزة ومنعة . القشيري : والركن جانب البدن . وهذا عبارة عن المبالغة في الإعراض عن الشيء .

---

(١) في نسخة : المشفقون .

(٢) في رواية : ولا وصلت إليّ يد الزمان .

﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ « أو » بمعنى الواو ؛ لأنهم قالوهما جميعا . قاله المؤرّج والفراء ؛ وأنشد بيت جرير :

أَثَعْلَبَةَ الفَوَارِسَ أَوْ رِيَاحَا * عَدَلْتَ بِهِمْ طُهَيَّةَ وَالْخِشَابَا (١)

وقد توضع « أو » بمعنى الواو ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » والواو بمعنى أو ؛ كقوله تعالى : « فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ » وقد تقدّم جميع هذا (٢) . ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ ﴾ لكفرهم وتوليهم عن الإيمان . ﴿ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴾ أى طرحناهم ﴿ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ يعنى فرعون؛ لأنه أتى ما يلام عليه .

قوله تعالى : وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)

قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ ﴾ أى وتركنا فى عاد آية لمن تأمل . ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ وهى التى لا تُلْقِح سحابا ولا شجرا، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة؛ ومنه آمرأة عقيم لا تحمل ولا تلد . ثم قيل هى الجنوب . روى آبن أبى ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الريح العقيم الجَنُوب " وقال مقاتل : هى الدبور كما فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم " نُصرت بالصَّبَا وأهلكت عاد بالدَّبُور " . وقال آبن عباس : هى النكباء . وقال عُبيد بن عُمير : مسكنها الأرض الرابعة وما فتح على عاد منها إلا كقدر منخر الثور . وروى آبن أبى نجيح عن مجاهد أيضا أنها الصَّبا؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ أى كالشيء الهشيم؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتت رميم وهشيم . قال آبن عباس : كالشيء الهالك البالى؛ وقاله مجاهد . ومنه قول الشاعر (٣) :

---

(١) طهية كسمية حىّ من تميم نسبوا إلى أمهم ، والخشاب بطون من تميم أيضا .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) هو جرير يرثى آبنه .

تَرَكَتْنِي حِينَ كَفَّ الدَّهْرُ مِنْ بَصَرِي * وإذْ بَقِيتُ كَعَظْمِ الرِّمَّةِ البَالِي

وقال قتادة : إنه الذي ديس من يابس النبات . وقال أبو العالية والسدى : كالتراب المدقوق . قُطْرب : الرَّميم الرَّماد . وقال يمان : ما رَمَّته الماشيةُ من الكلأ بمرمتها . ويقال للشفة المِرَمَّة والمِقَمَّة بالكسر ، والمَرَمَّة بالفتح لغة فيه . وأصل الكلمة من رَمَّ العظمُ إذا بلى تقول منه : رَمَّ العظمُ يَرِمّ بالكسر رِمَّة فهو رميم ؛ قال :

وَرَأَى عَواقِبَ خُلْفِ ذَاكَ مَذَمَّةً * تَبْقَى عليه والعِظَامُ رَمِيمُ

والرِّمة بالكسر العظام البالية والجمع رِمم ورِمام . ونظير هذه الآية : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ » حسب ما تقدم[(1)] .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَفِي ثَمُودَ ﴾ أي وفيهم أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما في هود[(2)] : « تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » . وقيل معنى « تَمَتَّعُوا » أي أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم . ﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أي خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾ أي الموت . وقيل : هي كل عذاب مهلك ؛ قال الحسين بن واقد : كل صاعقة في القرآن فهو العذاب . وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهد والكسائي « الصَّعْقَة » يقال : صَعِق الرجلُ صَعْقة وتَصْعاقا أي غُشي عليه . وصَعَقتهم السماء أي ألقت عليهم الصاعقة . والصاعقة أيضا صيحة العذاب وقد مضى في « البقرة »[(3)] وغيرها . ﴿ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ إليها نهارا . ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ ﴾ قيل : معناه

(1) راجع جـ ١٦ ص ٢٠٦ فما بعدها .　(2) راجع جـ ٩ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .

(3) راجع جـ ١ ص ٢١٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

من نهوض . وقيل : ما أطاقوا أن يستقلوا بعذاب الله وأن يتحملوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم؛ تقول : لا أقوم لهذا الأمر أى لا أطيقه . وقال آبن عباس : أى ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم فى العذاب . ﴿ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴾ أى ممتنعين من العذاب حين أهلكوا؛ أى ما كان لهم ناصر .

قوله تعالى : وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو « وَقَوْمِ نُوحٍ » بالخفض أى وفى قوم نوح آية أيضا . الباقون بالنصب على معنى وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفا على الهاء والميم فى « أَخَذَتْهُمْ » أو الهاء فى « أَخَذْنَاهُ » أى فأخذتهم الصاعقة وأخذت قوم نوح، أو « نَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ » ونبذنا قوم نوح، أو يكون بمعنى آذكر .

قوله تعالى : وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ لما بين هذه الآيات قال : وفى السماء آيات وعبر تدل على أن الصانع قادر على الكمال ، فعطف أمر السماء على قصة قوم نوح لأنهما آيتان . ومعنى « بِأَيْدٍ » أى بقوة وقدرة . عن آبن عباس وغيره . ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ قال آبن عباس : لقادرون . وقيل : أى وإنا لذو سعة وبخلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شىء نريده . وقيل : أى وإنا لموسعون الرزق على خلقنا . عن آبن عباس أيضا . الحسن : وإنا لمطيقون . وعنه أيضا : وإنا لموسعون الرزق بالمطر . وقال الضحاك : أغنيناهم؛ دليله : « عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ » . وقال القتبى : ذو سعة على خلقنا . والمعنى متقارب . وقيل : جعلنا بينهما وبين الأرض سعة . الجوهرى : وأوسع الرجلُ أى صار ذا سَعة وغِنى؛ ومنه قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » أى أغنياء قادرون . فشمل جميع الأقوال . ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾

أي بسطناها كالفراش على وجه الماء ومددناها . ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ أي فنعم الماهدون نحن لهم . والمعنى في الجمع التعظيم ؛ مَهَدت الفراش مَهْدا بَسَطته ووطَّأته ، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ أي صنفين ونوعين مختلفين . قال ابن زيد : أي ذكرا وأنثى وحلوا وحامضا ونحو ذلك . مجاهد : يعني الذكر والأنثى ، والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجن والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشي ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطعوم والأراييح والأصوات ، أي جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا ، ومن قدر على هذا فليقدر على الإعادة . وقيل : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » لتعلموا أن خالق الأزواج فرد ، فلا يقدر في صفته حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء ؛ إذ هو عز وجل وتر « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعالى : فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ لما تقدم ما جرى من تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم ؛ لذلك قال الله تعالى : لنبيه صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد ؛ أي قل لقومك : « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أي فروا من معاصيه إلى طاعته . وقال ابن عباس : فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم . وعنه فروا منه إليه واعملوا بطاعته . وقال محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان : ففروا إلى الله اخرجوا إلى مكة . وقال الحسين

ابن الفضـل : احترزوا من كل شيء دون الله فمن فـر إلى غيره لم يمتنع منه . وقال أبو بكر الورّاق : فِرّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن . وقال الجُنَيد : الشيطان داعٍ إلى الباطل ففروا إلى الله يمنعكم منه . وقال ذو النّون المصري : ففرّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر . وقال عمرو بن عثمان : فرّوا من أنفسكم إلى ربكم . وقال أيضا : فِرّوا إلى ما سبق لكم من الله ولا تعتمدوا على حركاتكم . وقال سهل بن عبد الله : فِرّوا مما سوى الله إلى الله . « إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ » أي أنذركم عقابه على الكفر والمعصية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ أمر محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول هذا للناس وهو النذير . وقيل : هو خطاب من الله للخلق . ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أي من محمد وسيوفه ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أي أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بي ؛ قاله ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ ﴾ هـذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أي كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون، كُذّب من قبلهم وقالوا مثل قولهم . والكاف من « كَذَٰلِكَ » يجوز أن تكون نصبا على تقدير أنذركم إنذارا كإنذار من تقدّمني من الرسـل الذين أنذروا قومهم، أو رفعا على تقدير الأمرُ كذلك أي كالأول . والأول تخويف لمن عصاه من الموحِّدين، والثاني لمن أشرك به من الملحدين . والتمام على قوله : « كَذَٰلِكَ » عن يعقوب وغيره .

قوله تعـالى : ﴿ أَتَوَاصَـوْا بِهِ ﴾ أي أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب . وتواطئوا عليه ؛ والألف للتوبيخ والتعجب . ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي لم يوصِ بعضهم بعضا بل جمعهم الطغيان وهو مجاوزة الحدّ في الكفر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي أعرض عنهم واصفح عنهم ﴿ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ عند الله لأنك أديت ما عليك من تبليغ الرسالة، ثم نسخ هذا بقوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وقيل : نسخ بآية السيف . والأول قول الضحاك ؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة . وقال مجاهد : « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ » فأعرض عنهم « فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ » أي ليس يلومك

ربك على تقصير كان منك « وَذَكِّرْ » أي بالعظة فإن العظة « تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » قتادة : « وَذَكِّرْ » بالقرآن « فَإِنَّ الذِّكْرَى » به « تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » . وقيل : ذكرهم بالعقوبة وأيام الله . وخصّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ قيل : إن هذا خاصّ فيمن سبق في علم الله أنه يعبده ، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص . المعنى : وما خلقت أهل السعادة من الجنّ والإنس إلا ليوحّدون . قال القُشيريّ : والآية دخلها التخصيص على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة ، وقد قال الله تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة ، فالآية محمولة على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا » وإنما قال فريق منهم . ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي . وفي قراءة عبد الله : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » وقال عليّ رضي الله عنه : أي وما خلقت الجنّ والإنس إلا لآمرهم بالعبادة . وآعتمد الزجاج على هذا القول ، ويدل عليه قوله تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا » . فإن قيل : كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته ؟ قيل : قد تذللوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الآمتناع منه ، وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به ، فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه . وقيل : « إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أي إلا ليقروا لي بالعبادة طوعا أو كرها؛ رواه عليّ آبن أبي طلحة عن آبن عباس . فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصَّنعة . مجاهد : إلا ليعرفوني .

الثعلبي : وهذا قول حسن ؛ لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده . ودليل هـذا التأويل قوله تعالى : «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللّهُ» «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » وما أشبه هـذا من الآيات . وعن مجاهـد أيضا : إلا لآمرهم وأنهاهم . زيد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من الشّقوة والسّعادة؛ فخلق السعداء من الجنّ والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء منهم للعصية . وعن الكلبي أيضا : إلا ليوحدون، فأما المؤمن فيوحده في الشـدّة والرخاء ، وأما الكافر فيوحده في الشدّة والبـلاء دون النعمة والرخاء ؛ يدل عليه قوله تعالى : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » الآية . وقال عِكْرِمة : إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد . وقيل : المعنى إلا لأستعبدهم . والمعنى متقارب ؛ تقول : عبـد بيّن العبودة والعبودية ، وأصـل العبودية الخضوع والذل . والتعبيد التذليل؛ يقال : طريق مُعَبَّد . قال (١) :

* وَظِيفًا وَظِيفًا فـوقَ مَوْرٍ مُعَبَّـدِ *

والتعبيد الاستعباد وهو أن يتخـذه عبدا . وكذلك الاعتباد . والعبادة : الطاعة ، والتَّعبُّـد التّنسك . فمعنى « لِيَعْبُدُونِ » ليذلّوا ويخضعوا ويعبدوا . ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾ « مِنْ » صلة أي رزقا بل أنا الرزاق والمعطي . وقال ابن عبـاس وأبو الجوزاء : أي ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم ﴿ إِنَّ اللّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ وقرأ ابن مُحَيصن وغيره «الرَّازِقُ» . ﴿ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ أي الشديد القوي . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والنخعي « الْمَتِينِ » بالجـر على النعت للقـوة . الباقون بالرفع على النعت لـ «الرزّاق» ، أو « ذو» من قوله : « ذُو الْقُـوَّةِ » أو يكون خبر ابتداء محذوف ؛ أو يكون نعتا لاسم إنّ على الموضع ، أو خبرا بعـد خبرا . قال الفراء : كان

---

(١) هو طرفة بن العبد والبيت من معلقته وصدره :

* تُبارى عتاقا ناجيات وأتبعت *

الوظيف عظم الساق . وقوله أتبعت وظيفا وظيفا أي أتبعت وظيف يدها وظيف رجلها ؛ ويستحب من الناقة أن تجعل رجلها في موضع يدها إذا سارت . والمور : الطريق .

حقه المتينة فذكره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرم المحكم الفتل؛ يقال : حبل متين . وأنشد الفراء :

لِكُلِّ دَهْرٍ قَدْ لَبِستُ أَثْوُبَا * حَتَّى ٱكْتَسَى الرَّأْسُ قِنَاعاً أَشْيَبَا

* مِنْ رِيطَةٍ وَالْيُمْنَةَ الْمُعَصَّبَا *

فذكّر المعصّب ؛ لأن اليمنة صنف من الثياب ؛ ومن هذا الباب قوله تعالى : « فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ » أي وعظ «وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ » أي الصياح والصوت .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أي كفروا من أهل مكة ﴿ ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي نصيبا من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة . وقال ٱبن الأعرابي : يقال يوم ذَنُوب أي طويل الشر لا ينقضي . وأصل الذَّنُوب في اللغة الدلو العظيمة ، وكانوا يستقون الماء فيقسمون ذلك على الأنصباء فقيل للذَّنُوب نصيبا من هذا ؛ قال الراجز :

لَنَا ذَنُوبٌ وَلَكُمْ ذَنُوبُ * فَإِنْ أَبَيْتُمْ فلنا الْقَلِيبُ

وقال عَلْقمة :

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ * فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوبُ

وقال آخر (١) :

لَعَمْـرُكَ والمَنَايَا طَارِقَاتٌ * لِكُلِّ بَنِي أَبٍ مِنها ذَنُوبُ

الجوهري : والذَّنُوب الفرس الطويل الذَّنب ، والذَّنُوب النصيب ، والذَّنُوب لحم أسفل المَتْن ، والذَّنُوب الدّلو الملأى ماء . وقال ٱبن السكيت : فيها ماء قريب من الملء يؤنث ويذكر ولا يقال لها وهي فارغة ذَنُوب ، والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة والكثير ذَنَائب ، مثل قَلُوص وقَلَائص . ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾ أي فلا يستعجلون نزول العذاب بهم ؛ لأنهم قالوا يا محمد : « ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » فنزل بهم يوم بدر ما حقق به وعده وعجل بهم ٱنتقامه ، ثم لهم في الآخرة العذاب الدائم ، والخزي القائم ، الذي لا ٱنقطاع له ولا نفاد ، ولا غاية ولا آباد . تم تفسير سورة « والذاريات » والحمد لله .

(١) قائله أبو ذؤيب .

سورة « والطور »

مكية كلها فى قول الجميع وهى ثمان وأربعون آية

روى الأئمة عن جُبَيْر بن مُطْعِم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بالطور فى المغرب . متفق عليه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالطُّورِ ﴾ الطور آسم الجبل الذى كلم الله عليه موسى ؛ أقسم الله به تشريفا له وتكريما وتذكيرا لما فيه من الآيات، وهو أحد جبال الجنة . وروى إسمعيل بن إسحق قال : حدّثنا إسمعيل آبن أبى أويس، قال : حدّثنا كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربعة أجبل من جبال الجنة وأربعة أنهار من أنهار الجنة وأربعة مَلاحم من مَلاحم الجنة[(١)] " قيل : فما الأجبل ؟ قال : جبل أُحُد يحبنا ونحبه والطُّور جبل من جبال الجنة ولُبْنَان جبل من جبال الجنة" وذكر الحديث وقد آستوفيناه فى كتاب « التذكرة » . قال مجاهد : الطور هو بالسريانية الجبل والمراد به طُورسينا . وقاله السدّى . وقال مقاتل بن حيان : هما طُوران يقال لأحد هما طُورسينا والآخر طُورزيتا؛ لأنهما ينبتان التين والزيتون . وقيل : هو جبل بمدين وآسمه زَبير . قال الجوهرى : والزَّبير الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام .

---

(١) الملاحم : غزوة بدر وأحد والخندق وخيبر .

قلت : ومدين بالأرض المقدّسة وهي قرية شعيب عليه السلام . وقيل : إن الطُّور كل جبل أنبت ومالا ينبت فليس بطُور؛ قاله بن عباس . وقد مضى في « البقرة »(١) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴾ أي مكتوب ؛ يعني القرآن يقرؤه المؤمنون من المصاحف ، ويقرؤه الملائكة من اللوح المحفوظ ؛ كما قال تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ » . وقيل : يعني سائر الكتب المنزلة على الأنبياء ، وكان كل كتاب في رقّ ينشره أهله لقراءته . وقال الكلبي : هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صرير القلم . وقال الفراء : هو صحائف الأعمال ؛ فمن آخذ كتابه بيمينه ، ومن آخذ كتابه بشماله ؛ نظيره : « وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً » وقوله : « وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ » وقيل : إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء يقرءون فيه ما كان وما يكون . وقيل : المراد ما كتب الله في قلوب الأولياء من المؤمنين ؛ بيانه : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ » .

قلت : وفي هذا القول تجوّز ؛ لأنه عبّر بالقلوب عن الرّق . قال المبرّد : الرَّق ما رُقِّق من الجلد ليكتب فيه والمنشور المبسوط . وكذا قال الجوهري في الصحاح ؛ قال : والرَّق بالفتح ما يكتب فيه وهو جلد رقيق . ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ والرَّق أيضا العظيم من السّلاحف . قال أبو عبيدة : وجمعه رُقُوق . والمعنى المراد ماقاله الفراء ؛ والله أعلم .

وكل صحيفة فهي رَقٌّ لرقة حواشيها ؛ ومنه قول المتلمس :

فكأنّما هي من تَقَادُمِ عَهْدِها ... رَقٌّ أُتِيحَ كِتَابُها مَسطور(٢)

وأما الرِّق بالكسر فهو الملك . يقال : عبد مرقوق . وحكى الماوردي عن ابن عباس أن الرَّق بالفتح ما بين المشرق والمغرب .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ قال علي وابن عباس وغيرهما : هو بيت في السماء حِيَال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه . قال

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) لم نعثر على هذا البيت في ديوان المتلمس .

علي رضي الله عنه : هو بيت في السماء السادسة . وقيل : في السماء الرابعة . روى أنس بن مالك ، عن مالك بن صَعْصَعة ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أوتى بى إلى السماء الرابعة فرفع لنا البيت المعمور فإذا هو حِيال الكعبة لو خَرّ خَرّ عليها يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه" ذكره الماوردي . وحكى القشيري عن آبن عباس أنه في السماء الدنيا . وقال أبو بكر الأنباري : سأل آبن الكواء عليا رضي الله عنه قال : فما البيت المعمور ؟ قال : بيت فوق سبع سموات تحت العرش يقال له الضُّرَاح . وكذا في « الصحاح » : والضُّرَاح بالضم بيت في السماء وهو البيت المعمور عن آبن عباس . وعُمْرانه كثرة غاشيته من الملائكة . وقال المهدوي عنه : حذاء العرش . والذي في صحيح مسلم عن مالك بن صَعْصَعة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء : "ثم رُفع إلى البيت المعمور فقلت يا جبريل ما هذا قال هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخرُ(1) ما عليهم" وذكر الحديث . وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أُتيت بالبُرَاق" الحديث ؛ وفيه : "ثم عرج بنا إلى السابعة فآستفتح جبريلُ عليه السلام فقيل من هذا قال جبريل قيل ومن معك قال محمد — صلى الله عليه وسلم — قيل وقد بُعث إليه قال قد بُعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعونَ ألفَ ملك لا يعودون إليه" . وعن آبن عباس أيضا قال : لله في السموات والأرضين خمسةَ عشرَ بيتا ، سبعة في السموات وسبعة في الأرضين والكعبة ، وكلها مقابلة للكعبة . وقال الحسن : البيت المعمور هو الكعبة ، البيت الحرام الذي هو معمور من الناس ، يَعمُره الله كل سنة بستمائة ألف ، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة ، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة في الأرض . وقال الربيع بن أنس : إن البيت المعمور كان

(1) « آخر » برفع الراء ونصبها ، فالنصب على الظرف والرفع على تقدير ذلك آخر ما عليهم ؛ والرفع أوجه . (هامش مسلم) .

فى الأرض موضع الكعبة فى زمان آدم عليه السلام، فلما كان زمان نوح عليه السلام أمرهم أن يحجوا فأبوا عليه وعصوه، فلما طغى المـاء رفع فجعل بحـذائه فى السماء الدنيا، فيعمُره كلَّ يوم سـبعونَ ألفَ ملك، ثم لا يرجعون إليـه حتى ينفخ فى الصور . قال : فبـوّأ الله جلّ وعز لإبراهيم مكان البيت حيث كان؛ قال الله تعـالى : « وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» . ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ يعنى السماء سماها سقفا؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت؛ بيانه : « وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا » . وقال ابن عباس : هو العرش وهو سقف الجنة . ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ قال مجاهد : الموقَد؛ وقد جاء فى الخبر : " إن البحر يُسجَّر يوم القيامة فيكون نارا" . وقال قتادة : المملوء . وأنشد النحويون للنَّمِر بن تَوْلَب :

إذا شـاء طالـعَ مَسْجُورةً * تَرَى حَوطَها النَّبعَ والسَّاسَما(١)

يريد وَعلًا يطالع عينـا مسجورة مملوءة . فيجـوز أن يكون المملوء نارا فيكون كالقـول المتقدّم . وكذا قال الضحاك وشمـر بن عطية ومحمد بن كعب والأخفش بأنه المُوقَد المحمىّ بمنزلة التَّنُّور المسجور . ومنه قيل : لِلمِسْعَر مِسْـجَر؛ ودليل هـذا التأويل قوله تعـالى : « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّـرَتْ » أى أوقدت؛ سَجَرت التَّنُّور أسجره سجرا أى أحميته . وقال سعيد ابن المسيِّب قال على رضى الله عنه لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . قال ما أراك إلا صادقا ، وتلا « وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ » . « وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِرَتْ » مخففة . وقال عبـد الله ابن عمرو : لا يتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم . وقال كعب : يُسجَر البحر غدا فيزاد فى نار جهنم؛ فهـذا قول . وقال ابن عباس : المسجور الذى ذهب ماؤه . وقاله أبو العاليـة . وروى عطيـة وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عبـاس قال : خرجت أمة لتسـتقى فقالت : إن الحوض مسجور أى فارغ؛ قال ابن أبى داود : ليس لذى الرُّمة حديث إلا هذا . وقيل : المسجور أى المفجور؛ دليله : « وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ » أى تنشفها الأرض فلا يبقى فيها ماء .

(١) الساسم غير مهموز شجر يتخذ منه القسىّ والسهام؛ والنبع مثله .

وقول ثالث قاله علىّ رضى الله عنه وعكرمة؛ قال أبو مكين : سألت عكرمة عن البحر المسجور فقال هو بحر دون العرش . وقال علىّ : تحت العرش فيه ماء غليظ . ويقال له بحر الحيوان يمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحا فينبتون فى قبورهم . وقال الربيع بن أنس : المسجور المختلط العذب بالملح .

قلت : وإليه يرجع معنى «فُجِّرَتْ» فى أحد التأويلين ؛ أى فُجِّر عذبها فى مالحها ؛ والله أعلم . وسيأتى . وروى على ٱبن أبى طلحة عن ٱبن عباس قال : المسجور المحبوس . ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ هذا جواب القسم أى واقع بالمشركين . قال جُبَير بن مُطْعِم : قدمت المدينة لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أسارى بدر ، فوافيته يقرأ فى صلاة المغرب «وَالطُّورِ» إلى قوله : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ فكأنما صدع قلبى ، فأسلمت خوفا من نزول العذاب ، وما كنت أظن أن أقوم من مقامى حتى يقع بى العذاب . وقال هشام بن حسان : ٱنطلقت أنا ومالك بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ «وَالطُّورِ» حتى بلغ «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ» فبكى الحسن وبكى أصحابه فجعل مالك يضطرب حتى غُشِى عليه . ولما وُلِّى بَكَّار القضاء جاء إليه رجلان يختصمان فتوجهت على أحدهما اليمين ، فرغب إلى الصلح بينهما ، وأنه يعطى خصمه من عنده عوضا من يمينه فأبى إلا اليمين ، فأحلفه بأول «وَالطُّورِ» إلى أن قال له قل : «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ» إن كنت كاذبا ، فقالها فخرج فكسر من حينه .

قوله تعالى : يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ العامل في يوم قوله : « واقِعٌ » أى يقع العذاب بهم يوم القيامة وهو اليوم الذى تمور فيه السماء . قال أهل اللغة : مار الشيءُ يَمُورُ مَوْرًا ، أى تحرك وجاء وذهب كما تَتَكَفَّأُ النخلةُ العَيْدانة ؛ أى الطويلة ، والتَّمُّور مثله . وقال الضحاك : يموج بعضها فى بعض . مجاهد : تدور دورا . أبو عبيدة والأخفش : تكفأ ؛ وأنشد الأعشى :

كأنّ مِشْيَتَها مِن بيتِ جارتِها * مَوْرُ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل تجرى جريا . ومنه قول جرير :

وما زالتِ القَتْلَى تَمُورُ دِماؤُهَا * بِدجلةَ حتّى ماءُ دجلةَ أَشْكَلُ (١)

وقال ابن عباس : تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب . وقيل : يدور أهلها فيها ويموج بعضهم فى بعض . والمور أيضا الطريق . ومنه قول طَرَفة :

* ... فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ (٢) *

والمَوْر الموج . وناقة مَوَّارة اليد أى سريعة . والبعير يمور عضداه إذا ترددا فى عَرْض جَنْبه ؛ قال الشاعر :

* على ظَهْرِ مَوَّارِ المِلاَطِ حِصانِ *

المِلاط الجنب . وقولهم : لا أدرى أَغارَ أم مَارَ ؛ أى أتى غورا أم دار فرجع إلى نجد . والمُور بالضم الغبار بالريح . وقيل : إن السماء هاهنا الفلك وموره اضطراب نظمه واختلاف سيره ؛ قاله ابن بحر . ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ قال مقاتل : تسير عن أماكنها حتى تستوى بالأرض . وقيل : تسير كسير السحاب اليوم فى الدنيا ؛ بيانه « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » . وقد مضى هذا المعنى فى « الكهف » (٣) . ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾

---

(١) الأشكل : ما فيه بياض وحمرة .

(٢) البيت من معلقته وتمامه : تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت : وظيفا وظيفا فوق مور معبد .
تبارى : تعارض . والعتاق : النوق الكرام . والناجيات : السريعات . والوظيف عظم الساق . والمعبد : المذلل .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤١٦ طبعة أولى أو ثانية .

«وَيْلٌ» كلمة تقال للهالك ، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة . ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أي في تردد في الباطل ، وهو خوضهم في أمر محمد بالتكذيب . وقيل : في خوض في أسباب الدنيا يلعبون لا يذكرون حسابا ولا جزاء . وقد مضى في «براءة»(١) .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ «يَوْمَ» بدل من يومئذ . و«يُدَعُّونَ» معناه يدفعون إلى جهنم بشدة وعنف ؛ يقال : دَعَعته أَدُعّه دعًّا أي دفعته ؛ ومنه قوله تعالى : «فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ» . وفي التفسير : إن خزنة جهنم يغلّون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ثم يدفعونهم في النار دفعا على وجوههم ، وزخا في أعناقهم حتى يَردوا النار . وقرأ أبو رجاء العطاردي وآبن السَّمَيْقَع «يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا» بالتخفيف من الدعاء فإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ في الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا ﴾ آستفهام معناه التوبيخ والتقريع ؛ أي يقال لهم «أَفَسِحْرٌ هَذَا» الذي ترون الآن بأعينكم ﴿ أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وقيل : «أَمْ» بمعنى بل ؛ أي بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون .

قوله تعالى : ﴿ اصْلَوْهَا ﴾ أي تقول لهم الخزنة ذوقوا حرها بالدخول فيها ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْلَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن فـ«سواء» خبره محذوف ؛ أي سواء عليكم الجزع والصبر فلا ينفعكم شيء ، كما أخبر عنهم أنهم يقولون : «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا» . ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ لمـا ذكر حال الكفار ذكر حال المؤمنين أيضا ﴿ فَاكِهِينَ ﴾ أى ذوى فاكهة كثيرة؛ يقال : رجل فاكه أى ذو فاكهة، كما يقال : لَابِنٌ وتامِرٌ؛ أى ذو لبن وتمر؛ قال (١) :

وغَرَرْتَنِي وزَعَمْتَ أنـ * ـكَ لَابِنٌ بالصَّيْفِ تَامِرْ

أى ذو لبن وتمـر . وقرأ الحسن وغيره « فَكِهِينَ » بغـير ألف ومعناه معجبين ناعمين فى قـول ٱبن عباس وغيره؛ يقال : فَكِهَ الرجلُ بالكسر فهـو فَكِهٌ إذا كان طيب النفس مزاحا . والفكه أيضا الأشر البطر . وقد مضى فى «الدخان» (٢) القول فى هذا . ﴿ بِمَا آتَاهُمْ ﴾ أى أعطاهم ﴿ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ . ﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا ﴾ أى يقال لهم ذلك . ﴿ هَنِيئًا ﴾ الهنىء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى ليهنئكم ما صرتم إليه «هَنِيئًا» . وقيل : أى متعتم بنعيم الجنة إمتاعا هنيئا . وقيل : أى كلوا وٱشربوا هنئتم « هنيئا » فهو صفة فى موضع المصدر . وقيل : « هنيئا » أى حلالا . وقيل : لا أذى فيه ولا غائلة . وقيل : « هنيئا » أى لا تموتون؛ فإن مالا يبقى أولا يبقى الإنسان معه منغص غير هنىء .

قوله تعـالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ ﴾ سرر جمع سرير وفى الكلام حذف تقديره : متكئين على نمـارق سرر . ﴿ مَصْفُوفَةٍ ﴾ قال ٱبن الأعرابى : أى موصـولة بعضها إلى بعض حتى تصير صفًّا . وفى الأخبار أنها تصفّ فى السماء بطـول كذا وكذا؛ فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له؛ فإذا جلس عليها عادت إلى حالها . قال ٱبن عباس : هى سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت؛ والسرير ما بين مكة وأيلة . ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أى قرناهم بهن . قال يونس بن حبيب : تقول العرب زوجته ٱمرأة وتزوجت ٱمرأة وليس من كلام العرب تزوجت بامرأة . قال : وقول الله عز وجل « وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُـورٍ عِينٍ » أى قرناهم بهن من قـول الله تعـالى : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُـوا وَأَزْوَاجَهُمْ » أى وقرناءهم . وقال الفراء : تزوجت بامرأة لغة فى أزد شنوءة . وقد مضى القول فى معنى الحور العين (٣) .

(١) هو الحطيئة . (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٣٩ طبعة أولى أو ثانيـة .

(٣) راجع جـ ١٦ ص ١٥٢ وما بعـدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا
بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ
رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا
كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ
لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾

قوله تعالى : ﴿والذين آمنوا واتّبعتهم ذرّيّتهم﴾ قرأ العامة «واتّبعتهم» بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء . وقرأ أبو عمرو «وأتبعناهم» بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون ؛ اعتبارا بقوله : «ألحقنا بهم» ؛ ليكون الكلام على نسق واحد . فأما قوله : «ذرّيّتهم» الأولى فقرأها بالجمع ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب ورواها عن نافع إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول وضم باقيهم . وقرأ الباقون « ذرّيّتهم » على التوحيد وضم التاء وهو المشهور عن نافع . فأما الثانية فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع . الباقون « ذرّيّتهم » على التوحيد وفتح التاء . واختلف في معناه فقيل عن ابن عباس أربع روايات : الأولى أنه قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه ، وتلا هذه الآية . ورواه مرفوعا النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله لتقر بهم عينه" ثم قرأ « والذين آمنوا وأتبعناهم ذرّياتهم بإيمان » الآية . قال أبو جعفر : فصار الحديث مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذا يجب أن يكون ؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه . الزمخشري : فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم .

وعن ٱبن عباس أيضا أنه قال : إن الله ليلحق بالمؤمن ذريّته الصغار الذين لم يبلغوا الإيمان؛ قاله المهدوي . والذرية تقع على الصغار والكبار؛ فإن جعلت الذرية ها هنا للصغار كان قوله تعالى : « بِإِيمَانٍ » في موضع الحال من المفعولين؛ وكان التقدير « بِإِيمَانٍ » من الآباء . وإن جعلت الذرية للكبار كان قوله : « بِإِيمَانٍ » حالا من الفاعلين . القول الثالث عن ٱبن عباس أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار والذرية التابعون . وفي رواية عنه : إن كان الآباء أرفع درجة رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة رفع الله الآباء إلى الأبناء؛ فالآباء داخلون في ٱسم الذرية؛ كقوله تعالى : «وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ» . وعن ٱبن عباس أيضا يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم إنهم لم يدركوا ما أدركت فيقول يا ربّ إني عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به" . وقالت خديجة رضي الله عنها : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ولدين لي ماتا في الجاهلية فقال لي : "هما في النار" فلما رأى الكراهية في وجهي قال : "لو رأيتِ مكانَهما لأبغضتِهما" قالت : يا رسول الله فولدي منك؟ قال : "في الجنة" ثم قال : "إن المؤمنين وأولادهم في الجنة والمشركين وأولادهم في النار" ثم قرأ (1) « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » الآية .

﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم؛ وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئا بإلحاق الذريات بهم . والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا » . وقال ٱبن زيد : المعنى « وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ » ألحقنا بالذّرية أبناءهم الصغار الذين لم يبلغوا العمل؛ فالهاء والميم على هذا القول للذّرية . وقرأ ٱبن كثير « وَمَا أَلِتْنَاهُمْ » بكسر اللام . وفتح الباقون . وعن أبي هريرة « آلَتْنَاهُمْ » بالمدّ؛ قال ٱبن الأعرابي : أَلَتَه يألِته أَلْتًا وآلَتَه يُؤْلِته إيلاتا ولاتَه يَلِيته لَيْتا كلّها إذا نقصه .

---

(1) هذا الحديث كان قبل قوله صلى الله عليه وسلم : « سألت ربي فأعطاني أولاد المشركين خدما لأهل الجنة » .

وفى الصحاح : ولاته عن وجهه يلوته ويليته أى حبسه عن وجهه وصرفه؛ وكذلك ألاته عن وجهه فعل وأفعل بمعنى؛ ويقال أيضا : ما ألاته من عمله شيئا أى ما انتقصه مثل ألته وقد مضى بـ«الحجرات»[1] . ﴿ كُلُّ ٱمْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ قيل : يرجع إلى أهل النار . قال ابن عباس : ارتهن أهل جهنم بأعمالهم وصار أهل الجنة إلى نعيمهم؛ ولهذا قال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ » . وقيل : هو عام لكل إنسان مُرتَهَن بعمله فلا ينقص أحد من ثواب عمله ؛ فأما الزيادة على ثواب العمل فهى تفضّل من الله . ويحتمل أن يكون هذا فى الذرية الذين لم يؤمنوا فلا يلحقون آباءهم المؤمنين بل يكونون مُرتَهَنين بكفرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أى أكثرنا لهم من ذلك زيادة من الله؛ أمدّهم بها غير الذى كان لهم .

قوله تعالى : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا ﴾ أى يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاته وخدمه فى الجنة . والكأس إناء الخمر وكل إناء مملوء من شراب وغيره ؛ فإذا فرغ لم يسم كأسا . وشاهد التنازع والكأس فى اللغة قول الأخطل :

وَشَارِبٍ مُرْبِحٍ بِالكَأْسِ نَادَمَنِي * لا بِالحَصُورِ ولا فيها بسَوَّارِ[2]
نَازَعْتُه طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ * صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقْعَةُ السَّارِى

وقال امرؤ القيس :

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الحَدِيثَ وَأَسْمَحَتْ * هَصَرْتُ بِغُصْنٍ ذِى شَمَارِيخَ مَيَّالِ

وقد مضى هذا فى « والصافات »[3] . ﴿ لَا لَغْوٌ فِيهَا ﴾ أى فى الكأس أى لا يجرى بينهم لغو

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٨ فما بعدها . (٢) مربح : يخرج الشراب أو وهى الفصلان : ويروى : مرنح وهو الذى كأنه ملأى بالخمر فيسكر ولا يتغير عن أخلاقه الحميدة . والحصور الضيق البخيل مثل الحصير . والسوار هو المعربد الوثاب؛ ويروى بسئار وهو الذى إذا شرب ترك بقية من الشراب فى قعر الإناء . والدجاج هنا المراد به الديكة يريد وقت السحر ؛ يقال هذا دجاج فيريدون الديوك ، وهذه دجاج فيريدون الأنثى . ووقعة السارى — ويروى وقفة السارى — من وقعت الإبل إذا بركت . والسارى هو السائر بالليل . وفى نسخ الأصل كلها فى الكأس نازعنى . والتصحيح كما أثبتناه فى صدر الكتاب من ديوان الأخطل طبع اليسوعيين .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٧٧ وما بعدها ففيها الكلام على الكأس .

« وَلَا تَأْثِيمٌ » ولا ما فيه إثم . والتأثيم تفعيل من الإثم ؛ أي تلك الكأس لا تجعلهم آثمين لأنه مباح لهم . وقيل : « لَا لَغْوٌ فِيهَا » أي في الجنة . قال آبن عطاء : أيّ لغو يكون في مجلس محله جنّة عدن، وسقاتهم الملائكة، وشربهم على ذكر الله، وريحانهم وتحيتهم من عند الله، والقوم أضياف الله! « وَلَا تَأْثِيمٌ » ولا كذب؛ قاله آبن عباس . الضحاك : يعني لا يكذب بعضهم بعضا . وقرأ آبن كثير وآبن محيصن وأبو عمرو : « لا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ » بفتح آخره . الباقون بالرفع والتنوين وقد مضى هذا في «البقرة»(١) عند قوله تعالى : « وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أي بالفواكه والتحف والطعام والشراب؛ ودليله : « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ »، « يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ » . ثم قيل : هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم، فأقر الله تعالى بهم أعينهم . وقيل : إنهم من أخدمهم الله تعالى إياهم من أولاد غيرهم . وقيل : هم غلمان خلقوا في الجنة . قال الكلبي : لا يكبرون أبدا ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الحسن والبياض ﴿لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ في الصَّدَف، والمكنون المصون . وقوله تعالى : «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ» . قيل : هم أولاد المشركين وهم خدم أهل الجنة . وليس في الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم . وعن عائشة رضي الله عنها : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خدمه فيجيبه ألف كلهم لبيك لبيك" . وعن عبد الله بن عمر قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام كل غلام على عمل ليس عليه صاحبه" . وعن الحسن أنهم قالوا : يا رسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف يكون المخدوم ؟ فقال : "ما بينهما كما بين القمر ليلة البدر وبين أصغر الكواكب" . قال الكسائي : كننت الشيء سترته وصنته من الشمس، وأكننته في نفسي أسررته . وقال أبو زيد : كننته وأكننته بمعنى في الكِنّ وفي النفس جميعا؛ تقول : كننت العلم وأكننته فهو مكنون ومُكَنّ » وكننت الجارية وأكننتها فهي مكنونة ومُكَنَّة .

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ قال ابن عباس : إذا بعثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضا . وقيل : في الجنة « يَتَسَاءَلُونَ » أي يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة ، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم . وقيل : يقول بعضهم لبعض بم صرت في هذه المنزلة الرفيعة ؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي قال كل مسئول منهم لسائله : « إِنَّا كُنَّا قَبْلُ » أي في الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله . ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالجنة والمغفرة . وقيل : بالتوفيق والهداية . ﴿ وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ قال الحسن : « السَّموم » اسم من أسماء النار وطبقة من طباق جهنم . وقيل : هو النار كما تقول جهنم . وقيل : نار عذاب السَّموم . والسَّموم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سُمَّ يومُنا فهو مسموم والجمع سَمَائم . قال أبو عبيدة : السَّموم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار ؛ وقد تستعمل السَّموم في لفح البرد [وهو في لفح الحر] (1) والشمس أكثر ؛ قال الراجز :

اليوم يومٌ باردٌ سَمُومُهْ * مَنْ جَزِع اليومَ فلا أَلُومُهْ

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾ أي في الدنيا بأن يمنّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا . وقيل : « نَدْعُوهُ » أي نعبده . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ وقرأ نافع والكسائي « أَنَّهُ » بفتح الهمزة أي لأنه . الباقون بالكسر على الابتداء . و « البر » اللطيف ؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : إنه الصادق فيما وعد . وقاله ابن جريج .

---

(1) الزيادة من إعراب القرآن للسمين .

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾
أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى
مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ
مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ أى فذكر يا محمد قومك بالقرآن . ﴿ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ يعنى برسالة ربك ﴿ بِكَاهِنٍ ﴾ تبتدع القول وتخبر بما فى غد من غير وحى . ﴿ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ وهذا ردّ لقولهم فى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فعقبة بن أبى مُعَيْط قال : إنه مجنون ، وشيبة بن ربيعة قال : إنه ساحر ، وغيرهما قال : كاهن ، فأكذبهم الله تعالى وردّ عليهم . ثم قيل : إن معنى « فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ » القسم ؛ أى وبنعمة الله ما أنت بكاهن ولا مجنون . وقيل : ليس قسما ، وإنما هو كما تقول : ما أنت بحمد الله بجاهل ؛ أى قد برأك الله من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ أى بل يقولون محمد شاعر . قال سيبويه : خوطب العباد بما جرى فى كلامهم . قال أبو جعفر النحاس : وهذا كلام حسن إلا أنه غير مبيّن ولا مشروح ؛ يريد سيبويه أن « أَمْ » فى كلام العرب لخروج من حديث إلى حديث ؛ كما قال[(١)] :

* أَتَهجُرُ غَانِيةً أَمْ تُلِمْ *

فتم الكلام ثم خرج إلى شيء آخر فقال :

* أَمِ الْحَبْلُ وَاهٍ بِهَا مُنْجَذِمْ *

فما جاء فى كتاب الله تعالى من هذا فمعناه التقرير والتوبيخ والخروج من حديث إلى حديث ، والنحويون يمثلونها ببل . ﴿ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ قال قتادة : قال قوم من الكفار تربصوا

---

(١) هو الأعشى .

بمحمد الموت يكفيكموه كما كفى شاعر بنى فلان، قال الضحاك : هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر، أى يهلك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأن أباه مات شابا فربما يموت كما مات أبوه . وقال الأخفش : نتربص به إلى ريب المنون فحذف حرف الجر، كما تقول : قصدت زيدا وقصدت إلى زيد . والمنون الموت فى قول ٱبن عباس . قال أبو الغول الطُّهوى :

هُمُ مَنَعُوا حِمَى الْوَقَبَى بِضَرْبٍ * يُؤَلِّفُ بين أَشْتَاتِ الْمَنُونِ (١)

أى المنايا؛ يقول: إن الضرب يجمع بين قوم متفرّقى الأمكنة لو أتتهم مناياهم فى أماكنهم لأتتهم متفرقة، فٱجتمعوا فى موضع واحد فأتتهم المنايا مجتمعة . وقال السدّى عن أبى مالك عن ٱبن عباس : « ريب » فى القرآن شك إلا مكانا واحدا فى الطور « ريب المنونِ » يعنى حوادث الأمور؛ وقال الشاعر (٢) :

تَرَبَّصْ بها رَيْبَ الْمَنُونِ لَعَلَّها * تُطَلَّقُ يوماً أو يَموتُ حَلِيلُها

وقال مجاهد : « رَيْبَ المنُونِ » حوادث الدهر، والمنون هو الدهر؛ قال أبو ذُؤَيْب :

أَمِنَ المنونِ ورَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ * والدَّهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجزَعُ

وقال الأعشى :

أَأَنْ رَأَتْ رجلاً أَعْشَى أَضَرَّ بِهِ * رَيْبُ المنونِ ودَهرٌ مُتبِلٌ خَبِلُ (٣)

قال الأصمعى : المنون الليل والنهار؛ وسميا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال . وعنه : أنه قيل الدهر منون، لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان أى قوّته وكذلك المنِيَّة . أبو عبيدة : قيل للدهر منون؛ لأنه مُضْعِف من قولهم حَبْلٌ منِين أى ضعيف، والمنِين الغبار الضعيف . قال الفراء : والمنون مؤنثة وتكون واحدا وجمعا . الأصمعى : المنون واحد لا جماعة له .

---

(١) هو من بنى نهشل واسمه علباء بن جوشن . والوقبى بجمزى ماء لبنى مالك بن مازن مشهور بوقائع عديدة وهو على طريق المدينة من البصرة .

(٢) الذى فى نسخ الأصل : قال ٱبن عباس وليس بشىء ، وفى سائر كتب التفسير قال الشاعر كما أثبتناه .

(٣) يروى : ودهر مفند . وهى الرواية المشهورة . متبل مسقم أو يذهب بالأهل والولد . وخبل ككتف ملتو على أهله لا يرون فيه سرورا .

الأخفش : هو جماعة لاواحد له ، والمنون يذكر ويؤنث فمن ذكره جعله الدهر أو الموت ، ومن أنثه فعلى الحمل على المعنى كأنه أراد المنية .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا ﴾ أي قل لهم يا محمد تربّصـوا أي انتظروا . ﴿ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أي من المنتظرين بكم العذاب؛ فعُذّبوا يوم بدر بالسيف .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُـمْ ﴾ أي عقولهم ﴿ بِهَـذَا ﴾ أي بالكذب عليك . ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أي أم طغوا بغير عقول . وقيـل : « أَمْ » بمعنى بل أي بل كفروا طغيانا وإن ظهر لهم الحقّ . وقيل لعمرو بن العاص : ما بال قومك لم يؤمنوا وقد وصفهم الله بالعقل؟ فقال : تلك عقول كادها الله؛ أي لم يصحبها بالتوفيق . وقيل : « أَحْلَامُهُمْ » أي أذهانهم؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر ولو كان له عقل لآمن . وإنما يُعطَى الكافر الذّهن فصار عليه حجة . والذّهن يقبل العـلم جملة ، والعقل يميز العلم ويقدر المقادير لحـدود الأمر والنهي . وروى عن النبي صلى الله عليه وسـلم أن رجلا قال : يا رسول الله ما أعقـل فلانا النصراني! فقال : " مَهْ إنّ الكافر لا عقل له أما سمعت قول الله تعالى «وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ »" . وفي حديث ابن عمر : فزجره النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال : "مَهْ فإن العاقل من يعمل بطاعة الله" ذكره الترمذي الحكيم أبو عبد الله بإسناده. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَـوَّلَهُ ﴾ أي افتعله وافتراه ، يعـني القرآن . والتقوّل تكلّف القول ، وإنمـا يستعمل في الكذب في غالب الأمر . ويقال قوّلتني ما لم أقل وأقْوَلتني ما لم أقل أي ادّعيته عليّ . وتقوّل عليه أي كذب عليه . واقتال عليه تحكّم قال (١) :

ومَنْزِلَةٌ في دارِ صِـدْقٍ وغِبْطَـةٍ ﴿ وما اقْتالَ مِن حُكْمٍ عَلَيَّ طَبِيبُ

فأم الأولى للإنكار والثانية للإيجاب أي ليس كما يقولون . ﴿ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ جحدا واستكبارا . ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ أي بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم ﴿ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ في أن محمدا افتراه . وقرأ الجحدري « فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثِ مِثْلِهِ » بالإضافة . والهاء في « مثله » للنبي صلى الله

(١) هو كعب بن سعد الغنوي .

عليه وسلم ، وأضيف الحديث الذي يراد به القرآن إليه لأنه المبعوث به . والهاء على قراءة الجماعة للقرآن .

قوله تعالى : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

قوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ « أم » صلة زائدة والتقدير أخلقوا من غير شيء . قال ابن عباس : من غير ربّ خلقهم وقدّرهم . وقيل : من غير أمّ ولا أب فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لله عليهم حجة؛ ليسوا كذلك ، أليس قد خُلقوا من نطفة وعلقة ومُضغة؛ قاله ابن عطاء . وقال ابن كيسان : أم خُلقوا عبثا وتُركوا سُدًى « مِنْ غيرِ شيءٍ » أي لغير شيء « فمن » بمعنى اللام . ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ أي أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله وهم لا يقولون ذلك ، و إذا أقرّوا أن ثَمّ خالقا غيرهم فما الذي يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث . ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي ليس الأمر كذلك فإنهم لم يخلقوا شيئا ﴿ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بالحق ﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله و يعرضوا عن أمره . وقال ابن عباس : خزائن ربك المطر والرزق . وقيل : مفاتيح الرحمة . وقال عكرمة : النبوة . أي أفبأيديهم مفاتيح ربك بالرسالة يضعونها حيث شاءوا . وضرب المثل بالخزائن؛ لأن الخزانة بيت

يهيأ لجمع أنواع مختلفة من الذخائر، ومقدورات الربّ كالخزائن التي فيها من كل الأجناس فلا نهاية لها. ﴿ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ﴾ قال ابن عباس: المسلّطون الجبّارون. وعنه أيضا: المبطلون. وقاله الضحاك. وعن ابن عباس أيضا: أم هم المتولّون. عطاء: أم هم أرباب قاهرون. قال عطاء: يقال تسيطرت عليّ أي اتخذتني خَوَلا لك. وقاله أبو عبيدة. وفي الصحاح: المسيطر والمصيطر المسلّط على الشيء ليُشرف عليه ويتعهدَ أحوالَه ويكتبَ عمله؛ وأصله من السّطر؛ لأن الكتاب يُسَطِّر والذي يفعله مُسَطِّر ومُسَيْطِر. يقال سَيْطرتَ علينا. ابن بحر: «أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ» أي هم الحفظة؛ مأخوذ من تسطير الكتاب الذي يحفظ ما كتب فيه؛ فصار المسيطر هاهنا حافظا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ. وفيه ثلاث لغات: الصاد وبها قرأت العامة؛ والسين وهي قراءة ابن مُحَيْصن وحميد ومجاهد وقُنْبُل وهشام وأبي حَيْوة؛ وبإشمام الصاد الزاي وهي قراءة حمزة كما تقدّم في «الصّراط».

قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ أي أيدّعون أن لهم مُرتقًى إلى السماء ومصعدا وسببا ﴿ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ أي عليه الأخبارَ ويصلون به إلى علم الغيب؛ كما يصل إليه محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحي. ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أي بحجة بينة أن هذا الذي هم عليه حقّ. والسّلم واحد السلالم التي يرتقى عليها. وربما سمي الغرز بذلك؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبي يصف ناقته:

مُطَارَةُ قَلْبٍ إن ثَنَى الرِّجْلَ ربُّها * بِسُلَّمِ غَرْزٍ في مُنَاخٍ يُعاجِلُه

وقال زُهير:

ومَنْ هابَ أسبابَ المنيّةِ يَلْقَها[(1)] * ولو رَامَ أسبابَ السّماءِ بِسُلَّمِ

وقال آخر:

تجنّيتِ لي ذنباً وما إنْ جَنَيْتُه * لِتَتَّخِذي عُذْراً إلى الهَجْرِ سُلَّما

---

(1) ويروى:

* ومن هاب أسباب المنايا ينلنه *

وهي الرواية المشهورة.

وقال ٱبن مُقْبِل فى الجمع :

لا تُحْـرِزُ المـرءَ أَحْجاءُ البِـلَادِ وَلَا * يُبْنَى له فى السَّـمَوَاتِ السَّلالِـيمُ

الأحجاء النواحى مثل الأرجاء واحدها حَجًا ورَجًا مقصور . ويروى : أعْناء البلاد ، والأعْناء أيضا الجوانب والنواحى واحدها عِنْو بالكسر . وقال ٱبن الأعرابى : واحدها عَنًا مقصور وجاءنا أعناء من النـاس واحدهم عِنْو بالكسر وهم قوم من قبائل شتى . « يَسْتَمِعُونَ فِيهِ » أى عليه ؛ كقوله تعالى : « فِى جُذُوعِ النَّخْلِ » أى عليها ؛ قاله الأخفش . وقال أبو عبيدة : يستمعون به . وقال الزجاج : أى ألهم كجبريل الذى يأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم بالوحى .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَاتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ سـفّه أحلامهم توبيخا لهم وتقـريعا . أى أتضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن ، ومن كان عقله هكذا فلا يسـتبعد منه إنكار البعث . ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أى على تبليغ الرسالة . ﴿ فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ أى فهم من المغرم الذى تطلبهم به «مُثْقَلُونَ» مجهدون لمـا كلفتهم به . ﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب . وقيل : أى أم عندهم علم ما غاب عن الناس حتى علموا أن ما أخبرهم به الرسول من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل . وقال قتادة : لمـا قالوا نتربص به ريب المنون قال الله تعالى : « أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ » حتى علموا متى يموت محمد أو إلى ما يؤول إليـه أمره . وقال ٱبن عباس : أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه . وقال القتبى : يكتبون يحكمون والكتاب الحكم ؛ ومنه قوله تعالى : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَـةَ » أى حكم ، وقوله عليه الصلاة والسلام : "والذى نفسى بيده لأحكمن بينكم بكتاب الله" أى بحكم الله .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْـدًا ﴾ أى مكرا بك فى دار النّـدْوة . ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ أى الممكور بهم «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» وذلك أنهم قتلوا ببدر . ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ يخلق ويرزق ويمنع . ﴿ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ نزه نفسه أن يكون له شريك . قال الخليـل : كل ما فى سـورة « والطور » من ذكر « أَمْ » فكلمة ٱستفهام وليس بعطف .

قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ قال ذلك جوابا لقولهم : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ » وقولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » فأعلم أنه لو فعل ذلك لقالوا : ﴿ سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾ أي بعضه فوق بعض سقط علينا وليس سماء ، وهذا فعل المعاند أو فعل من آستولى عليه التقليد ، وكان في المشركين القسمان . والكِسَف جمع كِسْفة وهي القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كِسْفَة من ثوبك، ويقال في جمعها أيضا : كِسْف . ويقال : الكِسْف والكِسْفة واحد . وقال الأخفش : من قرأ كِسْفًا جعله واحدا ومن قرأ « كِسَفا » جعله جمعا . وقد تقدم القول في هذا في « سبحان »(١) وغيرها والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَذَرْهُمْ ﴾ منسوخ بآية السيف . ﴿ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يَصْعَقُونَ ﴾ بفتح الياء قراءة العامة ، وقرأ آبن عامر وعاصم بضمها . قال الفراء : هما لغتان صَعِق وصُعِق مثل سَعِد وسُعِد . قال قتادة : يوم يموتون . وقيل : يوم بدر . وقيل : يوم النفخة الأولى . وقيل : يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يزيل عقولهم . وقيل : «يُصعقون» بضم الياء من أصعقه الله .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ أي ما كادوا به النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ من الله . و « يَوْمَ » منصوب على البدل من « يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصعقون » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية و جـ ١٣ ص ١٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى كفروا ﴿ عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ قيل : قبل موتهم . ٱبن زيد : مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد . مجاهد : هو الجوع والجهد سبع سنين . ٱبن عباس : هو القتل . وعنه : عذاب القبر . وقاله البَرَاء بن عازِب وعليّ رضى الله عنهم . فـ « دُونَ » بمعنى غير . وقيل : عذابا أخفّ من عذاب الآخرة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يصيرون إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — « وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » قيل : لقضاء ربك فيما حملك من رسالته . وقيل : لبلائه فيما ٱبتلاك به من قومك ؛ ثم نسخ بآية السيف .

الثانيــة — قوله تعالى : « فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا » أى بمرأى منظر منا نرى ونسمع ماتقول وتفعل . وقيل : بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك . والمعنى واحد . ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » أى بحفظى وحراستى وقد تقدّم (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ » ٱختلف فى تأويل قوله : « حِينَ تَقُومُ » فقال عون بن مالك وٱبن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثورى وأبو الأحوص : يسبح الله حين يقوم من مجلسه ؛ فيقول سبحان الله وبحمده ، أو سبحانك اللهم وبحمدك ؛ فإن كان المجلس خيرا ٱزددت ثناء حسنا ، وإن كان غير ذلك كان كفارة له ؛ ودليل هذا التأويل ما خرّجه الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من جلس فى مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غُفر له ما كان فى مجلسه ذلك" قال حديث

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

حسن صحيح غريب . وفيه عن ابن عمر قال : كنا نعدّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم : " ربّ اغفرلي وتب على إنك أنت التوّاب الغفور " قال حديث حسن صحيح غريب . وقال محمد بن كعب والضحاك والربيع : المعنى حين تقوم إلى الصلاة . قال الضحاك يقول : الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا . قال الكيا الطبري : وهذا فيه بعد ؛ فإن قوله : « حِينَ تَقُومُ » لا يدل على التسبيح بعد التكبير ، فإن التكبير هو الذي يكون بعد القيام ، والتسبيح يكون وراء ذلك ، فدل على أن المراد فيه حين تقوم من كل مكان كما قال ابن مسعود رضي الله عنه . وقال أبو الجوزاء وحسان بن عطية : المعنى حين تقوم من منامك . قال حسان : ليكون مفتتحا لعمله بذكر الله . وقال الكلبي : واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة وهي صلاة الفجر . وفي هذا روايات مختلفات صحاح ؛ منها حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من تعارّ في الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال اللهم اغفرلي أو دعا استجيب له فإن توضأ وصلّى قبلت صلاته " خرّجه البخاري . تَعارَّ الرجلُ من الليل إذا هبّ من نومه مع صوت ؛ ومنه عَارَّ الظَّلِيمُ يَعارُّ عِرَارا وهو صوته ؛ وبعضهم يقول : عَرَّ الظَّلِيمُ يَعِـرُّ عِرَارا كما قالوا زَمَر النَّعامُ يَزْمِرُ زِمَارا . وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل : " اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت قَيُّوم السموات والأرض ومن فيهنّ ولك الحمد أنت ربّ السموات والأرض ومن فيهنّ أنت الحقّ ووعدك الحقّ وقولك الحقّ ولقاؤك الحقّ والجنة حقّ والنار حقّ والساعة حقّ والنبيون حقّ ومحمد حقّ اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفرلي ما قدّمت وما أخرت وأسررت وأعلنت أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك " متفق عليه . وعن ابن عباس أيضا أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل مسح النوم عن وجهه ؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة « آل عمران » .

وقال زيد بن أسلم : المعنى حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر . قال ٱبن العربي : أما نوم القائلة فليس فيه أثر وهو ملحق بنوم الليل . وقال الضحاك : إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها . الماوردي : وفي هذا التسبيح قولان : أحدهما وهو قوله سبحان ربي العظيم في الركوع وسبحان ربي الأعلى في السجود . الثاني إنه التوجه في الصلاة يقول : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك ٱسمك وتعالى جدّك ولا إله غيرك . قال ٱبن العربي : من قال إنه التسبيح للصلاة فهذا أفضله ، والآثار في ذلك كثيرة أعظمها ما ثبت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال : " وجهت وجهي " الحديث . وقد ذكرناه وغيره في آخر سورة « الأنعام »(1) . وفي البخاري عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه قال قلت : يا رسول الله علّمني دعاء أدعو به في صلاتي ؛ فقال : " قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفرلي مغفرة من عندك وٱرحمني إنك أنت الغفور الرحيم " .

الثانية — قوله تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » تقدّم في « ق »(2) مستوفى عند قوله تعالى : « وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ » . وأما « إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » فقال عليّ وٱبن عباس وجابر وأنس : يعني ركعتي الفجر . فحمل بعض العلماء الآية على هذا القول على الندب وجعلها منسوخة بالصلوات الخمس . وعن الضحاك وٱبن زيد : أن قوله : « وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » يريد به صلاة الصبح وهو ٱختيار الطبريّ . وعن ٱبن عباس : أنه التسبيح في آخر الصلوات . وبكسر الهمزة في « إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ » قرأ السبعة على المصدر حسب ما بيناه في « قٓ » . وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السَّمَيْقَع « وَأَدْبَارَ » بالفتح ومثله روى عن يعقوب وسلام وأيوب ؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر ، ودُبْر الأمر ودُبُره آخره . وروى الترمذي من حديث محمد بن فضيل ، عن رِشْدِين بن كريب عن أبيه عن ٱبن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إدبار النجوم الركعتان قبل الفجر وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب "

(1) راجع جـ ٧ ص ١٥٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(2) راجع ص ٢٥ من هذا الجزء .

قال : حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هـذا الوجه من حديث محمد بن فضـيل عن رِشْدِين بن كريب . وسألت محمـد بن إسمعيل عن محمد بن فضيل ورِشْدِين بن كريب أيهما أوثق ؟ فقال : ما أقربهما ، ومحمد عندى أرجح . قال : وسألت عبـد الله بن عبـد الرحمن عن هـذا فقال : ما أقربهما ، ورِشْدِين بن كريب أرجحهما عندى . قال الترمذى : والقول ما قال أبو محمد ورِشْدِين بن كريب عندى أرجح من محمد وأقدم وقد أدرك رِشْدِين آبن عباس ورآه . وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لم يكن النبيّ صـلى الله عليه وسـلم على شيء من النوافل أشـدّ معاهدة منـه على ركعتين قبل الصبح . وعنها عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : " ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيهـا " . تم تفســير سورة « والطور » والحمد لله .

ســورة والنجـــم

مـكـية وهى إحدى وستون آية

مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال آبن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله : « ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ » الآية . وقيل : آثنتان وستون آية . وقيـل : إن السـورة كلها مدنية . والصحيح أنهـا مكية لمـا روى آبن مسعود أنه قال : هى أوّل سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة . وفى « البخارى » عن آبن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سجد بالنجم ، وسجد معـه المسلمون والمشركون والجن والإنس . وعن عبـد الله أن النبيّ صـلى الله عليه وسلم قرأ سـورة النجم فسجد لهـا ، فمـا بقى أحد من القوم إلا سجـد ، فأخذ رجل مـن القوم كفًّا من حصباء أو تراب فرفعـه إلى وجهه وقال : يكفينى هـذا . قال عبد الله : فلقد رأيته بعـدُ قُتِل كافرا . متفق عليـه . الرجل يقال له أمية بن خلف . وفى الصحيحين عن زيد بن ثابت أنه قرأ على النبى صـلى الله عليه وسلم سورة « وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ » فلم يسجد . وقد مضى فى آخر «الأعراف»(١) القول فى هذا والحمد لله .

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ
عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ (٥)
ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨)
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠)

قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : معنى « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » والثُّرَيَّا إذا سقطت مع الفجر ؛ والعرب تسمى الثُّريا نجما وإن كانت فى العدد نجوما ؛ يقال إنها سبعة أنجم ، ستة منها ظاهرة وواحد خفىّ يمتحن الناسُ به أبصارهم . وفى « الشِّفا » للقاضى عياض : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يرى فى الثريا أحد عشر نجما . وعن مجاهد أيضا أن المعنى والقرآنِ إذا نزل ؛ لأنه كان ينزل نجوما . وقاله الفرّاء . وعنه أيضا : يعنى نجوم السماء كلها حين تغرب . وهو قول الحسن قال : أقسم الله بالنجوم إذا غابت . وليس يمتنع أن يعبر عنها بلفظ واحد ومعناه جمع ؛ كقول الراعى :

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فى مُسْتَحِيرةٍ * سَريعٍ بأيدى الآكلين جُمودُها

وقال عمر بن أبى رَبيعة :

أَحْسَنُ النَّجْمِ فى السماءِ الثُّرَيَّا * والثُّرَيَّا فى الأرض زَيْنُ النِّساءِ

وقال الحسن أيضا : المراد بالنجم النجوم إذا سقطت يوم القيامة . وقال السدى : إن النجم هنا الزهرة لأن قوما من العرب كانوا يعبدونها . وقيل : المراد به النجوم التى ترجم بها الشياطين ؛ وسببه أن الله تعالى لما أراد بعث محمد صلى الله عليه وسلم رسولا كثر انقضاض الكواكب قبل مولده ، فذعر أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن كان لهم ضريرا ، كان يخبرهم بالحوادث فسألوه عنها فقال : انظروا البروج الاثنى عشر فإن انقضّ

منها شيء فهو ذهاب الدنيا ، فإن لم ينقص منها شئ فسيحدث فى الدنيا أمر عظيم ، فاستشعروا ذلك ، فلما بُعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأمر العظيم الذى آستشعروه ، فأنزل الله تعالى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى » أى ذلك النجم الذى هوى هو هذه النبوّة التى حدثت . وقيل : النجم هنا النبت الذى ليس له ساق ، وهَوَى أى سقط على الأرض . وقال جعفر بن محمد بن على بن الحسين رضى الله عنهم : «وَالنَّجْمِ» يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم « إِذَا هَوَى» إذا نزل من السماء ليلة المعراج . وعن عُرْوة بن الزبير رضى الله عنهما أن عُتْبة بن أبى لهب وكان تحته بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام فقال : لآتينّ محمدا فلأوذينه ، فأتاه فقال : يا محمد هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذى دنا فتدلى . ثم تَفَل فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردّ عليه آبنته وطلّقها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم سلِّط عليه كلبا من كلابك " وكان أبو طالب حاضرا فوجم لها وقال : ما كان أغناك يابن أخى عن هذه الدعوة . فرجع عُتْبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام ، فنزلوا منزلا ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه أرض مَسْبَعة ، فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة ! فإنى أخاف على آبنى دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يَتشمّم وجوههم حتى ضرب عُتْبة فقتله . وقال حسّان :

مَنْ يَرْجِع العامَ إلى أَهْلِهِ * فَمَا أَكِيلُ السَّبْعِ بالرَّاجِعِ (1)

وأصل النَّجْم الطلوع ؛ يقال : نَجَم السنُّ ونَجَم فلانٌ ببلاد كذا أى خرج على السلطان . والهُوِىّ النزول والسقوط ؛ يقال : هَوَى يَهْوِى هُوِيّا مثل مَضَى يَمْضِى مُضِيّا ؛ قال زُهير :

فَشَجَّ بِهَا الأَماعِزَ وهْىَ تَهْوِى * هُوِىَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ (2)

---

(1) فى نسخة : من يرجع الآن .

(2) شج : علا . والبيت فى وصف عير وأتنه ؛ أى لما وجد العير أن صنيعات قد آنقطع ماؤها آنتقل عنها إلى غيرها فجعل يعلو بالأتن الأماعز وهى حزون الأرض الكثيرة الحصى .

وقال آخـر (١) :

بَيْنَمَا نَحْنُ بالبَلَاكِثِ فالقَا * عِ سِرَاعاً والعِيسُ تَهْوِى هُوِيّاً
خَطَرتْ خَطْرةٌ على القَلْبِ مِن ذِكْـ * ـرَاكِ وَهْناً فما ٱستطعتُ مُضِيّا

الأصمعى : هَوَى بالفتح يَهْوِى هُوِيّاً أى سقط إلى أسفل ، قال : وكذلك ٱنهوى فى السير إذا مضى فيه ، وهَوَى وٱنْهَوى فيه لغتان بمعنى ، وقد جمعهما الشاعر فى قوله (٢) :

وَكَمْ مَنْزِلٍ لولاىَ طِحتَ كما هَوَى * بأجرامِهِ مِنْ قُلَّةِ النِّيقِ مُنْهَوِى

ويقال فى الحبّ : هَوِىَ بالكسر يَهْوَى هَوًى أى أحبّ .

قوله تعـالى : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ هذا جواب القسم ؛ أى ما ضلّ محمد صلى الله عليه وسلم عن الحق وما حاد عنه . ﴿ وَمَا غَوَى ﴾ الغَىّ ضـد الرشد أى ما صار غاويا . وقيـل : أى ما تكلم بالباطل . وقيل : أى ما خاب مما طلب والغىّ الخيبة ؛ قال الشاعر (٣) :

فمن يَلْقَ خيرًا يَحْمَدِ النـاسُ أَمْرَهُ * ومن يَغْوِ لا يَعْـدَمْ على الغَىِّ لائِمَا

أى من خاب فى طلبه لامه الناس . ثم يجوز أن يكون هـذا إخبارا عما بعد الوحى . ويجوز أن يكون إخبارا عن أحواله على التعميم ؛ أى كان أبدا موحدا لله . وهو الصحيح على ما بيناه فى « الشورى » (٤) عند قوله : « مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ﴾ .

فيـه مسئلتـان :

الأولى ــ قوله تعـالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى » قال قتادة : وما ينطق بالقرآن عن هواه « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى » إليه . وقيل : « عَنِ الْهَوَى » أى بالهوى ؛ قاله أبو عبيدة ؛

---

(١) قاله أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة كان متوجها إلى الشام فلما كان بالبلاكث ــ بالمثلثة ــ تذكر زوجته وكان شغوفا بها فكر راجعا فقال الأبيات ؛ وبعد البيتين :

قلت لبيـك إذ دعانى لك الشـو * ق وللحاديين حثا المطيا

(٢) قاله يزيد بن الحكم الثقفى . (٣) قاله المرقش . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٥٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

كقوله تعالى : « فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً » أى فاسأل عنه . النحاس : قول قتادة أولى وتكون « عن » على بابها ، أى ما يخرج نطقه عن رأيه ، إنما هو بوحى من الله عز وجل ؛ لأن بعده : « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » .

الثانيــة — قد يحتج بهذه الآية من لا يجوّز لرسول الله صلى الله عليه وسلم الاجتهاد فى الحوادث . وفيها أيضا دلالة على أن السنة كالوحى المنزل فى العمل . وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب حديث المقدام بن معدى كرب فى ذلك[1] والحمد لله . قال السجستانى : إن شئت أبدلت « إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » من « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ » قال ابن الأنبارى : وهذا غلط ؛ لأن « إن » الخفيفة لا تكون مبدلة من « ما » الدليل على هذا أنك لا تقول : والله ما قمت إن أنا لقاعد .

قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ يعنى جبريل عليه السلام فى قول سائر المفسرين سوى الحسن ، فإنه قال : هو الله عز وجل ويكون قوله تعالى : ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ على قول الحسن تمام الكلام ، ومعناه ذو قوّة والقوّة من صفات الله تعالى ؛ وأصله من شدّة فتل الحبل ، كأنه استمر به الفتل حتى بلغ إلى غاية يصعب معها الحل . ثم قال : ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ يعنى الله عز وجل ؛ أى استوى على العرش . روى معناه عن الحسن . وقال الربيع بن أنس والفراء : ﴿ فَاسْتَوَى . وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ أى استوى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام . وهذا على العطف على المضمر المرفوع بـ « هو » . وأكثر العرب إذا أرادوا العطف فى مثل هذا الموضع أظهروا كناية المعطوف عليه ؛ فيقولون : استوى هو وفلان ؛ وقلما يقولون استوى وفلان ؛ وأنشد الفراء :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ النَّبْعَ يَصْلُبُ عُـودُهُ ۞ وَلَا يَسْتَوِى وَالْخِرْوَعُ الْمُتَقَصِّفُ[2]

أى لا يستوى هو والخروع ؛ ونظير هذا : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا » والمعنى أئذا كنا ترابا نحن وآباؤنا . ومعنى الآية ، استوى جبريل هو ومحمد عليهما السلام ليلة الإسراء بالأفق الأعلى .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) النبع شجر فى الجبال تؤخذ منه القسى . والخروع معروف . والمتقصف المتكسر .

وأجاز العطف على الضمير لئلا يتكرر . وأنكر ذلك الزجاج إلا فى ضرورة الشعر . وقيل : المعنى فآستوى جبريل بالأفق الأعلى وهو أجود . وإذا كان المستوى جبريل فمعنى «ذُو مِرَّةٍ» فى وصفه ذو منطق حسن ؛ قاله آبن عباس . وقال قتادة : ذو خَلْق طويل حسن . وقيل : معناه ذو صحة جسم وسلامة من الآفات ؛ ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم : "لا تحل الصدقة لغنىّ ولا لِذِى مِرَّةٍ سَوِىّ[1]" . وقال آمرؤ القيس :

كنتُ فيهم أبدًا ذا حِيلةٍ * مُحْكَمَ المِرَّةِ مأمونَ العُقَدْ

وقد قيل : « ذُو مِرَّةٍ » ذو قوة . قال الكلبى : وكان من شدّة جبريل عليه السلام أنه آقتلع مدائن قوم لوط من الأرض السُّفْلى[2] ، فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماء ، حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم وصياح ديكتهم ثم قلبها . وكان من شدّته أيضا أنه أبصر إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب من الأرض المقدّسة فنفحه بجناحه نفحة ألقاه بأقصى جبل فى الهند . وكان من شدّته صيحته بثمود فى عددهم ، وكثرتهم فأصبحوا جاثمين خامدين وكان من شدّته هبوطه من السماء على الأنبياء وصعوده إليها فى أسرع من الطرف . وقال قُطْرُب : تقول العرب لكل جزل الرأى حَصِيف العقل ذُو مِرّةٍ . قال الشاعر :

قد كنتُ قبلَ لِقاكُمُ ذا مِرَّةٍ * عندى لِكلِّ مُخاصِمٍ مِيزانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحَصافة عقله أن الله آئتمنه على وحيه إلى جميع رسله . قال الجوهرى : والمِرة إحدى الطبائع الأربع ، والمِرة القوة وشدّة العقل أيضا . ورجل مرير أى قوى ذو مِرة . قال[3] :

تَرَى الرجلَ النّحيفَ فتزدرِيهِ * وفى أثوابِهِ أسدٌ مَرِيرُ

وقال لَقِيط :

حتى آستمرّت على شَزْرٍ مَرِيرتُهُ * مُرُّ العَزِيمةِ لا [قَحْماً] ولا ضَرَعا[4]

(١) السوى : الصحيح الأعضاء . (٢) فى بعض النسخ : من الماء الأسود .

(٣) قائله العباس بن مرداس . وفى التاج : وفى أثوابه رجل مزير . بالزاى ويروى : أسد مزير . والمزير كأمير الشديد القلب القوى النافذ فى الأمور . (٤) فى الأصول « لارتا » ولم يتبين لنا وجه المعنى فيها فأثبتنا بدلها « قحما » عن ديوان لقيط بآخر كتاب منتهى الطلب . والقحم الشيخ الهرم يعتريه خرق وخرف . والضرع اللين الذليل .

وقال مجاهد وقتادة : « ذُو مِرَّةٍ » ذو قوة ؛ ومنه قول خُفَاف بن نَدْبة :

إنِّي آمرؤٌ ذو مِرَّةٍ فاسـتبقِني * فيما يَنُوبُ من الخُطُوبِ صَلِيبُ

فالقوة تكون من صـفة الله عز وجل ومن صفة المخـلوق . « فآستوى » يعـنى جبريل على ما بينا أى آرتفع وعلا إلى مكان فى السماء بعد أن علَّم محمدا صلى الله عليه وسلم . قاله سـعيد آبن المسيِّب وآبن جبير . وقيل : « فاسْتَوَى » أى قام فى صورته التى خلقه الله تعالى عليها ؛ لأنه كان يأتى إلى النبي صـلى الله عليـه وسـلم فى صورة الآدميين كما كان يأتى إلى الأنبياء ، فسأله النبي صـلى الله عليه وسـلم أن يريه نفســه التى جبله الله عليها فأراه نفسه مرتين مرة فى الأرض ومرة فى السماء فأما فى الأرض ففى الأفق الأعلى ، وكان النبي صـلى الله عليـه وسلم بحراء ، فطلع له جبريل من المشرق فسد الأرض إلى المغرب ، فخر النبي صلى الله عليه وسلم مغشيا عليه ، فنزل إليه فى صورة الآدميين وضمـه إلى صدره ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه ، فلما أفاق النبي صلى الله عليه وسـلم قال : " يا جبريل ما ظننت أن الله خلق أحدا على مثل هـذه الصورة " . فقال : يا محمد إنمـا نشرت جناحين من أجنحتى وإن لى ستمائة جناح سـعة كل جناح ما بين المشرق والمغرب . فقال : " إن هذا لعظيم " فقال : وما أنا فى جنب ما خلقه الله إلا يسـيرا ، ولقد خلق الله إسرافيل له ستمائة جناح ، كل جناح منها قدر جميـع أجنحتى ، وإنه ليتضاءل أحيانا من مخافة الله تعـالى حتى يكون بقدر الوصَّع . يعنى العصفور الصغير ؛ دليله قوله تعـالى : « وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ » وأما فى السماء فعند سِدْرة المنتهى ، ولم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا محمدا صلى الله عليه وسلم . وقول ثالث أن معنى « فَاسْتَوَى » أى آستوى القرآن فى صدره . وفيه على هذا وجهان : أحدهما فى صدر جبريل حين نزل به عليه . الثانى فى صدر محمد صلى الله عليه وسلم حين نزل عليه . وقول رابع أن معنى «فَآسْتَوَى» فاعتدل يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم . وفيه على هذا وجهان : أحدهما فآعتدل فى قوته . الثانى فى رسالته . ذكرهما المـاوردى .

قلت : وعلى الأول يكون تمـام الكلام « ذُو مِرَّةٍ » وعلى الثانى « شَـدِيدُ الْقُوَى » . وقول خامس أن معناه فآرتفع . وفيه على هـذا وجهان : أحدهما أنه جبريل عليه السـلام

آرتفع إلى مكانه على ما ذكرنا آنفا . الثانى أنه النبي صلى الله عليه وسلم آرتفع بالمعراج . وقول سادس « فَٱسْتَوَى » يعنى الله عز وجل أى آستوى على العرش على قول الحسن . وقد مضى القول فيه فى « الأعراف »(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ جملة فى موضع الحال والمعنى فاستوى عاليا ؛ أى آستوى جبريل عاليا على صورته ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يراه عليها حتى سأله إياها على ما ذكرنا . والأفق ناحية السماء وجمعه آفاق . وقال قتادة : هو الموضع الذى تأتى منه الشمس . وكذا قال سفيان : هو الموضع الذى تطلع منه الشمس . ونحوه عن مجاهد . ويقال : أفْق وأُفُق مثل عُسْر وعُسُر . وقد مضى فى « حم السجدة »(٢) . وفرس أُفُق بالضم أى رائع وكذلك الأنثى ؛ قال الشاعر(٣) :

أرجِّلُ لِمَّتِي وأَجُرُّ ذَيْلِي * وتَحمِلُ شِكَّتِي أُفُقٌ كُمَيْتُ

وقيل : « وَهُوَ » أى النبي صلى الله عليه وسلم « بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ » يعنى ليلة الإسراء وهذا ضعيف ؛ لأنه يقال : آستوى هو وفلان ولا يقال آستوى وفلان إلا فى ضرورة الشعر . والصحيح آستوى جبريل عليه السلام وجبريل بالأفق الأعلى على صورته الأصلية ؛ لأنه كان يتمثل للنبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بالوحى فى صورة رجل، فأحبّ النبي صلى الله وسلم أن يراه على صورته الحقيقية ، فآستوى فى أفق المشرق فملأ الأفق .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ أى دنا جبريل بعد آستوائه بالأفق الأعلى من الأرض « فَتَدَلَّىٰ » فنزل على النبي صلى الله عليه وسلم بالوحى . المعنى أنه لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من عظمته ما رأى ، وهاله ذلك ردّه الله إلى صورة آدمىّ حين قرب من النبي صلى الله عليه وسلم بالوحى، وذلك قوله تعالى : « فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ » يعنى أوحى الله إلى جبريل وكان جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ » قاله آبن عباس والحسن وقتادة والربيع وغيرهم . وعن

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ فما بعد وجـ ١ ص ٢٥٤ (٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٧٤ فما بعد
(٣) قائله عمرو بن قنعاس المرادى . والشكة السلاح . وفى اللسان : وتحمل بزتى . والكميت من الخيل ما خالط حمرته سواد غير خالص .

آبن عباس أيضا في قوله تعالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » أن معناه أن الله تبارك وتعالى « دنا » من محمد صلى الله عليه وسلم « فَتَدَلَّى » . وروى نحوه أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم . والمعنى دنا منه أمره وحكمه . وأصل التدلى النزول إلى الشيء حتى يقرب منه فوضع موضع القرب؛ قال لَبِيد (١) :

فتَــدَلَّيْت عَلَيْـــه قافِــلًا * وعلى الأرض غيَابَاتُ الطَّفَلْ (١)

وذهب الفرّاء إلى أن الفاء في « فَتَدَلَّى » بمعنى الواو ، والتقدير ثم تدلى جبريل عليــه السلام ودنا . ولكنه جائز إذا كان معنى الفعلين واحدا أو كالواحد قدمت أيهما شئت ، فقلت فدنا فقرب وقرب فدنا ، وشتمني فأساء وأساء فشتمني ؛ لأن الشتم والإساءة شيء واحد . وكذلك قوله تعالى : « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ » المعنى والله أعلم آنشق القمر وآقتربت الساعة . وقال الجرجاني : في الكلام تقديم وتأخير أي تدلّى فدنا ؛ لأن التــدلّى سبب الدنو . وقال آبن الأنباري : ثم تدلّى جبريل أي نزل من السماء فدنا من محمد صلى الله عليـه وسلم . وقال آبن عباس : تدلّى الرفرف لمحمد صلى الله عليــه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه . وسيأتي . ومن قال : المعنى فآســتوى جبريل ومحمد بالأفق الأعلى قد يقول ثم دنا محمد من ربه دنوّ كرامة فتدلّى أي هَوَى للسجود . وهــذا قول الضحاك . قال القشيري : وقيل على هذا تدلّى أي تَدَلَّل ؛ كقولك تَظَنَّى بمعنى تَظَنَّنَ ، وهــذا بعيد ؛ لأن الدلال غير مرضيّ في صفة العبودية .

قوله تعــالى : ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ أي « كانَ » محمد من ربه أو من جبريل « قَابَ قَوْسَيْنِ » أي قدر قوسين عربيتين . قاله آبن عباس وعطاء والفرّاء . الزمخشري : فإن قلت كيف تقدير قوله « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين ، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله (٢) :

* وَقَدْ جَعَلَتْنِي مِن حَزِيمَةَ إِصْبِعَا *

---

(١) البيت في وصف فرس . أراد أنه نزل من مربأته وهو على فرسه راكب .
(٢) قائله أعشى نهشل وصدره : * فأدرك إبقاء العرادة ظلعها *

أى ذا مقـدار مسافة إصبع « أَوْ أَدْنَى » أى على تقديركم كقوله تعـالى : « أَوْ يَزِيدُونَ » . وفى الصحاح : وتقول بينهما قابُ قَوْس ، وقِيبُ قَوْس وقادُ قَوْس وقِيدُ قَوْس ؛ أى قَدْر قوسٍ . وقرأ زيد بن على « قَادَ » وقرئ « قِيدَ » و « قَدْرَ » . ذكره الزمخشرى . والقابُ ما بين المَقْبِض والسِّيَة . ولكل قوس قابان . وقال بعضهم فى قوله تعالى : « قَابَ قَوْسَيْنِ » أراد قابى قوس فقلبه . وفى الحديث : "ولَقابُ قوسِ أحدِكم من الجنة وموضع قِـدّه خيرٌ من الدنيا وما فيها" والقِـدّ السّوط . وفى الصحيح عن أبى هريرة قال قال النبى صـلى الله عليه وسلم : "ولَقابُ قوسِ أحدِكم فى الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها" . وإنما ضرب المثـل بالقوس، لأنها لا تختلف فى القاب . والله أعلم . قال القاضى عِياض : آعلم أن ما وقع من إضافة الدنوّ والقرب من الله أو إلى الله فليس بدنوّ مكانٍ ولا قرب مَـدًى ، وإنما دنوّ النبى صلى الله عليه وسـلم من ربه وقُرْبه منه إبانةُ عظيمِ منزلته ، وتشريف رتبته ، وإشراق أنوار معرفته، ومشاهدة أسرار غيبـه وقدرته ، ومن الله تعالى له مبرة وتأنيس وبسط وإكرام . ويتأوّل فى قوله عليه السلام : "ينزل ربنا إلى سماء الدنيا" على أحد الوجوه نزول إجمـال وقبول وإحسان . قال القاضى : وقوله « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » فمن جعـل الضمير عائدا إلى الله تعالى لا إلى جبريل كان عبارة عن نهاية القرب ، ولطف المحـل ، وإيضاح المعرفة، والإشراف على الحقيقة من محمد صلى الله عليه وسلم وعبارة عن إجابة الرغبة ، وقضاء المطالب ، وإظهار التحفّى ، وإنافة المنزلة والقـرب من الله ويتأوّل فيـه ما يتأوّل فى قوله عليه السلام : "من تقرّب منى شبرا تقرّبت منه ذراعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة" قرب بالإجابة والقبول ، وإتيان بالإحسان وتعجيل المأمول . وقد قيل : « ثم دَنَا » جبريل من ربه « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » قاله مجاهد . ويدل عليـه ما روى فى الحـديث : "إن أقرب الملائكة من الله جبريل عليه السلام" . وقيل : « أو » بمعنى الواو أى قاب قوسين وأدنى . وقيـل : بمعنى بل أى بل أدنى . وقال سعيد بن المسيِّب : القاب صـدر القوس العربية حيث يشدّ عليـه السير الذى يتنكبه صاحبـه ، ولكل قوس قاب واحد . فأخبر أن جبريل قرب من محمد صلى الله عليه وسـلم كقرب قاب قوسين . وقال سعيد بن جبـير وعطاء

وأبو إسحق الهَمْدانى وأبو وائل شقيق بن سلمة : « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ » أى قدر ذراعين والقوس الذراع يقاس بها كل شيء ؛ وهى لغة بعض الحجازيين . وقيل : هى لغة أزد شنوءة أيضا . وقال الكسائى : قوله « فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » أراد قوسا واحدا ؛ كقول الشاعر :

وَمَهْمَهَيْنِ قَذَفَيْنِ مَرْتَيْنِ * قَطَعْتُهُ بِالسَّمْتِ لا بِالسَّمْتَيْنِ (١)

أراد مهمها واحدا . والقوس تذكر وتؤنث فمن أنث قال فى تصغيرها قُوَيْسة ومن ذكر قال قُوَيْس ؛ وفى المثل هو من خيرِ قُوَيْسٍ سَهْمًا . والجمع قِسِى وقُسِىٌّ وأَقْوَاس وقِيَاس وأنشد أبو عبيدة :

* ووَتَّرَ الأساوِرُ القِيَاسَا (٢) *

والقَوْس أيضا بقية التمر فى الجُلَّة أى الوعاء . والقَوْس برج فى السماء ؛ فأما القُوس بالضم فصومعة الراهب؛ قال الشاعر وذكر امرأة :

* لاستفتنتْنِى وذَا المِسْحِين فى القُوسِ (٣) *

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ تفخيم للوحى الذى أوحى إليه . وتقدّم معنى الوحى وهو إلقاء الشيء بسرعة ومنه الوَحَاء الوَحَاء (٤) . والمعنى فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى . وقيل : المعنى « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ » جبريل عليه السلام « مَا أَوْحَى » . وقيل : المعنى فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد صلى الله عليه وسلم ما أوحى إليه ربه . قاله الربيع والحسن وابن زيد وقتادة . قال قتادة : أوحى الله إلى جبريل وأوحى جبريل إلى محمد . ثم قيل : هذا الوحى هل هو مبهم ؟ لا نَطَّلع عليه نحن وتُعُبِّدنا بالإيمان به

---

(١) السمت : الطريق ومعناه قطعته على طريق واحد .

(٢) قائله القلاخ بن حزن . تمامه :   * صغدية تنتزع الأنفاسا *

والأساور : جمع إسوار وهو المقدم من أساورة الفرس . والصغد : جيل من العجم و يقال إنه اسم بلد .

(٣) قائله جرير وصدره :   * لا وصل إذ صرفت هند ولو وقفت *

(٤) يمد ويقصر فالمقصور الوحى كالوغى ومعناه البدار البدار . راجع جـ ٤ ص ٨٥ وجـ ١٠ ص ١٣٣ فى معنى الوحى والقول فيه .

على الجملة؛ أو هو معلوم مفسّر؟ قولان . وبالثانى قال سعيد بن جبير؛ قال : أوحى الله إلى محمد ؛ ألم أجدك يتيما فآويتك ! ألم أجدك ضالا فهديتك ! ألم أجدك عائلا فأغنيتك «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ» . وقيل : أوحى الله إليه أن الجنة حرام على الأنبياء حتى تدخلها يا محمد وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك .

قوله تعالى : مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨)

قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ أى لم يكذب قلب محمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج؛ وذلك أن الله تعالى جعل بصره فى فؤاده حتى رأى ربه تعالى وجعل الله تلك رؤية . وقيل : كانت رؤية حقيقة بالبصر . والأول مروىّ عن ابن عباس . وفى صحيح مسلم أنه رآه بقلبه . وهو قول أبى ذرّ وجماعة من الصحابة . والثانى قول أنس وجماعة . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أتعجبون أن تكون الخُلّة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد صلى الله عليه وسلم . وروى عن ابن عباس أيضا أنه قال : أما نحن بنى هاشم فنقول إن محمدا رأى ربه مرتين . وقد مضى القول فى هذا فى «الأنعام»(١) عند قوله : «لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» . وروى محمد بن كعب قال : قلنا يا رسول الله صلى الله عليك رأيت ربك؟ قال : "رأيته بفؤادى مرتين" ثم قرأ « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » . وقول ثالث أنه رأى جلاله وعظمته . قاله الحسن . وروى أبو العالية قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ؟ قال : "رأيت نهرا ورأيت وراء النهر حجابا ورأيت

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٤ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وراء الحجاب نورا لم أر غير ذلك . وفى صحيح مسلم عن أبى ذرّ قال : سألت رسـول الله صلى الله عليه وسلم هـل رأيت ربك؟ قال : " نور أنَّى أراه " المعنى غلبنى من النور وبهرنى منـه ما منعنى من رؤيته ؛ ودل على هـذا الرواية الأخرى " رأيت نورا " . وقال آبن مسعود : رأى جبريل على صورته مرتين . وقرأ هشام عن آبن عامر وأهل الشام «مَا كَذَّبَ» بالتشديد أى ما كذّب قلبُ محمـد ما رأى بعينه تلك الليلة بل صدّقه . فـ « ما » مفعوله بغير حرف مقدّر ؛ لأنه يتعدّى مشدّدًا بغير حرف . ويجوز أن تكون « ما » بمعنى الذى والعائد محذوف ، ويجوز أن يكون مع الفعل مصدرا . الباقون مخففا ؛ أى ما كذب فؤاد محمد فيما رأى فأسقط حرف الصفة . قال حسان رضى الله عنه :

لو كنتِ صادقة الذى حدّثتِنِي * لنجوتِ مَنْجًا الحرثِ بنِ هِشامِ

أى فى الذى حدّثتِنِي . ويجوز أن يكون مع الفعل مصـدرا . ويجوز أن يكون بمعنى الذى ؛ أى ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه وسلم الذى رأى .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ قرأ حمزة والكسائى « أَفَتَمْرُونَهُ » بفتح التـاء من غير ألف على معنى أفتجحدونه . وآختاره أبو عبيد ؛ لأنه قال : لم يماروه وإنما جحدوه . يقال : مراه حقه أى جحده ومريته أنا ؛ قال الشاعر :

لئن هجـرتَ(1) أخا صِـدقٍ ومكْرُمَـةٍ * لقـد مَرَيْتَ أخًا ما كان يَمْـرِيكَا

أى جحدته . وقال المبرّد : يقال مراه عن حقه وعلى حقه إذا منعه منه ودفعه عنه . قال : ومثل على بمعنى عن قول بنى كعب بن ربيعة رضى الله عليك ؛ أى رضى عنك . وقرأ الأعرج ومجاهد « أَفَتُمْرُونَهُ » بضم التاء من غير ألف من أمريت أى تريبونه وتشككونه . الباقون « أَفَتُمَارُونَهُ » بألف أى أتجادلونه وتدافعونه فى أنه رأى الله ؛ والمعنيان متداخلان ؛ لأن مجادلتهم جحود . وقيل : إن الجحـود كان دائما منهم وهذا جدال جديد . قالوا : صف لنـا بيت المقدس وأخبرنا عن عيرنا التى فى طريق الشام . على ما تقدّم(2) .

(1) وروى : هجوت .		(2) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ « نزلة » مصدر في موضع الحال كأنه قال : ولقد رآه نازلا نزلة أخرى . قال ابن عباس : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه مرة أخرى بقلبه . روى مسلم عن أبي العالية عنه قال : « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » قال : رآه بفؤاده مرتين ؛ فقوله : « نَزْلَةً أُخْرَى » يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كان له صعود ونزول مرارا بحسب أعداد الصلوات المفروضة ، فلكل عَرْجة نَزْلة . وعلى هذا قوله تعالى : « عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » أي ومحمد صلى الله عليه وسلم عند سدرة المنتهى وفي بعض تلك النزلات . وقال ابن مسعود وأبو هريرة في تفسير قوله تعالى : « وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى » أنه جبريل . ثبت هذا أيضا في صحيح مسلم . وقال ابن مسعود قال النبي صلى الله عليه وسلم : "رأيت جبريل بالأفق الأعلى له ستمائة جناح يتناثر من ريشه الدر والياقوت" ذكره المهدوي .

قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ « عِنْدَ » من صلة « رآه » على ما بينا . والسِّدْر شجر النَّبِق وهي في السماء السادسة ، وجاء في السماء السابعة . والحديث بهذا في صحيح مسلم ؛ الأول ما رواه مُرَّة عن عبد الله قال : لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهي في السماء السادسة ، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، قال : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال : فراش[(١)] من ذهب ، قال : فأعطي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا ، أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغُفِر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا المقحِماتُ[(٢)] . الحديث الثاني رواه قتادة عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لما رُفِعتُ إلى سدرة المنتهى في السماء السابعة نَبِقها مثل قِلال هَجَر وورقها مثل آذان الفِيَلة يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان قلت يا جبريل ما هذا قال أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات" لفظ الدارقطني . والنَّبِق بكسر الباء ثمر السِّدْر الواحد نَبِقة . ويقال : نَبْق بفتح النون وسكون

(١) ويروى : « جراد من ذهب » . والفراش دويبة ذات جناحين تتهافت في ضوء السراج واحدتها فراشة .
(٢) المقحمات الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار أي تلقيهم فيها .

الباء ذكرهما يعقوب في الإصلاح وهي لغة المصريين، والأولى أفصح وهي التي ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى الترمذيّ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول — وقد ذُكر له سِدْرة المنتهى — قال : "يسير الراكب في ظل الغصن منها مائة سنة أو يستظل بظلها مائة راكب — شك يحيي — فيها فَرَاش الذهب كأن ثمرها القِلال" قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

قلت : وكذا لفظ مسلم من حديث ثابت عن أنس "ثم ذُهِب بي إلى سِدْرة المنتَهى و إذا ورقها كآذان الفِيلة و إذا ثمرها كالقِلال فلما غشيها من أمر الله عز وجل ما غشِي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها" . وآختلف لم سُمِّيت سِدْرة المنتَهى على أقوال تسعة : الأول — ما تقدّم عن آبن مسعود أنه ينتهي إليها كلما يهبط من فوقها و يصعد من تحتها . الثاني — أنه ينتهي علم الأنبياء إليها ويعزب علمهم عما وراءها . قاله آبن عباس . الثالث — أن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها . قاله الضحاك . الرابع — لآنتهاء الملائكة والأنبياء إليها ووقوفهم عندها . قاله كعب . الخامس — سُمّيت سِدْرة المنتَهى لأنه ينتهي إليها أرواح الشهداء . قاله الربيع بن أنس . السادس — لأنه تنتهي إليها أرواح المؤمنين قاله قتادة . السابع — لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنّة محمد صلى الله عليه وسلم ومنهاجه . قاله علي رضي الله عنه والربيع بن أنس أيضا . الثامن — هي شجرة على رءوس حملة العرش إليها ينتهي علم الخلائق . قاله كعب أيضا .

قلت : يريد — والله أعلم — أن آرتفاعها وأعالي أغصانها قد جاوزت رءوس حملة العرش ؛ ودليله ما تقدّم من أن أصلها في السماء السادسة وأعلاها في السماء السابعة ، ثم علت فوق ذلك حتى جاوزت رءوس حملة العرش . والله أعلم . التاسع — سُمّيت بذلك لأن من رفع إليها فقد آنتهى في الكرامة . وعن أبي هريرة لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم آنتهى به إلى سِدْرة المنتَهى فقيل له هذه سِدْرة المنتَهى ينتهي إليها كل أحد خَلَا من أمتك على سنّتك فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهارٌ من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار

من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مُصَفّى ، وإذا هى شجرة يسير الراكب المسرع فى ظلّها مائة عام لا يقطعها ، والورقة منها تغطّى الأمّة كلّها ، ذكره الثعلبى .

قوله تعالى : ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ تعريف بموضع جنة المأوى وأنها عند سِدْرة المنتهَى . وقرأ علىّ وأبو هريرة وأنس وأبو سَبْرَة الجهنى وعبد الله بن الزبير ومجاهد « عِنْدَهَا جَنَّهُ الْمَأْوَى » يعنى جَنّه المبيت . قال مجاهد : يريد أجنه . والهاء للنبى صلى الله عليه وسلم . وقال الأخفش : أدركه كما تقول جنه الليل أى ستره وأدركه . وقراءة العامة « جَنَّةُ الْمَأْوَى » قال الحسن : هى التى يصير إليها المتقون . وقيل : إنها الجنة التى يصير إليها أرواح الشهداء قاله ابن عباس . وهى عن يمين العرش . وقيل : هى الجنة التى آوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أن أخرج منها وهى فى السماء السابعة (١) . وقيل : إن أرواح المؤمنين كلهم فى جنّة المأوى . وإنما قيل لها جنّة المأوى : لأنها تأوى إليها أرواح المؤمنين وهى تحت العرش فيتنعمون بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها . وقيل : لأن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال ابن عباس والضحاك وابن مسعود وأصحابه : فَرَاشٌ من ذهب . ورواه مرفوعا ابن مسعود وابن عباس إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وقد تقدّم فى صحيح مسلم عن ابن مسعود قوله . وقال الحسن : غشيها نور ربّ العالمين فاستنارت . قال القشيرى : وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غشيها ؟ قال : " فَرَاش من ذهب " . وفى خبر آخر " غشيها نور من الله حتى ما يستطيع أحد أن ينظر إليها " وقال الربيع بن أنس : غشيها نور الربّ والملائكة تقع عليها كما يقع الغربان على الشجرة . وعن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت السّدرة يغشاها فَرَاش من ذهب ورأيت على كل ورقة مَلَكا قائما يسبح الله تعالى وذلك قوله « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » " ذكره

---

(١) فى نسخ : « الرابعة » وكذا فى حاشية الجمل عن القرطبى .

المهدوى والثعلبي (١) . وقال أنس بن مالك : « إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى » قال جراد من ذهب وقد رواه مرفوعا . وقال مجاهد : إنه رَفْرَف أخضرُ . وعنه عليه السلام : " يغشاها رَفْرَف من طـير خضر " . وعن ٱبن عبـاس : يغشاها ربُّ العـزة ؛ أى أمره كما فى صحيح مسلم مرفوعا : "فلما غشيها من أمر الله ما غشي" . وقيل : هو تعظيم الأمر؛ كأنه قال : إذ يغشى السِّدْرة ما أعلم الله به من دلائل ملكوته . وهكذا قوله تعالى : « فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » « وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى » ومثله «الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ» . وقال الماوردى فى معانى القرآن له : فإن قيل لم ٱختيرت السِّدْرة لهذا الأمر دون غيرها من الشجر؟ قيل : لأن السِّدرة تختص بثـلاثة أوصاف : ظلّ مديد ، وطعم لذيذ ، ورائحة ذكية ، فشابهت الإيمان الذى يجمع قولا وعملا ونيّـة ، فظلها من الإيمان بمنزلة العمل لتجاوزه ، وطعمها بمنزلة النية لكمونه ورائحتها بمنزلة القول لظهوره . وروى أبو داود فى سننه قال : حدّثنا نصر بن على قال حدّثنا أبو أسامة عن ٱبن جريج عن عثمان بن أبى سليمان عن سعيد بن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعِم عن عبد الله بن حبشي ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قطع سِدْرة صَوَّب اللهُ رأسَه فى النار" وسئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال : هذا الحديث مختصر يعنى من قطع سِدْرة فى فلاة يستظل بها ٱبن السبيل والبهائم عبثـا وظلما بغير حقّ يكون له فيها صَوَّب اللهُ رأسَه فى النار .

قوله تعـالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ قال ٱبن عباس : أى ما عدل يمينا ولا شمالا ، ولا تجاوز الحدّ الذى رأى . وقيل : ما جاوز ما أمر به . وقيل : لم يمدّ بصره إلى غير ما رأى

(١) بعد هذا نقل الجمل عن القرطبي فى تفسيره ما يأتى : وقيل ملائكة تغشاها كأنهم طيور يرتقون إليها متشوقين متبركين زائرين كما يزور الناس الكعبة ، وروى فى حديث المعـراج عن أنس أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " ذهب بى جبريل إلى سدرة المنتهى وأوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كقلال هجر " قال : " فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى قادر أن ينعتها من حسنها فأوحى إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة فى كل يوم وليلة " وقيل : يغشاها أنوار الله تعالى لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما وصل إليها تجلى ربه لها كما تجلى للجبل فظهرت الأنوار لكن السدرة كانت أقوى من الجبل وأثبت فجعل دكا ولم تتحرك الشجرة ، وخر موسى صعقا ولم يتزلزل محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : أبهمه تعظيما له والغشيان يكون بمعنى التغطية .

من الآيات ، وهذا وصف أدب للنبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك المقام ؛ إذ لم يلتفت يمينا ولا شمالا .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ قال ابن عباس : رأى رَفْرَفا سدّ الأفق . وذكر البيهقى عن عبد الله قال : « رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال ابن عباس : رأى رَفْرَفا أخضر سدّ أفق السماء . وعنه قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فى حُلّة رفرف أخضر ، قد ملأ ما بين السماء والأرض . قال البيهقى : قوله فى الحديث "رأى رَفْرَفا" يريد جبريل عليه السلام فى صورته على رفرف ، والرفرف البساط . ويقال : فِراش . ويقال : بل هو ثوب كان لباسا له . فقد روى أنه رآه فى حُلّة رفرف .

قلت : خرّجه الترمذى عن عبد الله قال « مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى » قال : رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جبريلَ عليه السلام فى حُلّة من رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض . قال : هذا حديث حسن صحيح .

قلت : وقد روى عن ابن عباس فى قوله تعالى « دَنَا فَتَدَلَّى » أنه على التقديم والتأخير ؛ أى تدلى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج فجلس عليه ثم رفع فدنا من ربه . قال : "فارقنى جبريل وانقطعت عنّى الأصوات وسمعت كلام ربّى" فعلى هذا الرَّفْرَفُ ما يُقْعَد ويُجلَس عليه كالبساط وغيره . وهو بالمعنى الأوّل جبريل . قال عبد الرحمن بن زيد ومقاتل بن حيان : رأى جبريل عليه السلام فى صورته التى يكون فيها فى السموات ؛ وكذا فى صحيح مسلم عن عبد الله قال : « لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » قال رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح . ولا يبعد مع هذا أن يكون فى حُلّة رفرف وعلى رفرف . والله أعلم . وقال الضحاك : رأى سدرة المنتهى . وعن ابن مسعود : رأى ما غشى السِّدرة من فَرَاش الذهب . حكاه الماوردى . وقيل : رأى المعراج . وقيل : هو ما رأى تلك الليلة فى مسراه فى عوده وبدئه ؛ وهو أحسن ؛ دليله « لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » « ومِنْ » يجوز أن تكون للتبعيض ، وتكون « الكبرى » مفعولة لـ « رأى » وهى فى الأصل صفة الآيات ووحدت لرءوس

الآيات . وأيضا يجوز نعت الجماعة بنعت الأنثى؛ كقوله تعالى : « وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى » .
وقيل : « الْكُبْرَى » نعت لمحذوف؛ أي رأى من آيات ربه الآية الكبرى . ويجوز أن تكون
« من » زائدة؛ أي رأى آيات ربه الكبرى . وقيل : فيه تقديم وتأخير؛ أي رأى الكبرى
من آيات ربه .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ لما ذكر الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر من آثار قدرته ما ذكر، حاجّ المشركين إذ عبدوا ما لا يعقل وقال : أفرأيتم هذه الآلهة التي تعبدونها أوحين إليكم شيئا كما أوحي إلى محمد . وكانت اللاتُ لثقيف، والعُزَّى لقريش وبني كنانة، ومناةُ لبني هلال (١) . وقال هشام : فكانت مناة لهذيل وخزاعة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا رضي الله عنه فهدمها عام الفتح . ثم اتخذوا اللاتَ بالطائف، وهي أحدث من مناة وكانت صخرةً مُربَّعة، وكان سدنتها من ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها بناء، فكانت قريش وجميع العرب تعظمها . وبها كانت العرب تسمى زيد اللات وتيم اللات . وكانت في موضع [منارة] (٢) مسجد الطائف اليسرى، فلم تزل كذلك إلى أن أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار . ثم اتخذوا العُزَّى وهي أحدث من اللات، اتخذها ظالم بن أسعد، وكانت بوادي نخلة الشامية فوق ذات عِرْق، فبنوا عليها بيتا وكانوا يسمعون منها (٣) الصوت . قال هشام : وحدثني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كانت العُزَّى شيطانة تأتي ثلاث سَمُرات ببطن نخلة، فلما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، بعث خالد بن الوليد رضي الله عنه فقال :

---

(١) اتفقت نسخ الأصل على القول بأن مناة لبني هلال ولم نره لغير المؤلف .
(٢) الزيادة من كتاب الأصنام لابن الكلبي .
(٣) في كتاب الأصنام « فيه » بدل « منها » .

"آيت بطنَ نخْلة فإنك تجد ثلاث سَمُرات فأعضِد الأولى" فأتاها فعضَدها فلما جاء إليه قال : "هل رأيت شيئا" قال : لا . قال : "فآعضِد الثانية" فأتاها فعضَدها، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "هل رأيت شيئا" قال : لا . قال : "فآعْضِد الثالثة" فأتاها فإذا هو بحبشيّة نافشة شعرها ، واضعة يديها على عاتقها تُصَرِّف بأنيابها ، وخلفها دُبيَّة[1] السُّلَمىّ وكان سادنَها فقال :

يا عُزَّ كُفْرانَكِ لا سُبْحانَكِ * إنّى رَأَيْتُ اللهَ قَد أهانَكِ

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حُمَمَة، ثم عَضَد الشجرة وقتل دُبيَّة السادن، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "تلك العُزّى [وان تُعبَدَ أبدا]" وقال آبن جُبير : العزّى حجر أبيض كانوا يعبدونه . قتادة : نبت كان ببطن نَخْلة «ومَنَاة» صنم لخزاعة . وقيل : إن اللّات فيما ذكر بعض المفسّرين أخذه المشركون من لفظ الله، والعُزّى من العزيز، ومَناة من مَنَى الله الشيءَ إذا قدّره . وقرأ آبن عباس وآبن الزبير ومجاهد وحميد وأبو صالح « اللّاتّ » بتشديد التاء وقالوا : كان رجلا يَلُتّ السَّويق للحاجّ — ذكره البخارى عن آبن عباس — فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه . آبن عباس : كان يبيع السّويق والسّمن عند صخرة ويصبه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاما لصاحب السّويق . أبو صالح : إنما كان رجلا بالطائف فكان يقوم على آلهتهم ويَلُتّ لهم السّويق فلما مات عبدوه . مجاهد : كان رجل في رأس جبل له غُنَيمة يَسْلِي[2] منها السّمن ويأخذمنها الأَقِط ويجمع رِسْلَها، ثم يتخذمنها حَيْسا فيطعم الحاجّ ، وكان ببطن نَخْلة فلما مات عبدوه وهو اللّاتّ . وقال الكَلْبىّ : كان رجلا من ثقيف يقال له صِرمة بن غنم . وقيل إنه عامر بن ظَرِب العَدْوانىّ . قال الشاعر[3] :

لا تَنْصُروا اللّاتَ إنّ اللهَ مُهْلِكُهَا * وكيف يَنْصُرُكُمْ مَنْ ليس يَنْتَصِرُ

(١) دبية بالدال المهملة بن حرمى ويروى آبن حرمى ثم السلمى .

(٢) يسلى : يجمع . والأقط لبن مجفف يابس مستحجر يطبخ به . والرسل اللبن .

(٣) هو شداد بن عارض الجشمى قاله فى أبيات حين هدمت اللات وحرقت ، ينهى ثقيفا عن العود إليها والغضب لها .

والقراءة الصحيحة «اللاتَ» بالتخفيف اسم صنم والوقف عليها بالتاء وهو اختيار الفرّاء. قال الفرّاء : وقد رأيت الكسائيّ سأل أبا فَقْعَس الأسديّ[(١)] فقال ذاه لذات [ولاه للات] وقرأ « أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّهْ » . وكذا قرأ الدُّورِيّ عن الكسائيّ والبَزّى عن ابن كثير « اللاّه » بالهاء في الوقف ومن قال : إن « اللاّت » من الله وقف بالهاء أيضا . وقيل : أصلها لاهة مثل شاة [أصلها شاهة] . وهي من لاَهَتْ أي اختفت ؛ قال الشاعر :

لاَهَتْ فما عُرِفت يوماً بخارجةٍ * ياليتها خَرجتْ حتّى رأيناها

وفي الصحاح : اللاّت اسم صنم كان لثقيف وكان بالطائف ، وبعض العرب يقف عليها بالتاء ، وبعضهم بالهاء ؛ قال الأخفش : سمعنا من العرب من يقول اللاّتِ والعُزَّى ، ويقول هي اللاّتْ فيجعلها تاء في السّكوت وهي اللاّتِ فأعْلَمَ أنه جُرَّ في موضع الرفع ؛ فهذا مثل أمسِ مكسورٌ على كل حال وهو أجودُ منه ؛ لأن الألف واللام اللتان في اللاّت لا تسقطان وإن كانتا زائدتين ؛ وأما ماسمعنا من الأكثر في اللاّتِ والعُزَّى في السّكوت عليها فاللاّهْ لأنها هاء فصارت تاء في الوصل وهي في تلك اللغة مثلُ كان من الأمر كَيْتِ وكَيْتِ ، وكذلك هيهاتِ في لغة من كسرها ؛ إلا أنه يجوز في هيهاتِ أن تكون جماعة ولا يجوز ذلك في اللاّتِ ؛ لأن التاء لا تزاد في الجماعة إلا مع الألف ، وإن جعلت الألف والتاء زائدتين بقي الاسم على حرف واحد .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصن وحُمَيد ومجاهد والسُّلَمي والأعشى عن أبي بكر « وَمَنَاءَةَ » بالمدّ والهمز . والباقون بترك الهمز لغتان . وقيل : سمي بذلك ؛ لأنهم كانوا يريقون عنده الدماء يتقربون بذلك إليه . وبذلك سميت مِنًى لكثرة مايراق فيها من الدماء . وكان الكسائي وابن كثير وابن مُحَيْصن يقفون بالهاء على الأصل .

(١) الذى ذكره النحاس في إعراب قوله تعالى : « ولات حين مناص » أن الفرّاء قال عن الكسائي أحسبه أنه سأل أبا السمال كيف يقرأ فيقف على « ولات » فوقف عليها بالهاء . وعبارة الفرّاء في هذه السورة من تفسيره : وكان الكسائي يقف عليها بالهاء وأنا أقف على التاء . ا هـ . ولم يذكر أبا فقعس .

الباقون بالتاء اتباعا لخط المصحف . وفى الصحاح : ومَنَاة اسم صنم كان [لهُذَيل وخُزَاعة][(١)] بين مكة والمدينة ، والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهى لغة ، والنسبة إليها مَنَوِىّ ، وعبد مَناة بن أُدّ بن طابخة وزيد مناة بن تميم بن مُرّ يُمَدّ ويقصر؛ قال هَوْبَر الحارثى :

أَلَا هلْ أَتَى التّيمَ بنَ عبدِ مَنَاءةٍ * على الشَّنْءِ فيما بيننا ابنُ تَمِيمِ

قوله تعالى : ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ العرب [لا][(٢)] تقول للثالثة أخرى ، وإنما الأخرى نعت للثانية واختلفوا فى وجهها فقال الخليل : إنما قال ذلك لوفاق رءوس الآى ؛ كقوله : « مَآرِبُ أُخْرَى » ولم يقل أُخَر . وقال الحسين بن الفضل : فى الآية تقديم وتأخير مجازها أفرأيتم اللات والعُزّى الأخرى ومَنَاة الثالثة . وقيل : إنما قال « وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » لأنها كانت مرتبة عند المشركين فى التعظيم بعد اللات والعُزّى فالكلام على نسقه . وقد ذكرنا عن هشام : أن مَنَاة كانت أولا فى التقديم ، فلذلك كانت مقدّمة عندهم فى التعظيم ؛ والله أعلم . وفى الآية حذف دل عليه الكلام ؛ أى أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرّت حتى تكون شركاء لله . ثم قال على جهة التقريع والتوبيخ : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴾ ردّا عليهم قولهم الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا ﴾ يعنى هذه القسمة ﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ أى جائرة عن العدل ، خارجة عن الصواب ، مائلة عن الحق . يقال : ضَازَ فى الحكم أى جار ، وضَازَه حقّه يَضِيزه ضَيْزا ــ عن الأخفش ــ أى نقصه وبخسه . قال : وقد يهمز فيقال ضأزه يَضْأَزه ضَأْزا وأنشد :

فإنْ تَنْأَ عنّا نَنْتَقِصْكَ وإنْ [تُقِمْ][(٣)] * فقِسْمُكَ مَضْئوزٌ وأنفُكَ رَاغِمُ

وقال الكسائى : يقال ضاز يَضِيز ضَيْزا وضاز يَضُوز ضَوْزا ، وضَأَز يَضْأَز ضأزا إذا ظلم وتعدّى وبخس وانتقص ؛ قال[(٤)] :

ضَازَتْ بنو أَسَدٍ بحُكمِهِمُ * إذ يجعلون الرأسَ كالذَّنَبِ

---

(١) الزيادة من الصحاح . (٢) زيادة يقتضيها السياق . (٣) الزيادة من اللسان وفى الأصل « وإن تغب » . وروى لخظك بدل فقسمك . (٤) قائله امرؤ القيس .

وقوله تعالى : « قِسْمَةٌ ضِيزَى » أى جائرة وهى فُعْلى مثل طُوبَى وحُبْلَى؛ وإنما كسروا الضاد لتسلم الياء؛ لأنه ليس فى الكلام فِعْلى صفة، وإنما هو من بناء الأسماء كالشِّعْرى والدِّفْلى. قال الفرّاء : وبعض العرب تقول ضُوزَى وضِئْزَى بالهمز. وحكى أبو حاتم عن أبي زيد : أنه سمع العرب تهمز «ضِيزَى». قال غيره : وبها قرأ آبن كثير؛ جعله مصدرا مثل ذِكرى وليس بصفة؛ إذ ليس فى الصفات فِعْلى ولا يكون أصلها فُعْلى؛ إذ ليس فيها ما يوجب القلب، وهى من قولهم ضأزته أى ظلمته. فالمعنى قسمة ذات ظلم. وقد قيل هما لغتان بمعنى. وحكى فيها أيضا سواهما ضَيْزَى وضَأْزَى وضُوزَى وضُؤْزَى. وقال المؤرّج : كرهوا ضم الضاد فى ضِيزَى وخافوا آنقلاب الياء واوا وهى من بنات الواو؛ فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا فى جمع أبيض بِيضٌ والأصل بُوضٌ مثل حُمْرٍ وصُفْرٍ وخُضْرٍ. فأما من قال : ضاز يَضُوز فالآسم منه ضُوزَى مثل شُورَى.

قوله تعالى : إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ (٢٦)

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أى ما هى يعنى هذه الأوثان « إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا » يعنى نحتموها وسميتموها آلهة. ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ أى قلدتموهم فى ذلك. ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى ما أنزل الله بها من حجة ولا برهان. ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ عاد من الخطاب إلى الخبر أى ما يتبع هؤلاء إلى الظن. ﴿ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أى تميل إليه. وقراءة العامة « يَتَّبِعُونَ » بالياء. وقرأ عيسى بن عمر وأيوب وآبن السَّمَيْقَع

« تَتَّبِعُونَ » بالتاء على الخطاب ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس . ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ أى البيان من جهة الرسول أنها ليست بآلهة . ﴿ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴾ أى اشتهى أى ليس ذلك له . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من البنين ، أى يكون له دون البنات . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من غير جزاء ليس الأمر كذلك . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من النبوة أن تكون فيه دون غيره . وقيل : « أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى » من شفاعة الأصنام ، نزلت فى النضر بن الحرث . وقيل : فى الوليد بن المغيرة . وقيل : فى سائر الكفار . ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لا ما تمنى أحد .

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى ، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له . قال الأخفش : الملك واحد ومعناه جمع ؛ وهو كقوله تعالى : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » . وقيل : إنما ذكر ملكا واحدا ، لأن كم تدل على الجمع .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَٰئِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ هم الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله والأصنام بنات الله . ﴿ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾ أى كتسمية الأنثى ، أى

يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله . ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى إنهم لم يشاهدوا خلقة الملائكة ، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يروه فى كتاب . ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ أى ما يتبعون ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ فى أن الملائكة إناث . ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الحقِّ شَيْئاً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ يعنى القرآن والإيمان . وهذا منسوخ بآية السيف . ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ نزلت فى النضر . وقيل : فى الوليد . ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أى إنما يبصرون أمر دنياهم ويجهلون أمر دينهم . قال الفراء : صغّرهم وازدرى بهم . أى ذلك قدر عقولهم ونهاية علمهم أن آثروا الدنيا على الآخرة . وقيل : أن جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى حاد عن دينه ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ فيجازى كلا بأعمالهم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ اللام متعلقة بالمعنى الذى دل عليه « وللهِ ما فى السموات وَمَا فِى الْأَرْضِ » كأنه قال : هو مالك ذلك يهدى من يشاء ويضل من يشاء ليجزى المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته . وقيل : « لله ما فى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ » معترض فى الكلام والمعنى ؛ إن ربك هو أعلم بمن ضَلّ عن سبيله وهو أعلم بمن آهتدى ليجزى . وقيل : هى

لام العاقبة ، أى ولله ما فى السموات وما فى الأرض ؛ أى وعاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم مسيء ومحسن : فللمسيء السوءى وهى جهنم وللمحسن الحسنى وهى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ » هذا نعت للمحسنين ؛ أى هم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك ؛ لأنه أكبر الآثام . وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائى « كَبِيرَ » على التوحيد وفسره ابن عباس بالشرك . « وَالْفَوَاحِشَ » الزنى . وقال مقاتل : « كَبَائِرَ الْإِثْمِ » كل ذنب ختم بالنار « وَالْفَوَاحِشَ » كل ذنب فيه الحدّ . وقد مضى فى « النساء »(١) القول فى هذا . ثم استثنى استثناء منقطعا وهى :

المسئلة الثانية — فقال : « إِلَّا اللَّمَمَ » وهى الصغائر التى لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه . وقد اختلف فى معناها ؛ فقال أبو هريرة وابن عباس والشعبى : « اللَّمَمَ » كل ما دون الزنى . وذكر مقاتل بن سليمان : أن هذه الآية نزلت فى رجل كان يسمى نبهان التمار ؛ كان له حانوت يبيع فيه تمرا ، فجاءته امرأة تشترى منه تمرا فقال لها : إن داخل الدكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت فندم نبهان ؛ فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ؛ فقال : "لعل زوجها غاز" فنزلت هذه الآية . وقد مضى فى آخر « هود »(٢) وكذا قال ابن مسعود وأبو سعيد الخدرى وحذيفة ومسروق : إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة . وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود قال : زنى العينين النظر، وزنى اليدين البطش ، وزنى الرجلين المشى، وإنما يصدّق ذلك أو يكذّبه الفرج ، فإن تقدّم كان زنى وإن تأخر كان لمما . وفى صحيح البخارى ومسلم عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئا أشبه باللم مما قال أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله كتب

(١) راجع ج ٥ ص ١٥٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع ج ٩ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية ، ففيه بيان الإجمال فى هذا الحديث برواية أخرى .

على ٱبن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة فزنى العينين النظر وزنى اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه " . والمعنى إن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ فى الدنيا والعقوبة فى الآخرة هو فى الفرج وغيرُه له حظٌّ من الإثم . والله أعلم . وفى رواية أبى صالح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كُتِب على ٱبن آدم نصيبه من الزنى مُدْرِكٌ ذلك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخُطَا والقلب يَهْوَى ويتمنى ويصدّق ذلك الفرج ويكذّبه " . خرجه مسلم . وقد ذكر الثعلبي حديث طاوس عن ٱبن عباس فذكر فيه الأذن واليد والرجل ، وزاد فيه بعد العينين واللسان : وزنى الشفتين القبلة . فهذا قول . وقال ٱبن عباس أيضا : هو الرجل يلمّ بذنب ثم يتوب . قال : ألم تسمع النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يقول :

إنْ تَغفِرِ اللّهمّ تغفِر جَمّا * وأىُّ عَبْدٍ لكَ لا ألمَّا

رواه عمرو بن دينار عن عطاء عن ٱبن عباس (١) . قال النحاس : هذا أصح ما قيل فيه وأجلها إسنادا . وروى شعبة عن منصور عن مجاهد عن ٱبن عباس فى قول الله عز وجل « إِلَّا اللَّمَمَ » قال : هو أن يلمّ العبد بالذنب ثم لا يعاوده ؛ قال الشاعر :

إن تغفِرِ اللهمّ تغفِر جمّا * وأىُّ عبدٍ لكَ لا أَلَمَّا

وكذا قال مجاهد والحسن : هو الذى يأتى الذنب ثم لا يعاوده . ونحوه عن الزهرى . قال : اللمم أن يزنى ثم يتوب فلا يعود ، وأن يسرق أو يشرب الخمر ثم يتوب فلا يعود . ودليل هذا التأويل قوله تعالى :

« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ » الآية . ثم قال : « أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ » فضمن لهم المغفرة ؛ كما قال عقيب اللمم : « إِنَّ

(١) روى هذا الحديث الترمذى بهذا الإسناد وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب . والبيت لأمية بن الصلت قاله عند احتضاره .

رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ فعلى هذا التأويل يكون « إِلَّا اللَّمَمَ » آستثناء متصل. قال عبدالله بن عمرو آبن العاص : اللمم مادون الشرك . وقيل : اللمم الذنب بين الحدّين وهو مالم يأت عليه حدّ فى الدنيا ، ولا تُوعِّد عليه بعذاب فى الآخرة تكفِّره الصلوات الخمس . قاله ابن زيد وعكرمة والضحاك وقتادة . ورواه العوفى والحكم بن عيينة عن آبن عباس . وقال الكلبى : اللّمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حدّا فى الدنيا ولا عذابا فى الآخرة ، فذلك الذى تكفّره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش ، والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلمّ به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه . وعن آبن عباس أيضا وأبى هريرة وزيد بن ثابت : هو ما سلف فى الجاهلية فلا يؤاخذهم به . وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين : إنما كنتم بالأمس تعملون معنا فنزلت . وقاله زيد بن أسلم و [آبنه](1) وهو كقوله تعالى : « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » . وقيل : اللّمم هو أن يأتى بذنب لم يكن له بعادة ، قاله نفطويه . قال : والعرب تقول ما يأتينا إلّا لِمَامًا ؛ أى فى الحين بعد الحين . قال : ولا يكون أن يلمّ ولا يفعل ، لأن العرب لا تقول ألمّ بنا إلا إذا فعل الإنسان لا إذا همّ ولم يفعله . وفى الصحاح : وألمّ الرجل من اللّمم وهو صغائر الذنوب ، ويقال : هو مقاربة المعصية من غير مواقعة . وأنشد غير الجوهرى :

بِزَيْنَبَ أَلْمِمْ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ الرَّكْبُ * وَقُلْ إِنْ تَمَلِّينَا فَمَا مَلَّكِ الْقَلْبُ

أى آقرب . وقال عطاء بن أبى رباح : اللّمم عادة النفس الحين بعد الحين . وقال سعيد آبن المسيّب : هو ما ألمّ على القلب ؛ أى خطر . وقال محمد بن الحنفية : كلّ ما هممت به من خير أو شر فهو لَمَم . ودليل هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام : "إن للشيطان لَمَّة وللملك لَمَّة" الحديث . وقد مضى فى « البقرة »(2) عند قوله تعالى : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ » . وقال أبو إسحق الزجاج : أصل اللّمم والإلمام ما يعمله الإنسان المرة بعد المرة ولا يتعمق فيه

(١) فى الأصل : وأبوه . وما أثبتناه يوافق ما فى تفسير أبى حيان والطبرى .
(٢) راجع جـ ٣ ص ٣٢٩ طبعة أولى أو ثانية .

ولا يقيم عليه ؛ يقال : ألممت به إذا زرته وآنصرفت عنه ، ويقال : مافعلته إلا لمّا وإلماما أي الحين بعد الحين وإنما زيارتك إلمام ، ومنه إلمام الخيال ؛ قال الأعشى :

أَلَمَّ خَيَالٌ مِن قُتَيْلَةَ بَعْدَ مَا * وَهَى حَبْلُهَا مِن حَبْلِنَا فَتَصَرَّمَا

وقيل : إلا بمعنى الواو وأنكر هذا الفراء . وقال : المعنى إلا المتقارب من صغار الذنوب . وقيل : اللّمم النظرة التي تكون فجأة .

قلت : هذا فيه بعدٌ إذ هو معفوّ عنه ٱبتداء غير مؤاخذ به ؛ لأنه يقع من غير قصد وٱختيار وقد مضى في « النور »(١) بيانه . واللَّمَمُ أيضا طرف من الجنون ورجل ملموم أي به لَمَمٌ . ويقال أيضا : أصابت فلانا لَمّةٌ من الجنّ وهي المسّ والشيء القليل؛ قال الشاعر(٢) :

فإذا وذَلِك يا كُبَيْشَةُ لَمْ يَكُنْ * إِلَّا كَلَمَّةِ حالِمٍ بِخَيَالِ

الثالثة — قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » لمن تاب من ذنبه وآستغفر؛ قاله ٱبن عباس . وقال أبو ميسرة عمرو بن شَرَحْبِيل وكان من أفاضل أصحاب ٱبن مسعود : رأيت في المنام كأني أدخلت الجنة فإذا قِباب مضروبة ، فقلت : لمن هذه ؟ فقالوا : لذي الكَلاع وحَوْشَب ، وكانا ممن قتل بعضهم بعضا ، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقالوا : إنهما لقيا الله فوجداه واسع المغفرة . فقال أبو خالد : بلغني أن ذا الكَلاع أعتق ٱثني عشر ألف بنت .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ من أنفسكم ﴿ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يعني أباكم آدم من الطين وخرج اللفظ على الجمع . قال الترمذيّ أبو عبد الله : وليس هو كذلك عندنا ، بل وقع الإنشاء على التربة التي رفعت من الأرض ، وكنا جميعا في تلك التربة وفي تلك الطينة ، ثم خرجت من الطينة المياه إلى الأصلاب مع ذَرْو النفوس على آختلاف هيئتها ، ثم آستخرجها من صُلْبها على آختلاف الهيئات ، منهم كالدرّ يتلألأ ، وبعضهم أنور من بعض ، وبعضهم أسود كالحُمَمَة ، وبعضهم أشدّ سوادا من بعض؛ فكان الإنشاء واقعا علينا وعليه . حدّثنا عيسى

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٢٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو ٱبن مقبل . والواو في وذلك زائدة كقول أبي كبير الهذلي :

فإذا وذلك ليس إلا حينه * وإذا مضى شيء كأن لم يفعل

آبن حماد العسقلانى قال : حدّثنا بِشر بن بكر ، قال حدّثنا الأوزاعى ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عُرِض علىّ الأوّلون والآخرون بين يدى حجرتى هذه الليلة " فقال قائل : يارسول الله ! ومن مضى من الخلق ؟ قال : " نعم عُرِض علىّ آدم فمن دونه فهل كان خُلِق أحد "[(1)] قالوا : ومَن فى أصلاب الرجال وبطون الأمهات ؟ قال : " نعم مثلوا فى الطين فعرفتهم كما علم آدم الاسماء كلها " .

قلت : وقد تقدّم فى أوّل « الأنعام »[(2)] أن كل إنسان يخلق من طين البقعة التى يدفن فيها . ﴿ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ ﴾ جمع جَنِين وهو الولد ما دام فى البطن ، سمى جنينا لاجتنانه وآستتاره . قال عمرو بن كُلْثوم :

* هِجانِ اللَّونِ لَمْ تَقْرأْ جَنِينًا[(3)] *

وقال مكحول : كنا أجنّة فى بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنّا فيمن بقى ، ثم صرنا رُضّعا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا يَفَعَة فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ثم صرنا شبابا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا شيوخا — لا أبالك — فما بعد هذا ننتظر؟! . وروى آبن لَهِيعة عن الحرث بن يزيد عن ثابت بن الحرث الأنصارى قال : كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبىّ صغير هو صِدِّيق ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : " كذبت يهود ما من نسمة يخلقها الله فى بطن أمه إلا أنه شقى أو سعيد " فأنزل الله تعالى عند ذلك هذه الآية : « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » إلى آخرها . ونحوه عن عائشة : "كان اليهود" . بمثله . ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ لا تمدحوها ولا تثنوا عليها ، فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى الخشوع . ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ أى أخلص العمل وآتقى عقوبة الله . عن الحسن وغيره . قال الحسن : قد علم الله سبحانه كل نفس ما هى عاملة ، وما هى صانعة ، وإلى ما هى صائرة . وقد مضى فى « النساء » الكلام فى معنى هذه الآية عند قوله

---

(1) فى نسخة : « فهل كان قبله أحد » . (2) راجع جـ ٦ ص ٣٨٨ طبعة أولى أو ثانية .

(3) وصدره : * ذراعى حرة أدماء بكر * وهى رواية أبى عبيدة . أى لم تضم فى رحمها ولدا قط .

تعـالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ »(١) فتأمله هناك . وقال ابن عباس : ما من أحد من هذه الأمة أزكيه غير رسول الله صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴾ لمـا بين جهل المشركين في عبادة الأصنام ذكر واحدا منهم معينا بسوء فعله . قال مجاهد وابن زيد ومقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتبع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على دينه فعيره بعض المشركين ، وقال : لِمَ تركتَ دينَ الأشياخ وضَلَّلتهم وزعمتَ أنهم في النار ؟ ! قال : إني خشيت عذاب الله ؛ فضمن له إن هو أعطاه شيئا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله ، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن [له](٢) ثم بخل ومنعه فأنزل الله تعالى هـذه الآية . وقال مقاتل : كان الوليد مدح القرآن ثم أمسك عنـه فنزل « وَأَعْطَى قَلِيلًا » أي من الخير بلسانه « وَأَكْدَى » أي قطع ذلك وأمسـك عنه . وعنه أنه أعطى رسول الله صلى الله عليه وسـلم عقد الإيمـان ثم تولى فنزلت « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى » الآية . وقال ابن عباس والسُّـدي والكلبي والمسيّب بن شريك : نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يتصـدّق وينفق في الخير ، فقال له أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سَرْح : ما هذا الذي تصنع ؟ يوشـك ألا يبقى لك شيء . فقـال عثمان : إن لي ذنوبا وخطايا ، وإني أطلب بمـا أصنع رضا الله تعـالى وأرجو عفوه ! فقال له عبد الله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها . فأعطاه وأشهد عليـه ، وأمسك عن بعض ما كان يصنع [من الصـدقة](٣) فأنزل الله تعـالى « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » فعاد عثمان إلى أحسن ذلك وأجمله . ذكر ذلك الواحدي والثعلبي . وقال السُّدي أيضا : نزلت في العاص بن وائل السَّهْمي ، وذلك أنه

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من أسباب النزول للواحدي .
(٣) الزيادة من أسباب النزول للواحدي .

كان ربما يوافق النبي صلى الله عليه وسلم . وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : نزلت في أبي جهل ابن هشام، قال : والله ما يأمر محمّد إلا بمكارم الأخلاق . فذلك قوله تعالى : « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » . وقال الضحاك : هو النَّضْر بن الحرث أعطى خمس قلائص لفقير من المهاجرين حين ارتد عن دينه، وضمن له أن يتحمل عنه مأثم رجوعه . وأصل « أَكْدَى » من الكُدْية يقال لمن حَفَر بئرا ثم بلغ إلى حجر لا يتهيأ له فيه حَفْر قد أَكْدَى ، ثم استعملته العرب لمن أعطى ولم يُتَمِّم ، ولمن طلب شيئا ولم يبلغ آخره . وقال الحُطَيْئة :

فأعطى قليـــلًا ثم أَكْدَى عطاءَه * ومن يَبْذُلِ المعروفَ في الناس يُحْمَد

قال الكسائيّ وغيره : أَكْدَى الحافرُ وأَجْبَل إذا بلغ في حَفْره كُدْية أو جبلا فلا يمكنه أن يحفر . وحَفَر فأَكْدَى إذا بلغ إلى الصُّلْب . ويقال : كَدِيت أصابعه إذا كَلَّتْ من الحَفْر . وكَدِيت يدُه إذا كَلَّتْ فلم تعمل شيئا . وأَكْدَى النَّبْتُ إذا قلّ رَيْعه، وكَدَتِ الأرض تكدُو كدوا فهي كَادِيَةٌ إذا أبطأ نباتها ؛ عن أبي زيد . وأَكْدَيْتُ الرجلَ عن الشيء رددته عنه . وأَكْدَى الرجلُ إذا قلّ خيره . وقوله : « وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى » أي قطع القليل .

قوله تعالى : ﴿ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ أي أعند هذا المكدي علمُ ما غاب عنه من أمر العذاب . « فَهُوَ يَرَى » أي يعلم ما غاب عنه من أمر الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمن حمل العذاب عن غيره ؛ وكفى بهـذا جهلا وحمقا . وهـذه الرؤية هي المتعدية إلى مفعولين والمفعولان محذوفان؛ كأنه قال : فهو يرى الغيبَ مثلَ الشهادة .

قوله تعالى : أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢)

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ ﴾ أى صحف ﴿ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ كما فى سورة « الأعلى » « صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ». أى لا تؤخذ نفس بدلا عن أخرى ؛ كما قال : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وخصّ صحف إبراهيم وموسى بالذكر؛ لأنه كان ما بين نوح وإبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة أخيه وابنه وأبيه؛ قاله الهذيل بن شرحبيل . «وأن» هذه المخففة من الثقيلة وموضعها جرّ بدلا من « ما » أو يكون فى موضع رفع على إضمار هو . وقرأ سعيد بن جبير وقتادة « وَفَى » خفيفة ومعناها صدق فى قوله وعمله ؛ وهى راجعة إلى معنى قراءة الجماعة «وَفَّى» بالتشديد أى قام بجميع مافرض عليه فلم يَخرِم منه شيئا . وقد مضى فى « البقرة »(١) عند قوله تعالى : « وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ » والتوفية الإتمام . وقال أبو بكر الورّاق : قام بشرط ما ادّعى؛ وذلك أن الله تعالى قال له : « أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » فطالبه الله بصحة دعواه ، فابتلاه فى ماله وولده ونفسه فوجده وافيا بذلك؛ فذلك قوله : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » أى ادّعى الإسلام ثم صحح دعواه . وقيل : وفّى عمله كل يوم بأربع ركعات فى صدر النهار . رواه الهيثم عن أبى أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى سهل بن سعد الساعدى عن أبيه "ألَا أخبركم لم سَمّى اللهُ تعالى خليلَه إبراهيمَ الذى وَفَّى لأنه كان يقول كلما أصبح وأمسى « فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ » " الآية . ورواه سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وَفَّى » أى وَفَّى ما أرسل به؛ وهو قوله : « أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » قال ابن عباس : كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الرجل بذنب غيره ، ويأخذون الولىّ بالولىّ فى القتل والجراحة ؛ فيقتل الرجل بأبيه وابنه وأخيه وعمه وخاله وابن عمه وقريبه وزوجته وزوجها وعبده ، فبلغهم إبراهيم عليه السلام عن الله تعالى : « أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » . وقال الحسن وقتادة وسعيد بن جبير فى قوله تعالى : « وَفَّى » عمل بما أمر به وبلّغ رسالات ربه . وهذا أحسن؛ لأنه عام . وكذا قال مجاهد : « وَفَّى » بما فرض عليه . وقال أبو مالك

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٩٧ فما بعدها طبعة ثانية .

الغفارىّ قوله تعالى : « أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » إلى قوله : « فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى » فى صحف إبراهيم وموسى، وقد مضى فى آخر « الأنعام »[1] القـول فى « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » مستوفى .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ روى عن ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » فيحصل الولد الطفل يوم القيامة فى ميزان أبيه، ويشفع الله تعالى الآباء فى الأبناء والأبناء فى الآباء؛ يدل على ذلك قوله تعـالى : « آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا » وقال أكثر أهل التأويل : إنها محكمة ولا ينفع أحدا عمـلُ أحدٍ ، وأجمعوا أنه لا يصـلى أحدٌ عن أحد . ولم يجز مالك الصيام والحج والصدقة عن الميت، إلا أنه قال : إن أوصى بالحج ومات جاز أن يحج عنـه . وأجاز الشافعى وغيره الحج التطوّع عن الميت . وروى عن عائشـة رضى الله عنها أنها آعتكفت عن أخيها عبـد الرحمن وأعتقت عنه . وروى أن سـعد بن عبادة قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم : إن أمّى توفيت أفأتصدق عنها ؟ قال : "نعـم" قال : فأى الصدقة أفضل ؟ قال : "سقى المـاء" . وقد مضى جميع هذا مستوفى فى « البقرة »[2] و « آل عمران »[3] و « الأعراف »[4] . وقيل : إن الله عز وجل إنمـا قال « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » ولام الخفض معناها فى العربية المِلْك والإيجاب فلم يجب للإنسان إلا ما سعى ، فإذا تصدّق عنه غيره فليس يجب له شىء إلا أن الله عز وجل يتفضّل عليه بما لا يجب له ، كما يتفضّل على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل . وقال الربيع بن أنس : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » يعنى الكافر وأما المؤمن فله ما سَعَى وما سَعَى له غيره .

قلت : وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره، وقد تقدّم كثير منهـا لمن تأملها، وليس فى الصدقة آختلاف ، كما فى صدر

(١) راجع جـ٧ ص١٥٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ٣ ص٤٢٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ٤ ص١٥١ فما بعدها . (٤) كذا فى الأصل ولم نعثر على هذا المعنى فى السورة المذكورة .

كتاب مسلم عن عبد الله بن المبارك . وفى الصحيح : " إذا مات الإنسان آنقطع عمله إلا من ثلاث " وفيـه " أو ولد صالح يدعو له " وهـذا كله تفضل من الله عز وجل، كما أن زيادة الأضعاف فضل منه ؛ كتب لهم بالحسنة الواحدة عشرا إلى سبعمائة ضعف إلى ألف ألف حسنة ؛ كما قيل لأبي هريرة : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألف ألف حسـنة " فقال سمعته يقول : " إن الله ليجزى على الحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة" فهذا تفضل وطريق العدل « أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » .

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » خاص فى السيئة ؛ بدليل ما فى صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله عز وجلّ إذا همّ عبدى بحسنـة ولم يعملها كتبتها له حسنـةً فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا همّ بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئةً واحدة" . وقال أبو بكر الوراق : « إِلَّا مَا سَعَى » إلا ما نوى؛ بيانه قوله صلى الله عليه وسلم : " يُبعث الناسُ يوم القيامة على نياتهم " .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ أى يريه الله تعالى جزاءه يوم القيامة ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ أى يجزى به ﴿ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ . قال الأخفش : يقال جزيته الجزاء وجزيته بالجزاء سواء لا فرق بينهما؛ قال الشاعر :

إِنْ أَجْزِ عَلْقَمَةَ بْنَ سَعْدٍ سَعْيَهُ * لم أَجْـزِهِ بِبَلاءِ يَـوْمٍ واحِـدِ

فجمع بين اللغتين .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ أى المرجع والمردّ والمصير فيعاقب ويثيب . وقيل : منه آبتداء المنّة وإليه آنتهاء الأمان . وعن أبيّ بن كعب قال قال النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى » قال : " لافكرة فى الربّ " . وعن أنس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا ذكر الله تعالى فانتهوا " .

قالت : ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : " يأتى الشيطانُ أحدكم فيقول مَن خلَق كذا وكذا حتى يقول له من خلَق ربَّك فإذا بلغ ذلك فليستعذْ بالله ولْينْته " وقد تقدّم فى آخر « الأعراف » (١) . ولقد أحسن من قال .

ولا تُفكِرَنْ (٢) فى ذى العُلا عزّ وجهُهُ * فإنّك تُرْدَى إنْ فعلتَ وتُخذَلُ
ودونك مصنوعاته فاعتبرْ بها * وقُلْ مثلَ ما قال الخليلُ المبجَّلُ

قوله تعالى : وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦)

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ ذهبت الوسائط وبقيت الحقائق لله سبحانه وتعالى فلا فاعل إلا هو ؛ وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : لا والله ما قال رسول الله قطُّ إنّ الميّت يعذَّب ببكاء أحدٍ ولكنّه قال : " إنّ الكافرَ يزيدُه الله ببكاء أهله عذابا وإنّ الله لهُوَ أَضْحَكَ وأَبْكَى وما تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أخرى " . وعنها قالت : مَرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على قوم من أصحابه وهم يضحكون ، فقال : " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا " فنزل عليه جبريل فقال : يا محمد ! إن الله يقول لك : «وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى» . فرجع إليهم فقال : " ما خطوت أربعين خطوة حتى أتانى جبريل فقال ٱيت هؤلاء فقل لهم إن الله تعالى يقول «هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى» أى قضى أسباب الضحك والبكاء . وقال عطاء بن أبى مسلم : يعنى أفرح وأحزن ؛ لأن الفرح يجلب الضحك والحزن يجلب البكاء . وقيل لعمر : هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحكون؟ قال : نعم ! والإيمان والله أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى . وقد تقدّم هذا المعنى فى « النمل » (٣) و « براءة » (٤) . قال الحسن :

(١) راجع ج ٧ ص ٣٤٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) من أفكر لغة فى فكر بالتضعيف .
(٣) راجع ج ١٣ ص ١٧٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٤) راجع ج ٨ ص ٢١٧ طبعة أولى أو ثانية .

أضحك الله أهل الجنة فى الجنة وأبكى أهـل النار فى النار . وقيل : أضحك من شاء فى الدنيا بأن سَرّه وأبكى من شاء بأن غَمّه . الضحاك : أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر . وقيـل : أضحك الأشجار بالنُّوّار، وأبكى السّحاب بالأمطار . وقال ذو النون : أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته . وقال سهل بن عبـد الله : أضحك الله المطيعين بالرحمـة وأبكى العاصين بالسخط . وقال محمد ابن على الترمذى : أضحك المؤمن فى الآخرة وأبكاه فى الدنيـا . وقال بسام بن عبـد الله : أضحك الله أسنانهم وأبكى قلوبهم . وأنشد :

السِّنُّ تَضحَكُ والأحشاءُ تَحْتَرِقُ * وإنمـا ضِحْكُها زُورٌ ومُخْتَلَقُ
يا رُبَّ باكٍ بِعينٍ لا دموعَ لهـا * ورُبَّ ضاحِكِ سِنٍّ ما بِهِ رَمَـقُ

وقيل : إن الله تعالى خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان وليس فى سائر الحيوان من يضحـك ويبكى غير الإنسان . وقد قيل : إن القرد وحده يضحك ولا يبكى ، وأن الإبل وحدها تبكى ولا تضحك . وقال يوسف بن الحسين : سئل طاهر المقدسى أتضحك الملائكة؟ فقال : ما ضحكوا ولا كلّ من دون العرش منـذ خلقت جهنم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أى قضى أسباب الموت والحياة . وقيل : خلق الموت والحياة كما قال : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ » قاله آبن بحر . وقيل : أمات الكافر بالكفر وأحيا المؤمن بالإيمان . قال الله تعـالى : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ » الآية . وقال : « إِنَّمَـا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ » على ما تقـدّم (١) ، وإليه يرجع قول عطاء : أمات بعدله وأحيا بفضله . وقول من قال : أمات بالمنع والبخل وأحيا بالجود والبذل . وقيل : أمات النطفة وأحيـا النسمة . وقيـل : أمات الآباء وأحيا الأبنـاء . وقيل : يريد بالحيـاة الخصب وبالموت الجدب . وقيـل : أنام وأيقظ . وقيل : أمات فى الدنيا وأحيا للبعث . ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ أى من أولاد آدم ولم يرد آدم وحوّاء بأنهما خلقا من نُطْفة .

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٨ طبعة أولى أو ثانية .

والنّطفة الماء القليل مشتق من نَطَف الماءُ إذا قطر . ﴿ تُمْنَى ﴾ تصبّ في الرحم وتراق ؛ قاله الكلبي والضحاك وعطاء بن أبي رباح . يقال : مَنَى الرجل وأَمْنَى من المَنِيّ وسميت مِنًى بهذا الاسم لما يُمْنَى فيها من الدماء أي يُراق . وقيل : « تُمْنَى » تُقدَّر ؛ قاله أبو عبيدة . يقال : مَنَيت الشيءَ إذا قدّرته ومُنِي له أي قُدِّر له ؛ قال الشاعر (١) :

* حَتَّى تُلَاقِيَ ما يَمْنِي لَكَ المَانِي *

أي ما يقدر لك القادر .

قوله تعالى : وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى ﴾ أي إعادة الأرواح في الأشباح للبعث . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « النَّشَاءَةَ » بفتح الشين والمدّ ؛ أي وعد ذلك ووعده صدق . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ قال ابن زيد : أغنى من شاء وأفقر من شاء ؛ ثم قرأ « يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ (٢) » وقرأ « يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ (٣) » واختاره الطبري . وعن ابن زيد أيضا ومجاهد وقتادة والحسن : « أَغْنَى » موّل « وَأَقْنَى » أخدم . وقيل : « أَقْنَى » جعل

(١) قائله أبو قلابة الهذلي . وصدره : * ولا تقولن لشيء سوف أفعله * وقيل هو لسويد بن عامر المصطلق . وقبله :

لا تأمن الموت في حل وفي حرم * إن المنايا توافى كل إنسان
واسلك طريقك فيها غير محتشم * حتى الخ ... ...

(٢) راجع جـ ١٤ ص ٣٠٧ (٣) سورة البقرة آية ٢٤٥

لكم قِنْيَـة تقتنونها وهو معنى أخدم أيضا . وقيـل : معناه أرضى بمـا أعطى أى أغنـاه ثم رضّاه بما أعطاه . قاله آبن عباس . وقال الجوهرى : قَنِيَ الرجل يقْنَى قِنًى مثل غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، وأقناه الله أى أعطاه الله ما يُقتَنى من القِنْية والنَّشَب . وأقناه [الله] أيضا أى رضّاه . والقِنَى الرِّضا، عن أبى زيد؛ قال وتقول العرب : من أُعطِى مائةً من المعز فقد أُعطِى القِنَى، ومن أُعطِى مائةً من الضأن فقد أُعطِى الغِنَى ، ومن أُعطِى مائة من الإبل فقد أُعطِى المُنَى . ويقال : أغناه الله وأقناه أى أعطاه ما يَسكن إليه . وقيل : « أَغْنَى وَأَقْنَى » أى أغنى نفسه وأفقر خلقه إليه ؛ قاله سليمان التيمى . وقال سفيان : أغنى بالقناعة وأقـنى بالرِّضا . وقال الأخفش : أقنى أفقر . قال آبن كيسان : أولد . وهذا راجع لمـا تقدّم . ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ « الشِّعْرى » الكوكب المضىء الذى يطلع بعد الجوزاء، وطلوعه فى شـدّة الحرّ ، وهما الشِّعريان العَبُور التى فى الجوزاء والشِّعرى الغُمَيْصَاءُ التى فى الذِّراع؛ وتزعم العرب أنهما أختا سُهَيْل . وإنما ذكر أنه رَبُّ الشِّعْرى وإن كان ربّا لغـيره ؛ لأن العرب كانت تعبده ؛ فأعلمهم الله جل وعزّ أنّ الشِّعرى مربوب وليس بربّ . وآختلف فيمن كان يعبده ؛ فقال السـدى : كانت تعبده حِمْـير وخُزَاعة . وقال غيره : أول من عبده أبو كبشة أحد أجداد النبى صلى الله عليه وسـلم من قبل أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يُسمون النبى صلى الله عليه وسـلم آبن أبى كبشة حين دعا إلى الله وخالف أديانهـم ؛ وقالوا : ما لقينـا من آبن أبى كبشة ! وقال أبو سفيان يوم الفتح وقـد وقف فى بعض المضايق وعسا كر رسول الله صلى الله عليه وسـلم تمرّ عليه : لقد أَمِرَ أَمْرُ آبنِ أبى كبشة . وقد كان من لا يعبد الشِّعْرى من العرب يعظّمها و يعتقد تأثيرها فى العالم ، قال الشاعر :

مَضَى أَيْلُولُ وآرتفـعَ الحَـرُورُ ✻ وأَخْبَتْ نارَها الشِّعرى العَبُـورُ

وقيـل إن العرب تقول فى خرافاتها : إن سُهَيْلا والشِّعرى كانا زوجين ، فآنحـدر سُهَيْل فصار يمانيـا ، فآتبعته الشِّعرى العَبُور فعبرت المجرّة فسميت العَبُـور ، وأقامت الغُمَيْصَاءُ فبكت

لفقد سُهَيل حتى غَمِصت عيناها فسمِّيت غُمَيْصاء لأنها أخفى من الأخرى . ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴾ سماها الأولى لأنهم كانوا من قبل ثمود ، وقيل : إن ثمود من قبل عاد ، وقال آبن زيد : قيل لها عاد الأولى لأنها أول أمة أهلكت بعد نوح عليه السلام . وقال آبن إسحق : هما عادان فالأولى أهلكت بالريح الصّرصر ، ثم كانت الأخرى فأهلكت بالصيحة وقيل : عاد الأولى هو عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح ، وعاد الثانية من ولد عاد الأولى والمعنى متقارب ، وقيل : إن عادا الآخرة الجبارون وهم قوم هود . وقراءة العامة « عَاداً الْأُولَى » ببيان التنوين والهمز . وقرأ نافع وآبن مُحيصن وأبو عمرو « عَادًا الُّولَى » بنقل حركة الهمزة إلى اللام وإدغام التنوين فيها ، إلا أنّ قالون والمسيّبي(١) يظهران الهمزة الساكنة . وقلبها الباقون واوا على أصلها ؛ والعرب تقلب هذا القلب فتقول قُمِ الآن عنّا وضُمّ لِثْنَين أى قم الآن وضم الآثنين ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ ثمود هم قوم صالح أهلكوا بالصيحة . وقرئ « ثَمُوداً » « وثَمُودَ » وقد تقدم(٢) . وآنتصب على العطف على عاد . ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ وذلك لطول مدّة نوح فيهم ، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد آبنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول : آحذر هذا فإنه كذّاب ، وإن أبي قد مشى بي إلى هذا وقال لي مثل ما قلت لك ؛ فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه . وقيل : إن الكناية ترجع إلى كلّ من ذكر من عاد وثمود وقوم نوح ؛ أى كانوا أكفر من مشركي العرب وأطغى . فيكون فيه تسلية وتعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكأنه يقول له : فآصبر أنت أيضا فالعاقبة الحميدة لك . ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ يعني مدائن قوم لوط عليه السلام آئتفكت بهم ، أى آنقلبت وصار عاليها سافلها . يقال : أفكته أى قلبته وصرفته . « أَهْوَى » أى خسف بهم بعد رفعها إلى السماء ؛ رفعها جبريل ثم أهوى بها إلى الأرض . وقال المبرّد : جعلها تَهوِي . ويقال : هَوَى بالفتح يَهْوِي هوياً أى سقط

(١) في بعض نسخ الأصل « السوسي » .

(٢) راجع ج ٧ ص ٢٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

و« أَهْوَى » أى أسقط . ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ أى ألبسها ما ألبسها من الحجارة ؛ قال الله تعالى : « فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ » . وقيل: إن الكناية ترجع إلى جميع هذه الأمم ، أى غَشّاها من العذاب ما غشّاهم ، وأبهم لأن كلا منهم أُهلك بضرب غير ما أُهلك به الآخر . وقيل : هذا تعظيم الأمر . ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ أى فبأى نِعَم ربّك تشكّ . والمخاطبة للإنسان المكذب . والآلاء النعم واحدها أَلًى وإِلًى وإِلْيٌ . وقرأ يعقوب « تَّمَارَى » بإدغام إحدى التاءين فى الأخرى والتشديد .

قوله تعالى : هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴾ قال ابن جُرَيج ومحمد بن كعب : يريد أن محمدا صلى الله عليه وسلم نذير بالحق الذى أنذر به الأنبياء قبله ، فإن أطعتموه أفلحتم ، وإلا حلّ بكم ما حلّ بمكذّبى الرسل السالفة . وقال قتادة : يريد القرآن وأنه نذير بما أنذرت به الكتب الأولى . وقيل : أى هذا الذى أخبرنا به من أخبار الأمم الماضية الذين هلكوا تخويف لهذه الأمة من أن ينزل بهم ما نزل بأولئك من النذر أى مثل النذر ؛ والنذر فى قول العرب بمعنى الإنذار كالنُّكُر بمعنى الإنكار ؛ أى هذا إنذار لكم . وقال أبو مالك : هذا الذى أنذرتكم به من وقائع الأمم الخالية هو فى صحف إبراهيم وموسى . وقال السدى أخبرنى أبو صالح قال : هذه الحروف التى ذكر الله تعالى من قوله تعالى : « أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ » إلى قوله : « هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى » كل هذه فى صحف إبراهيم وموسى .

قوله تعـالى : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ أى قربت الساعة ودنت القيامة . وسماها آزفة لقرب قيامها عنده كما قال : « يَرَوْنَهُ بَعِيـدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا » . وقيل : سماها آزفة لدنوّها من الناس وقربها منهم ليستعدّوا لها؛ لأن كل ما هو آت قريب . قال :

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غيرَ أنّ رِكابَنا * لمّـا تَزُلْ بِرِحالنا وكأَنْ قَـدِ

وفى الصحاح : أَزِف الترحل يَأْزَف أَزَفا أى دنا و أَفِد ؛ ومنه قوله تعـالى : « أَزِفَتِ الآزِفَةُ » يعنى القيامة ، وأزِف الرجل أى عَجِـل فهو آزِف على فاعل ، والمتآزِف القصير وهو المتدانى . قال أبو زيد: قلت لأعرابى ما المُحْبَنْطِئُ ؟ قال: المتَكَأْكِئُ؟ قلت: ما المتكأكئ ؟ قال: المتآزِف . قلت: ما المتآزف؟ قال : أنت أحمق وتركنى ومرّ . ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ كَاشِفَةٌ ﴾ أى ليس لها من دون الله من يؤخرها أو يقدّمها . وقيل : كاشفة أى انكشاف أى لا يكشف عنها ولا يبديها إلا الله؛ فالكاشفة اسم بمعنى المصدر والهاء فيه كالهاء فى العاقبة والعافية والداهية والباقية ؛ كقولهم : ما لفلان من باقية أى من بقاء . وقيل : أى لا أحد يردّ ذلك ؛ أى إن القيامة إذا قامت لا يكشفها أحد من آلهتهم ولا ينجيهم غير الله تعـالى . وقد سميت القيامة غاشية، فإذا كانت غاشية كان ردّها كشفا، فالكاشفة على هذا نعت مؤنث محذوف؛ أى نفس كاشفة أو فرقة كاشفة أو حال كاشفة . وقيل : إن كاشفة بمعنى كاشف والهاء للمبالغة مثل راوية وداهية .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن . وهذا استفهام توبيخ ﴿ تَعْجَبُونَ ﴾ تكذيبا به ﴿ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاء ﴿ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ انزجارا وخوفا من الوعيد . وروى أنّ النبي صـلى الله عليه وسلم ما رؤى بعد نزول هـذه الآية ضاحكا إلا تبسما . وقال أبو هريرة : لمـا نزلت « أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ » قال أهل الصفة « إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُـونَ » ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلمـا سمع النبي صلى الله عليـه وسلم بكاءهم بكى معهم فبكينا لبكائه؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا يلج النارَ مَن بكى من

خشية الله ولا يدخل الجنة مُصِرّ على معصـية الله ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقـوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم إنه هو الغفور الرحيم " . وقال أبو حازم : نزل جبريل على النبي صـلى الله عليه وسـلم وعنده رجل يبكي ، فقال له : من هـذا ؟ قال : هـذا فلان ؛ فقال جبريل : إنا نزن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء ، فإن الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحورا من جهنم .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ﴾ أي لاهون معرضون . عن ابن عباس ؛ رواه الوالبيّ والعوفيّ عنه . وقال عكرمة عنه : هو الغناء بلغة حمير ؛ يقال : سمِّد لنا أي غنِّ لنا ، فكانوا إذا سمعـوا القرآن يتلى تغنوا ولعبـوا حتى لا يسمعوا . وقال الضحاك : سامدون شامخـون متكبرون . وفي الصحاح : سَمَدَ سُمُودا رفع رأسه تكبرا وكل رافع رأسه فهو سامد ؛ قال (١) :

* سَوَامِدُ اللَّيْلِ خِفَافُ الأَزْوَادْ *

يقول : ليس في بطونها علف . وقال ابن الأعرابي : سَمَدت سُمُودا علوت . وسَمَدَت الإبلُ في سيرها جدّت . والسُّمُود اللهو ، والسّامد اللاهي ؛ يقـال للقَيْنة : أَسْمِدينا ؛ أي ألهينا بالغناء . وتسميد الأرض أن يجعل فيهـا السَّماد وهو سِرْجين ورَماد . وتسميد الرأس استئصال شعره لغة في التَّسْبِيد . واسْمَأَدَّ الرجلُ بالهمز اسْمِئْدادا أي وَرِم غضبا . وروى عن علي رضي الله عنه أن معـنى « سَامِدُونَ » أن يجلسـوا غير مصلّين ولا منتظرين الصـلاة . وقال الحسن : واقفون للصلاة قبـل وقوف الإمام ؛ ومنه ما روى عن النبي صلى الله عليـه وسـلم أنه خرج والناس ينتظرونه قياما فقال : " مالي أراكم سامدين " حكاه المـاوردي . وذكره المهـدوي عن عليّ ، وأنه خرج إلى الصلاة فرأى الناس قياما [ينتظرونه] فقال : " مالكم سامدون " قاله المهدوي . والمعروف في اللغة سَمَد يَسْمُد سُمُودا إذا لهَا وأعرض . وقال المبرّد : سامدون خامدون ؛ قال الشاعر :

أَتَى الحِدْثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ * بِمَقْـدورٍ سَمَـدْنَ له سُمُـودَا

(١) قائله رؤبة بن العجاج يصف إبلا .

وقال صالح أبو الخليل: لما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم «أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ . وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ » لم ير ضاحكا إلا مبتسما حتى مات صلى الله عليه وسلم . ذكره النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ قيل : المراد به سجود تلاوة القرآن ، وهو قول ابن مسعود ، وبه قال أبو حنيفة والشافعي . وقد تقدّم أوّل السورة من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد فيها وسجد معه المشركون . وقيل : إنما سجد معه المشركون لأنهم سمعوا أصوات الشياطين في أثناء قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قوله : « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ » وأنه قال : تلك الغرانيق العلا وشفاعتهن تُرتجَى . كذا في رواية سعيد بن جبير تُرتجَى . وفي رواية أبي العالية وشفاعتهنّ تُرتضَى ، ومثلهنّ لا يُنسَى . ففرح المشركون وظنّوا أنه من قول محمد صلى الله عليه وسلم على ماتقدّم بيانه في « الحج »[1] . فلما بلغ الخبر بالحبشة من كان بها من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رجعوا ظنّا منهم أنّ أهل مكة آمنوا ؛ فكان أهل مكة أشدّ عليهم وأخذوا في تعذيبهم إلى أن كشف الله عنهم . وقيل : المراد سجود الفرد في الصلاة وهو قول ابن عمر ؛ كان لا يراها من عزائم السجود ، وبه قال مالك . وروى أُبيّ بن كعب رضي الله عنه : كان آخر فعل النبي صلى الله عليه وسلم ترك السجود في المفصّل . والأوّل أصح وقد مضى القول فيه آخر « الأعراف »[2] مبينا والحمد لله رب العالمين . تم تفسير سورة « النجم » .

---

(١) هذه الأخبار من المفتريات على المعصوم سيد الخلق عليه الصلاة والسلام ، ولا يمكن أن ينطق بما هو نقيض القرآن ، ولا يمكن أن ينطق على لسانه الشيطان . وكل ما كان من هذا المعنى فهو باطل وضعته الملاحدة للدخول به إلى الطعن في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو في الوحي أو في القرآن وهو الذي لا ينطق عن الهوى . راجع ما كتبه المصنف عن هذا الحديث في جـ ١٢ ص ٨٠ وما بعدها .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ســورة القمــر

مكية كلها فى قول الجمهـور . وقال مقـاتل : إلا ثلاث آيات من قوله تعـالى : « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ» إلى قوله : «وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» ولا يصح على ما يأتى . وهى خمس وخمسون آية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ السَّـاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ « ٱقْتَرَبَتْ » أى قربت مثـل « أَزِفَتِ الْآزِفَةُ » على ما بيناه فهى بالإضافة إلى ما مضى قريبة ؛ لأنه قد مضى أكثر الدنيا كما روى قتادة عن أنس قال : خطب رسـول الله صلى الله عليه وسلم وقد كادت الشمس تغيب فقال : "ما بقى من دنياكم فيما مضى إلا مثل ما بقى من هذا اليوم فيما مضى" وما نرى من الشمس إلا يسيرا . وقال كعب ووهب : الدنيا ستة آلاف سنة . قال وهب : قد مضى منها خمسة آلاف سنة وستمائة سنة . ذكره النحاس .

ثم قال تعـالى : « وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ » أى وقد آنشق القمر . وكذا قرأ حُذَيفة « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَقَدْ ٱنْشَقَّ الْقَمَرُ » بزيادة «قد» وعلى هذا الجمهور من العلماء؛ ثبت ذلك فى الصحيح

للبخارى وغيره من حديث ٱبن مسعود وٱبن عمر وأنس وجُبَير بن مُطْعِم وٱبن عباس رضى الله عنهم . وعن أنس قال : سأل أهلُ مكة النبيَّ صلى الله عليه وسلم آية ، فٱنشق القمر بمكة مرتين فنزلت «ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ» إلى قوله «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» يقول ذاهب . قال أبو عيسى الترمذىّ : هذا حديث حسن صحيح . ولفظ البخارىّ عن أنس قال : ٱنشق القمر فرقتين . وقال قوم : لم يقع ٱنشقاق القمر بعدُ وهو منتظر؛ أى ٱقترب قيام الساعة وٱنشقاق القمر، وأن الساعة إذا قامت ٱنشقت السماء بما فيها من القمر وغيره . وكذا قال القشيرى . وذكر الماوردىّ : أن هذا قول الجمهور، وقال : لأنه إذا ٱنشق ما بقى أحد إلا رآه؛ لأنه آية والناس فى الآيات سواء . وقال الحسن : ٱقتربت الساعة فإذا جاءت ٱنشق القمر بعد النفخة الثانية . وقيل : «وَٱنْشَقَّ الْقَمَرُ» أى وضح الأمر وظهر؛ والعرب تضرب بالقمر مثلا فيما وَضَح ؛ قال :

أقيمُوا بَنِي أُمّى صُدُورَ مَطِيِّكُمْ * فإنّى إلى حَىّ سواكم لَأَمْيَلُ
فقد حُمّتِ الحاجاتُ واللّيلُ مُقْمِرٌ * وشُدّتْ لِطيّاتٍ مَطَايا وأَرْحُلُ

وقيل : ٱنشقاق القمر هو ٱنشقاق الظلمة عنه بطلوعه فى أثنائها، كما يسمى الصبح فلقا؛ لٱنفلاق الظلمة عنه . وقد يعبر عن ٱنفلاقه بٱنشقاقه كما قال النابغة :

فلمّا أَدْبَرُوا ولَهُمْ دَوِىٌّ * دعانا عِندَ شَقِّ الصُّبحِ داعِ

قلت : قد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر ٱنشق بمكة ، وهو ظاهر التنزيل ، ولا يلزم أن يستوى الناس فيها؛ لأنها كانت آية ليلية؛ وأنها كانت باستدعاء النبىّ صلى الله عليه وسلم من الله تعالى عند التَّحدّى . فروى أنّ حمزة بن عبد المطلب حين أسلم غضبا من سبّ أبى جهل الرسول صلى الله عليه وسلم طلب أن يريه آية يزداد بها يقينا فى إيمانه . وقد تقدّم فى الصحيح أن أهل مكة هم الذين سألوا وطلبوا أن يريهم آية ، فأراهم ٱنشقاق القمر فلقتين كما فى حديث ٱبن مسعود وغيره . وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد ٱقتربت ، وأن القمر قد ٱنشق على عهد نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد قيل . هو على

التقديم والتأخير، وتقديره : آنشق القمر وآقتربت الساعة ؛ قاله آبن كيسان . وقد مرّ عن الفـرّاء أن الفعلـين إذا كانا متقاربى المعنى فلك أن تقدّم وتؤخر عنـد قوله تعـالى : « ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى » .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ﴾ هذا يدل على أنهـم رأوا آنشقاق القمر . قال آبن عباس : آجتمع المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا : إن كنت صادقا فآشقق لنـا القمر فرقتين، نصف على أبى قُبَيس ونصف على قُعَيْقِعَان؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فعلتُ تؤمنون " قالوا : نعم! وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما قالوا فآنشق القمر فرقتين، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى المشركين : " يافلان يافلان آشهدوا " . وفى حديث آبن مسعود : آنشقّ القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت قريش : هذا من سحر ابن أبى كبشة ؛ سَحَرَكم فآسئلوا السُّفّار . فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر آنشقّ فنزلت : « آقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَآنْشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا » أى إن يروا آية تدل على صدق محمد صلى الله عليـه وسلم أعرضوا عن الإيمـان ﴿ وَيَقُولُوا سِحْـرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ أى ذاهب ؛ من قولهم : مَرَّ الشيءُ وآستمر إذا ذهب ؛ قاله أنس وقتـادة ومجاهد والفرّاء والكسائى وأبو عبيدة ، وآختاره النحاس . وقال أبو العالية والضحاك : محكَم قوىّ شديد، وهو من المِرَّة وهى القوّة؛ كما قال لَقِيط :

حتّى آستمرّتْ على شَزْرٍ مَرِيرَتُهُ * مُرُّ العَزِيمة لا [قَحْماً](1) ولا ضَرَعَا

وقال الأخفش : هو مأخوذ من إمرار الحبل وهو شـدّة فتله . وقيل : معناه مُرٌّ من المرارة . يقال : أَمَرَّ الشيء صار مُرًّا وكذلك مَرَّ الشيءُ [يَمَرُّ] بالفتح مرارة فهو مُرٌّ وأَمَرَّه غيره ومَرَّره . وقال الربيع : مستمر نافذ . يمان : ماضٍ . أبو عبيدة : باطل . وقيل : دائم . قال :

* وليس على شيءٍ قَـوِيم بمُسْتَمِرْ(2) *

---

(١) راجع هامش ص ٨٦ من هذا الجزء فى شرح البيت .

(٢) البيت لآمرئ القيس وصدره : ألا إنما الدنيا ليال وأعصر .

أى بدائم . وقيل : يشبه بعضه بعضا ؛ أى قد آستمرت أفعال محمد على هذا الوجه فلا يأتى بشيء له حقيقة بل الجميع تخييلات . وقيل : معناه قد مرّ من الأرض إلى السماء . ﴿ وَكَذَّبُوا ﴾ نبيّنا ﴿ وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى ضلالاتهم وآختياراتهم . ﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ﴾ أى يستقرّ بكل عامل عمله ، فالخير مستقرّ بأهله فى الجنة ، والشر مستقرّ بأهله فى النار .

وقرأ شيبة « مُسْتَقَرٌّ » بفتح القاف أى لكل شيء وقت يقع فيــه من غير تقدّم وتأخر . وقد روى عن أبى جعفر بن القَعْقاع « وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍّ » بكسر القاف والراء جعله نعتا لأمر و « كُلٌّ » على هــذا يجوز أن يرتفع بالآبتداء والخبر محذوف ، كأنه قال : وكل أمر مستقر فى أمّ الكتاب كائن . ويجـوز أن يرتفع بالعطف على الســاعة ؛ المعنى : آقتربت الســاعة وكل أمرٍ مســتقرٍ ، أى آقترب آســتقرار الأمور يوم القيــامة . ومن رفعه جعله خبرا عن « كلّ » .

قوله تعــالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ ﴾ أى من بعض الأنباء ، فذكر سبحانه من ذلك ما علم أنهم يحتاجون إليه ، وأن لهم فيه شفاء . وقد كان هناك أمور أكثر من ذلك ، وإنمــا آقتصّ علينا ما علم أن بنا إليه حاجة وسكت عما سوى ذلك ؛ وذلك قوله تعــالى : « وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَــاءِ » أى جاء هؤلاء الكفّار مــن أنباء الأمم الخالية ﴿ مَا فِيــهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أى مايزجرهم عن الكفر لو قبلوه . وأصله مُزْتَجَر فقلبت التاء دالا ؛ لأن التاء حرف مهموس والزاى حرف مجهور ، فأبدل مــن التاء دالا توافقها فى المخــرج وتوافق الزاى فى الجهــر . و « مُزْدَجَر » من الزّجر وهو الآنتهاء ، يقال : زجره وآزدجره فآنزجر وآزدجر ، وزجرته أنا فآنزجر أى كففته فكفّ ، كما قال :

فأصــبحَ ما يطلبُ الغانيــا ... ت مُزْدَجَرا عن هواه آزدجارا

وقرئ « مُزَّجَرٌ » بقلب تاء الآفتعال زايا وإدغام الزاى فيها . حكاه الزمخشرى .

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ﴾ يعنى القــرآن وهو بدل من « ما » من قــوله : « مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ » . ويجــوز أن يكون خبر آبتــداء محــذوف أى هــو حكمة . ﴿ فَمَا تُغْنِ النُّــذُرُ ﴾

إذا كذّبوا وخالفوا كما قال الله تعالى : « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » فـ« ما » نفى أى ليست تغنى عنهم النذر . ويجوز أن يكون استفهاما بمعنى التوبيخ؛ أى فأىّ شىء تغنى النذر عنهم وهم معرضون عنها . و « النُّذُرُ » يجوز أن تكون بمعنى الإنذار، ويجوز أن تكون جمع نذير .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم . قيل : هـذا منسوخ بآية السيف . وقيل : هو تمام الكلام . ثم قال : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ العامل فى « يَوْمَ » « يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ » أو « خُشَّعًا » أو فعل مضمر تقديره واذكر يوم . وقيل : على حذف حرف الفاء وما عملت فيه من جواب الأمر، تقديره : فتول عنهم فإن لهـم يوم يدعو الداعى . وقيل : تَوَلَّ عنهم يا محمد فقـد أقمت الحجة وأبصرهم يوم يدعو الداعى . وقيل : أى أعرض عنهم يوم القيامة ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، فإنهم يدعون ﴿ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴾ وينالهم عذاب شديد . وهو كما تقول : لا تسأل عما جرى على فلان إذا أخبرته بأمر عظيم . وقيل : أى وكلّ أمر مسـتقر يوم يدعو الداعى . وقرأ ابن كثير « نُكْرٍ » بإسـكان الكاف، وضمها الباقون وهما لغتان كَعُسْر وعُسُر وشُغْل وشُغُل، ومعناه الأمر الفظيع العظيم وهو يوم القيامة . والداعى هو إسرافيل عليه السلام . وقد روى عن مجاهد وقتادة أنهما قرآ « إِلَى شَيْءٍ نُكِرَ » بكسر الكاف وفتح الراء على الفعل المجهول . ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ الخشوع فى البصر الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار لأن أثر العزّ والذلّ يتبين فى ناظر الإنسان؛ قال الله تعالى : « أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ » وقال تعالى : « خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ » . ويقال : خَشَع واختَشَع إذا ذَلّ . وخَشَع ببصره أى غضّه . وقرأ حمزة والكسائىّ وأبو عمرو « خَاشِعًا » بالألف ويجوز فى أسماء الفاعلين إذا تقدّمت على الجماعة التوحيد، نحو : « خَاشِعًا أَبْصَارُهُمْ » والتأنيث نحو : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ » ويجوز الجمع نحو : « خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ » قال[(١)] :

وَشَبَابٍ حَسَنٍ أَوْجُهُهُـمْ ✱ مِنْ إِيَادِ بْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَـدْ

---

(١) هو الحرث بن دوس الإيادى ؛ وتروى لأبى دؤاد الإيادى .

و « خُشَّعًا » جمع خاشع والنصب فيه على الحال من الهاء والميم فى « عنهم » فيقبح الوقف على هذا التقدير على « عنهم » . ويجوز أن يكون حالا من المضمر فى « يَخْرُجُونَ » فيوقف على « عَنْهُمْ » . وقرئ « خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ » على الابتداء والخبر ومحل الجملة النصب على الحال، كقوله :

* [وجدته](١) حَاضِرَاه الجودُ والْكَرَمُ *

﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ ﴾ أى القبور واحدها جَدَث . ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ . مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ . وقال فى موضع آخر : « يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ » فهما صفتان فى وقتين مختلفين؛ أحدهما — عند الخروج من القبور يخرجون فزعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم فى بعض ، فهم حينئذ كالفراش المبثوث بعضه فى بعض لا جهة له يقصدها [الثانى](٢) — فإذا سمعوا المنادى قصدوه فصاروا كالجراد المنتشر ؛ لأن الجراد له جهة يقصدها . و « مُهْطِعِين » معناه مسرعين ؛ قاله أبو عبيدة . ومنه قول الشاعر :

بِدِجْلَةَ دارُهمْ ولقد أراهم * بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السَّماعِ

الضحاك : مقبلين . قتادة : عامدين . ابن عباس : ناظرين . عكرمة : فاتحين آذانهم إلى الصوت . والمعنى متقارب . يقال : هَطَع الرجلُ يَهْطَع هُطُوعا إذا أقبل على الشيء ببصره لا يقلع عنه ؛ وأهطع إذا مدّ عنقه وصَوَّب رأسه . قال الشاعر(٣) :

تَعَبَّدَنِي نِمْرُ بْنُ سَعْدٍ وقد أُرَى * ونِمْرُ بْنُ سَعْدٍ لِي مُطِيعٌ ومُهْطِعُ

و بعير مُهْطِع فى عنقه تصويبٌ خِلْقَةً . وأهطع فى عَدْوه أى أسرع . ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ يعنى يوم القيامة لما ينالهم فيه من الشدّة .

---

(١) الزيادة من إعراب القرآن للسمين .

(٢) الزيادة من مفصل إعراب القرآن وغيره .

(٣) قائله تبع .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ ذكر جملا من وقائع الأمم الماضية تأنيسا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتعزية له . « قَبْلَهُمْ » أى قبل قومك . ﴿ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ﴾ يعنى نوحا . الزمخشريّ : فإن قلت ما معنى قوله « فَكَذَّبُوا » بعد قوله « كَذَّبَتْ » قلت : معناه كذّبوا فكذّبوا عبدنا ؛ أى كذّبوه تكذيبا على عقب تكذيب ؛ كلما مضى منهم قرْن مكذّب تبعه قرْن مكذّب ، أو كذّبت قوم نوح الرسل فكذّبوا عبدنا ؛ أى لما كانوا مكذّبين بالرسل جاحدين للنبوة رأسا كذّبوا نوحا لأنه من جملة الرسل . ﴿ وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ أى هو مجنون ﴿ وَٱزْدُجِرَ ﴾ أى زجر عن دعوى النبوة بالسبّ والوعيد بالقتل . وقيل إنما قال : « وَٱزْدُجِرَ » بلفظ ما لم يسم فاعله لأنه رأس آية . ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ ﴾ أى دعا عليهم حينئذ نوح وقال : ربّ ﴿ أَنِّى مَغْلُوبٌ ﴾ أى غلبونى بتمردهم ﴿ فَٱنْتَصِرْ ﴾ أى فانتصر لى . وقيل : إن الأنبياء كانوا لا يدعون على قومهم بالهلاك إلا بإذن الله عز وجل لهم فيه . ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأمرناه بآتخاذ السفينة وفتحنا أبواب السماء ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ أى كثير ؛ قاله السدّيّ . قال الشاعر :

أعينيّ جُودَا بالدُّموع الهَوَامرِ * على خيرِ بادٍ من مَعَدٍّ وحاضِرِ

وقيل : إنه المنصبّ المتدفّق ؛ ومنه قول آمرئ القيس يصف غيثا :

رَاحَ تَمْـرِيهِ الصَّبَـا ثم ٱنْتَحَـى * فيه شُـــؤْبُوبُ جَنُوبٍ مُنْهَمِرْ (١)

والهَمْر الصبّ ؛ وقد هَمَر المـاءَ والدَّمْعَ يَهْمِرُ هَمْرا . وهَمَر أيضا إذا أكثر الكلام وأسرع . وهَمَر له من ماله أي أعطاه . قال ٱبن عبـاس : ففتحنا أبواب السماء بمـاء من غير سحاب لم يقلع أربعين يوما . وقرأ ٱبن عامر ويعقوب : « فَفَتَّحْنَا » مشدّدة على التكثير . الباقون « فَفَتَحْنَا » مخففا . ثم قيل : إنه فتح رتاجها وسعة مسالكها . وقيل : إنه المجرّة وهي شَرَج السماء ومنها فتحت بماء منهمر؛ قاله عليّ رضي الله عنه . ﴿ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ قال عُبَيد بن عُمير : أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها فتفجرت بالعيون ، وإن عينا تأخرت فغضب عليها فجعل ماءها مُرّا أجاجا إلى يوم القيامة . ﴿ فَالْتَقَى الْمَـاءُ ﴾ أي ماء السماء وماء الأرض ﴿ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي على مقدار لم يزد أحدهما على الآخر ؛ حكاه ٱبن قتيبة . أي كان ماء السماء والأرض سواء . وقيل : « قُدِرَ » بمعنى قضى عليهم . قال قتادة : قدر لهم إذا كفروا أن يغرقوا . وقال محمد بن كعب : كانت الأقوات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء ؛ وتلا هذه الآية . وقال : « الْتَقَى الْمَـاءُ » والالتقاء إنما يكون في ٱثنين فصاعدا ؛ لأن المـاء يكون جمعا وواحدا . وقيل : لأنهما لمـا ٱجتمعا صارا ماء واحدا . وقرأ الجحدري : « فَالْتَقَى الْمَـاءَانِ » . وقرأ الحسن : « فَالْتَقَى الْمَـاوَانِ » وهمـا خلاف المرســوم . القشيري : وفي بعض المصاحف « فَالْتَقَى الْمَـاوَانِ » وهي لغة طيء . وقيل : كان ماء السماء باردا مثل الثلج وماء الأرض حارا مثل الحميم . ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ ﴾ أي على سفينة ذات ألواح . ﴿ وَدُسُرٍ ﴾ قال قتادة : يعني المسامير التي دُسرت بهـا السفينةُ أي شـدّت ؛ وقاله القرظي وٱبن زيد وٱبن جبـير ورواه الوالبي عن ٱبن عباس . وقال الحسن وشهر بن حوشب وعكرمة : هي صدر السفينة التي تضرب بها الموج سميت بذلك لأنها تدسر المـاء أي تدفعه ، والدَّسْر الدفع والمَخْر ؛ ورواه العوفي عن ٱبن عباس قال : الدَّسْر كَلْكَلُ السفينة .

---

(١) راح : أي عاد في الرواح ؛ كأن المطر كان في أول النهار ثم عاد في آخره . وتمريه : تستدرّه ، وأصله من مرى الضرع وهو مسحه ليدرّ . وخص الصبا لأنهم يمطرون بها .

وقال الليث: الدِّسار خيط من ليف تُشَدُّ به ألواح السفينة. وفي الصحاح: الدِّسار واحد الدُّسُر وهي خيوط تشدّ بها ألواح السفينة، ويقال هي المسامير، وقال تعالى: «عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ». ودُسْر أيضا مثل عُسُر وعُسْر. والدَّسْر الدفع؛ قال آبن عباس في العنبر: إنما هو شيء يَدْسُره البحر دَسْرا أي يدفعه. ودَسَره بالرمح. ورجل مِدْسَر. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بمرأى منا. وقيل: بأمرنا. وقيل: بحفظ منا وكَلاءة. وقد مضى في «هود»(١). ومنه قول الناس للمودّع: عين الله عليك؛ أي حفظه وكَلاءته. وقيل: بوحينا. وقيل: أي بالأعين النابعة من الأرض. وقيل: بأعين أوليائنا من الملائكة الموكلين بحفظها، وكل ما خلق الله تعالى يمكن أن يضاف إليه. وقيل: أي تجري بأوليائنا، كما في الخبر: مرض عين من عيوننا فلم تعده. ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ أي جعلنا ذلك ثوابا وجزاء لنوح على صبره على أذى قومه وهو المكفور به؛ فاللام في «لِمَنْ» لام المفعول له. وقيل: «كُفِرَ» أي جحد فـ«ـمَن» كناية عن نوح. وقيل: كناية عن الله والجزاء بمعنى العقاب؛ أي عقابا لكفرهم بالله تعالى. وقرأ يزيد بن رومان وقتادة ومجاهد وحميد «جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ» بفتح الكاف والفاء بمعنى: كان الغرق جزاء وعقابا لمن كفر بالله، وما نجا من الغرق غير عُوج بن عنق(٢)؛ كان الماء إلى حُجْزته. وسبب نجاته أن نوحا آحتاج إلى خشبة الساج لبناء السفينة فلم يمكنه حملها، فحمل عُوج تلك الخشبة إليه من الشام فشكر الله له ذلك، ونجّاه من الغرق. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً﴾ يريد هذه الفعلة عبرة. وقيل أراد السفينة تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذّبون الرسل. قال قتادة: أبقاها الله بباقِرْدَى من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها فصارت رمادا. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ متّعظ خائف وأصله مُذْتَكِر مُفْتَعِل من الذِّكْر، فثقلت على الألسنة فقلبت التاء دالا لتوافق الذال في الجهر وأدغمت الدال فيها. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي إنذاري؛

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٠ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) عوج بن عنق هو المشهور والذي صوبه صاحب القاموس هو آبن عوق لا عنق.

قال الفراء : الإنذار والنذر مصدران . وقيل : « نُذُر » جمع نذير ونذير بمعنى الإنذار كنكير بمعنى الإنكار . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ أى سهلناه للحفظ وأعنّا عليه من أراد حفظه ؛ فهل من طالب لحفظه فيعانَ عليه؟ ويجوز أن يكون المعنى ؛ ولقد هيأناه للذكر من يسّر ناقته للسفَر إذا رحّلها ، ويسّر فرسَه للغزو إذا أسرجه وألجمه ؛ قال :

وقُمْتُ إليـه باللِّجام مُيَسِّرًا * هُنالك يَجْزِيني الذى كنتُ أصْنَعُ

وقال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهرا إلا القرآن ؛ وقال غيره : ولم يكن هذا لبنى إسرائيل ، ولم يكونوا يقرءون التوراة إلا نظرا ، غير موسى وهرون و يوشع آبن نون وعزير صلوات الله عليهم ، ومن أجل ذلك آفتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت ؛ على ما تقدّم بيانه فى سورة « براءة »(1) فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذّكّروا ما فيه أى يفتعلوا الذكر ، والآفتعال هو أن ينجع فيهم ذلك حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ قارئ يقرؤه . وقال أبو بكر الوراق وآبن شَوْذب : فهل من طالب خير وعلم فيعانَ عليه ، وكرّر فى هذه السورة للتنبيه والإفهام . وقيل : إن الله تعالى آقتص فى هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين ، فكان فى كل قصة ونبأ ذكر للمستمع أن لو آدّكر ، وإنما كرّر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : « فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ » لأن « هَلْ » كلمة آستفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم وجعلها حجة عليهم ؛ فاللام من « هَلْ » للاستعراض والهاء للآستخراج .

قوله تعالى : كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

(1) راجع ج ٨ ص ١١٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ﴾ هم قوم هود . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وقعت « نُذُر » في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف ، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين ، وورش في الوصل لا غير ، وحذف الباقون . ولا خلاف في حذف الياء من قوله : « فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ » والواو من قوله : « يَدْعُ » فأما الياء من « الدَّاعِ » الأول فأثبتها في الحالين ابن محيصن ويعقوب وحميد والبزّي ، وأثبتها ورش وأبو عمرو في الوصل ، وحذف الباقون . وأما « الدَّاعِ » الثانية فأثبتها يعقوب وابن محيصن وابن كثير في الحالين ، وأثبتها أبو عمرو ونافع في الوصل ، وحذفها الباقون . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أي شديدة البرد ؛ قاله قتادة والضحاك . وقيل : شديدة الصوت ، وقد مضى في «حم السّجدة»(١) . ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ ﴾ أي في يوم كان مشئوما عليهم . وقال ابن عباس : أي في يوم كانوا يتشاءمون به . الزجاج : قيل في يوم أربعاء . ابن عباس : كان آخر أربعاء في الشهر أفنى صغيرهم وكبيرهم . وقرأ هرون الأعور « نَحِسٍ » بكسر الحاء وقد مضى القول فيه في حم السّجدة « فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ » . و « فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ » أي دائم الشؤم استمر عليهم بنحوسه ، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك . وقيل : استمر بهم إلى نار جهنم . وقال الضحاك : كان مُرًّا عليهم . وكذا حكى الكسائي أن قوما قالوا هو من المرارة ؛ يقال : مَرَّ الشيءُ وأَمَرَّ أي كان كالشيء المر تكرهه النفوس . وقد قال : «فَذُوقُوا» والذي يذاق قد يكون مُرًّا . وقد قيل : هو من المِرّة بمعنى القوّة . أي في يوم نحس مستمر مستحكم الشؤم كالشيء المحكم الفتل الذي لا يطاق نقضه ؛ فإن قيل : فإذا كان يوم الأربعاء يوم نحس مستمر فكيف يستجاب فيه الدعاء؟ وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم استجيب له فيه فيما بين الظهر والعصر . وقد مضى في «البقرة»(٢) حديث جابر بذلك . فالجواب — والله أعلم — ما جاء في خبر يرويه مسروق عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتاني جبريل فقال إن الله يأمرك أن تقضي باليمين مع الشاهد وقال يوم الأربعاء يوم نحس مستمر "

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٣١٢ طبعة ثانية .

ومعلوم أنه لم يرد بذلك أنه نحس على الصالحين ، بل أراد أنه نحس على الفجار والمفسدين كما كانت الأيام النحسات المذكورة فى القرآن؛ نحسات على الكفار من قوم عاد لا على نبيهم والمؤمنين به منهم ، وإذا كان كذلك لم يبعد أن يمهل الظالم من أول يوم الأربعاء إلى أن تزول الشمس ، فإذا أدبر النهار ولم يحدث رجعة آستجيب دعاء المظلوم عليه ، فكان اليوم نحسا على الظالم ؛ ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم إنما كان على الكفار ، وقول جابر فى حديثه لم ينزل بى أمر غليظ إشارة إلى هذا . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ تَنْزِعُ النَّاسَ ﴾ فى موضع الصفة للريح أى تقلعهم من مواضعهم . قيل : قلعتهم من تحت أقدامهم آقتلاع النخلة من أصلها . وقال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فترمى بهم على رءوسهم فتندق أعناقهم وتَبِين رءوسهم عن أجسادهم . وقيل : تنزع الناس من البيوت . وقال محمد بن كعب عن أبيه قال النبي صلى الله عليه وسلم : "آنتزعت الريح الناس من قبورهم" . وقيل : حفروا حفرا ودخلوها فكانت الريح تنزعهم منها وتكسرهم ، وتبقى تلك الحفر كأنها أصول نخل هلك ما كان فيها فتبقى مواضعها منقعرة . ويروى أن سبعة منهم حفروا حفرا وقاموا فيها ليردوا الريح . قال آبن إسحق : لما هاجت الريح قام نفر سبعة من عاد سمى لنا منهم ستة من أشد عاد وأجسمها منهم عمرو بن الحلى والحرث بن شداد والهِلْقام وآبنا تِقْن وخلجان بن سعد فأولجوا العيال فى شِعْب بين جبلين ، ثم آصطفوا على باب الشِّعب ليردّوا الريح عمن فى الشِّعب من العيال ، فجعلت الريح تَجْعَفهم (١) رجلًا رجلًا ، فقالت آمرأة عاد :

ذَهَبَ الدهرُ بعمرو بـ * ـن حلىٍّ والهنيّات

ثم بالحرث والهِلْـ * ـقامِ طَلَّاعِ الثنيّات

والذى سَدَّ مهبَّ الر * يح أيامَ البليّات

(١) جعفه : صرعه وضرب به الأرض .

الطبري : في الكلام حذف ، والمعـنى تنزع الناس فتتركهم كأنهم أعجاز نخـل منقعر؛ فالكاف في موضع نصب للمحذوف . الزجاج : الكاف في موضع نصب على الحال ، والمعنى تنزع الناس مشبّهين بأعجاز نخل . والتشبيه قيـل إنه للحفر التي كانوا فيها . والأعجاز جمع عجز وهو مؤخر الشيء ، وكانت عاد موصـوفين بطول القامة ، فشُبّهوا بالنخل ٱنكبت لوجوهها . وقال : «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» للفظ النخل وهو من الجمع الذي يذكر و يؤنث . والمنقعر المنقطع من أصله ؛ قعرت الشجرة قعرا قلعتها من أصلها فٱنقعرت . الكسائي : قعرت البئر أي نزلت حتى ٱنتهيت إلى قعرها ، وكذلك الإناء إذا شربت ما فيه حتى ٱنتهيت إلى قعره . وأقعرت البئر جعلت لهـا قعرا . وقال أبو بكر بن الأنباري : سئل المبرّد بحضرة إسمعيل القاضي عن ألف مسئلة هذه من جملتها ، فقيل له : ما الفرق بين قوله تعالى : «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً» و «جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ» وقوله : «كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْـلٍ خَاوِيَةٍ» و «أَعْجَازُ نَخْـلٍ مُنْقَعِرٍ» فقال : كلما ورد عليك من هذا الباب فإن شئت رددته إلى اللفظ تذكيرا ، أو إلى المعنى تأنيثا . وقيـل : إن النخل والنخيل بمعـنى يذكر ويؤنث كما ذكرنا . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ .

قوله تعـالى : كَذَّبَتْ ثَمُـودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّـا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُـودُ بِالنُّـذُرِ ﴾ هم قوم صالح كذّبوا الرسل ونبيهم ، أو كذّبوا بالآيات التي هي النذر ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ ﴾ ونبع جماعة . وقرأ أبو الأشهب وٱبن السَّمَيْقَع وأبو السَّمّال العدوي « أَبَشَرٌ » بالرفع « وَاحِدٌ » كذلك رفع بالابتـداء والخبر « نَتَّبِعُهُ » . الباقون بالنصب على معـنى أنتبع بشرا منا واحدا نتبعـه . وقرأ أبو السَّمّال[1] :

---

(١) هذه رواية أخرى عن أبي السمال كما في « روح المعاني » وغيره .

« أَبَشَرٌ » بالرفع « مِنَّا وَاحِدًا » بالنصب رفع « أَبَشَرٌ » بإضمار فعل يدل عليه « أَؤُلْقِيَ » كأنه قال : أينبأ بشر منا، وقوله : « وَاحِدًا » يجوز أن يكون حالا من المضمر في « مِنَّا » والناصب له الظرف ، والتقدير أينبأ بشر كائن منا منفردا ؛ ويجوز أن يكون حالا من الضمير في « نَتَّبِعُهُ » منفردا لا ناصر له . ﴿ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ ﴾ أي ذهاب عن الصواب « وَسُعُرٍ » أي جنون ، من قولهم : ناقة مسعورة ، أي كأنها من شدة نشاطها مجنونة ، ذكره ابن عباس قال الشاعر يصف ناقته :

تَخَالُ بها سُعْرًا إذا السَّفْرُ هَزَّهَا * ذَمِيلٌ وإيقاعٌ من السَّيْرِ مُتْعِبُ (١)

وقال ابن عباس أيضا : السُّعر العذاب ، وقاله الفراء . مجاهد : بعد عن الحق . السدي : في احتراق . قال (٢) :

أصحوتَ اليومَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرّْ * ومِنَ الحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ

أي متقد ومحترق . أبو عبيدة : هو جمع سعير وهو لهب النار . والبعير (٣) المجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدّة . ومعنى الآية : إنا إذًا لفي شقاء وعناء مما يلزمنا .

قوله تعالى : ﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ أي خصص بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا ؟ ! وهو استفهام معناه الإنكار . ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ أي ليس كما يدعيه ، وإنما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبر علينا من غير استحقاق . والأَشَر المَرَح والتجبّر والنّشاط . يقال : فرس أَشِر إذا كان مرحا نشيطا ؛ قال امرؤ القيس يصف كلبا :

فيدركنا فَغِمٌ داجنٌ * سميعٌ بصيرٌ طَلُوبٌ نَكِرْ (٤)
أَلَصُّ الضُّرُوسِ (٥) حَنِيُّ الضُّلُوعِ * تَبُوعٌ أَرِيبٌ نَشِيطٌ أَشِرْ

---

(١) الذميل : ضرب من سير الإبل . (٢) هو طرفة . (٣) في بعض النسخ : السعير .

(٤) الفغم : المولع بالصيد الحريص عليه . داجن : ألوف للصيد . ونكر أي منكر عالم . وقيل نكر أي كريه الصورة .

(٥) الألص الذي التصقت أسنانه بعضها إلى بعض .

وقيل : « أَشِرٌ » بَطِر . والأَشَر البَطَر ؛ قال الشاعر :

أَشِــرْتُمْ بلُبْس الخَزّ لمّـا لَبِسْتُمُ * ومِن قبلُ ماتَدْرونَ مَنْ فَتَح القُرَى

وقـد أشر بالكسر يأشر أَشَرا فهو أَشِر وأَشْران ، وقوم أُشَارى مثـل سَكْران وسُكَارى ؛ قال الشـاعر(١) :

وخَلّتْ وُعُــولًا أُشَارَى بهـا * وقــد أَزْهَقَ الطَّعْنُ أبطالهَـا

وقيـل : إنه المتعدى إلى منزلة لا يستحقها ؛ والمعنى واحد . وقال ٱبن زيد وعبـد الرحمن ٱبن حماد : الأشِر الذى لا يبـالى ما قال . وقرأ أبو جعفـر وأبو قِلابة « أَشَرٌّ » بفتح الشين وتشديد الراء يعنى به أشرنا وأخبثنا . ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ أى سيرون العذاب يوم القيامة ، أو فى حال نزول العذاب بهم فى الدنيا . وقرأ ٱبن عامر وحمـزة بالتاء على أنه من قول صالح لهم على الخطاب . الباقون بالياء إخبار من الله تعالى لصالح عنهم . وقوله : « غَدًا » على التقريب على عادة الناس فى قولهم للعواقب : إن مع اليوم غدا ؛ قال :

للمــوتِ فيهـا سِهامٌ غـير مُخْطِئَــةٍ * مَنْ لم يكن مَيّتًـا فى اليومِ ماتَ غَـدَا

وقال الطِّرِمّاح :

أَلَا عَلّـلَانِى قَبْــلَ نَـوْحِ النَّـوَائِح * وَقبْلَ ٱضْطِرَابِ النَّفْسِ بينَ الجَوَانِح

وقبـلَ غَـدٍ يا لَهْفَ نفسِى على غَـدٍ * إذا رَاحَ أصحـابى ولســتُ بـرائح

إنمـا أراد وقت المـوت ولم يرد غدا بعينـه . ﴿ مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴾ وقـرأ أبو قِـلابة « الأَشَرّ » بفتح الشين وتشديد الراء جاء به على الأصـل . قال أبو حاتم : لا تكاد العرب تتكلم بالأَشَرّ والأَخْيَر إلا فى ضرورة الشعر ، كقول رؤبة :

* بِلَالُ خَيْرُ الناسِ وٱبنُ الأَخْيَر *

---

(١) هى مية بنت ضرار الضبي ترثى أخاها . وأزهف الطعن أبطالها أى صرعها . وقبـل البيت :

تراه عـلى الخيــل ذا قدمـة * إذا ســربل الدم أكفالهـا

وإنما يقولون هو خير قومه وهو شر الناس؛ قال الله تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» وقال: «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا». وعن أبي حَيْوة بفتح الشين وتخفيف الراء. وعن مجاهد وسعيد بن جُبَير ضم الشين والراء والتخفيف؛ قال النحاس: وهو معنى «الأَشِر» ومثله رجل حَذِر وحَذُر.

قوله تعالى: إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ﴾ أي مخرجوها من الهَضْبة التي سألوها؛ فروى أن صالحا صلى ركعتين ودعا فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها؛ فخرجت ناقة عُشَراء [وبراء](١). ﴿فِتْنَةً لَهُمْ﴾ أي اختبارا وهو مفعول له. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ أي انتظر ما يصنعون. ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ أي اصبر على أذاهم؛ وأصل الطاء في اصطبر تاء فتحولت طاء لتكون موافقة للصاد في الإطباق. ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ أي أخبرهم ﴿أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي بين آل ثمود وبين الناقة؛ لها يوم ولهم يوم؛ كما قال تعالى: «لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ». قال ابن عباس: كان يوم شربهم لا تشرب الناقة شيئا من الماء وتسقيهم لبنا وكانوا في نعيم؛ وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم شيئا. وإنما قال: «بَيْنَهُمْ» لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم غلّبوا بني آدم. وروى أبو الزبير عن جابر قال: لما نزلنا الحِجر في مغزى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك، قال: "أيها الناس لا تسألوا في هذه الآيات هؤلاء قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة فبعث الله عز وجل

(١) في الأصول جرداء. وفي قصص الأنبياء للثعلبي وغيره من كتب التفسير وبراء فلذا أثبتناه.

إليهم الناقة فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ويحلبون منها مثل الذى كانوا يشربون يوم غبها " وهو معنى قوله تعالى : « وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ » .
﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴾ الشِّرب بالكسر الحظّ من الماء ؛ وفى المثل : (آخرها أقلّها شِرْبا) وأصله فى سقى الإبل ، لأن آخرها يرد وقد نزف الحوض . ومعنى « مُحْتَضَرٌ » أى يحضُره من هو له ؛ فالناقة تحضُر الماء يوم وردها ، وتغيب عنهم يوم وِردهم ؛ قاله مقاتل . وقال مجاهد : إن ثمود يحضُرون الماء يوم غبّها فيشربون ، ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ ﴾ يعنى بالحضّ على عقرها ﴿ فَتَعَاطَى ﴾ عقرها ﴿ فَعَقَرَ ﴾ هَا ومعنى تعاطى تناول الفعل ، من قولهم عَطَوتُ أى تناولت ؛ ومنه قول حسّان :

كِلْتَاهُمَا حَلَبُ العَصِيرِ فعَاطِنِي * بزجاجةٍ أرخاهما للمِفْصَلِ

قال محمد بن إسحق : فكمن لها فى أصل شجرة على طريقها فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ، ثم شدّ عليها بالسيف فكشف عُرْقوبها ، فخرّت ورغت رغاءة واحدة تحذّر سَقْبها من بطنها ثم نحرها ، وانطلق سَقْبها حتى أتى صخرة فى رأس جبل فرغا ثم لاذ بها ، فأتاهم صالح عليه السلام ؛ فلما رأى الناقة قد عُقِرت بكى وقال : قد انتهكتم حرمة الله فأبشروا بعذاب الله . وقد مضى فى « الأعراف »[(١)] بيان هذا المعنى . قال ابن عباس : وكان الذى عقرها أحمر أزرق أشقر أكشف أقفى . ويقال فى اسمه قُدار بن سالف . وقال الأفوه الأَوْدِىّ :

أو قَبْلَه[(٢)] كقُدَارٍ حين تابعَهُ * على الغَوَايةِ أقوامٌ فقد بادُوا

والعرب تسمى الجزّار قُدارًا تشبيها بقُدار بن سالف مشئوم آل ثمود ؛ قال مهلهل :

إنّا لَنضرِبُ بالسُّيوفِ رُءوسَهمْ * ضَرْبَ القُدارِ نَقيعةَ القُدّامِ[(٣)]

---

(١) راجع ج ٧ ص ٢٤١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الذى فى شعراء النصرانية : (أو بعده) .

(٣) القدار : الجزار . والنقيعة : ما ينحر للضيافة . والقدام : القادمون من سفر جمع قادم . وقيل : القدام الملك . ويروى : * إنا لنضرب بالصوارم هامهم *

وذكره زهير فقال :

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُم * كأحمرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ (١)

يريد الحرب فكنى عن ثمود بعاد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ يريد صيحة جبريل عليه السلام، وقد مضى في « هود » (٢) . ﴿ فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ وقرأ الحسن وقتادة وأبو العالية « المُحْتَظَر » بفتح الظاء أرادوا الحظيرة . الباقون بالكسر أرادوا صاحب الحظيرة . وفي الصحاح : والمحتظِر الذي يعمل الحظيرة وقرئ « كَهَشِيمِ المحتظَر » فمن كسره جعله الفاعل ومن فتحه جعله المفعول به ، ويقال للرجل القليل الخير « إنه لَنَكِدُ الحَظِيرة » . قال أبو عبيد : أراه سمى أمواله حظيرة لأنه حظرها عنده ومنعها ، وهي فعيلة بمعنى مفعولة . المهدوي : من فتح الظاء من « المحتظر » فهو مصدر، والمعنى كهشيم الاحتظار . ويجوز أن يكون « المحتظَر » هو الشجر المتخذ منه الحظيرة . قال ابن عباس : « المحتظِر » هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك ، فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم . قال :

أَثَرْنَ عَجَاجَةً كدخانِ نارٍ * تَشُبُّ بغَرْقَدٍ بالٍ هَشِيمِ

وعنه : كحشيش تأكله الغنم . وعنه أيضا : كالعظام النخرة المحترقة ، وهو قول قتادة . وقال سعيد بن جبير : هو التراب المتناثر من الحيطان في يوم ريح . وقال سفيان الثوري : هو ما تناثر من الحظيرة إذا ضربتها بالعصا وهو فعيل بمعنى مفعول . وقال ابن زيد : العرب تسمي كل شيء كان رطبا فيبس هشيما . والحظر المنع ، والمحتظر المفتعل يقال منه : احتظر على إبله وحظر أي جمع الشجر ووضع بعضه فوق بعض ليمنع برد الريح والسباع عن إبله ؛ قال الشاعر :

تَرَى جِيَفَ المَطِيِّ بجانبيه * كأنّ عظامَها خَشَبُ الهَشِيمِ

(١) تنتج لكم يعني الحرب ، غلمان أشأم في معنى غلمان شؤم أو كلهم في الشؤم كأحمر عاد . «ثم ترضع فتفطم» يريد أنه يتم أمر الحرب ، كالمرأة إذا أرضعت ثم فطمت فقد تممت .

(٢) راجع جـ ٩ ص ٦١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وعن ابن عبـاس أنهم كانوا مثل القمح الذى ديس وهشم ؛ فالمحتظر على هـذا الذى يتخـذ حظيرة على زرعه ، والهشيم فتات السنبلة والتبن . ﴿ وَلَقَـدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ .

قوله تعـالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّـذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـا عَلَيْهِـمْ حَاصِـبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَـةً مِّنْ عِنـدِنَا كَذَٰلِكَ نَجْـزِى مَن شَـكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَـدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّـذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَـدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَـيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَـدْ صَبَّحَهُم بُـكْرَةً عَذَابٌ مُّسْـتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُـذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ أخبر عن قوم لوط أيضا لمـا كذبوا لوطا . ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ أى ريحا ترميهم بالحصباء وهى الحصى ؛ قال النضر : الحاصب الحصباء فى الريح . وقال أبو عبيدة : الحاصب الحجـارة . وفى الصحاح : والحاصب الريح الشديدة التى تثير الحصباء وكذلك الحصبة ؛ قال لَبِيد :

جَرَّتْ عليهـا أَنْ خَوَتْ مِن أهلها * أذيالَهـا كُلُّ عَصُوفٍ حَصِـبَهْ

عصفت الريح أى آشتدّت فهى ريح عاصِفٌ وعَصُوف . وقال الفَرَزْدق :

مستقبلين شمـالَ الشامِ تَضرِبُنَا * بحاصبٍ كنَديفِ القُطْنِ منثورِ

﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ يعنى من تبعه على دينه ولم يكن إلا بنتاه ﴿ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ قال الأخفش : إنما أجراه لأنه نكرة ولو أراد سحر يوم بعينه لمـا أجراه ، ونظيره : « آهْبِطُوا مِصْرًا » لمـا نكره فلما عرفه فى قوله : « آدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ » لم يُجْـرِه ، وكذا قال الزجاج : « سحـر » إذا كان نكرة يراد به سحر من الأسحار يصرف ، تقول أتيتـه سحرًا ، فإذا أردت سحـر يومك

لم تصرفه تقول : أتيته سَحَرًا هذا وأتيته بسحر . والسَّحر هو ما بين آخر الليل وطلوع الفجر، وهو فى كلام العرب آختلاط سواد الليل ببياض أول النهار ؛ لأن فى هذا الوقت يكون مخاييل الليل ومخاييل النهار . ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ إنعاما منا على لوط وآبنتيه فهو نصب لأنه مفعول به . ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ شَكَرَ﴾ أى من آمن بالله وأطاعه . ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ يعنى لوطا خوفهم ﴿بَطْشَتَنَا﴾ عقوبتنا وأخذنا إياهم بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أى شكُّوا فيما أنذرهم به الرسول ولم يصدّقوه ، وهو تفاعل من المرية . ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أى أرادوا منه تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة فى هيئة الأضياف طلبا للفاحشة على ما تقدّم . يقال : راودْته على كذا مُراوَدةً ورِوادا أى أردتُه . وراد الكلأ يروده رَوْدا ورِيادا ، وآرتاده آرتيادا بمعنًى أى طلبه ؛ وفى الحديث : " إذا بال أحدكم فليرتَدْ لبوله " أى يطلب مكانا لينا أو منحدرا . ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ يروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فعَمُوا . وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شقّ ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وقيل : لا بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم . قال الضحاك : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل ؛ فقالوا : لقد رأيناهم حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم . ﴿فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أى فقلنا لهم ذوقوا والمراد من هذا الأمر الخبر ؛ أى فأذقتهم عذابى الذى أنذرهم به لوط . ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ أى دائم عام آستقر فيهم حتى يفضى بهم إلى عذاب الآخرة . وذلك العذاب قلْب قريتهم عليهم وجَعْل أعلاها أسفلها . و « بُكْرَةً » هنا نكرة فلذلك صرفت . ﴿فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ العذاب الذى نزل بهم من طمس الأعين غير العذاب الذى أهلكوا به فلذلك حسن التكرير . ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ يعني القبط و « النُّذُر » موسى وهرون . وقـد يطلق لفظ الجمع على الاثنين . ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ معجزاتنا الدالة على توحيـدنا ونبوة أنبيائنا ؛ وهى العصا ، واليـد ، والسّنون ، والطمسة ، والطوفان ، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم . وقيل : « النذر » الرسـل فقد جاءهم يوسـف وبنوه إلى أن جاءهم موسى . وقيـل : « النُّـذُرُ » الإنذار . ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ أى غالب فى انتقـام ﴿ مُقْتَدِرٍ ﴾ أى قادر على ما أراد .

قوله تعالى : أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ﴾ خاطب العرب . وقيل أراد كفار أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : استفهام وهو استفهام إنكار ومعناه النفى ؛ أى ليس كفاركم خيرا مـن كفار من تقـدّم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم . ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ ﴾ أى فى الكتب المنزلة على الأنبياء بالسلامة من العقوبة . وقال ابن عباس : أم لكم فى اللوح المحفوظ براءة من العـذاب . ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ أى جماعة لا تطاق لكثرة عددهم وقوتهم ولم يقل منتصرين اتباعا لرءوس الآى ؛ فرد الله عليهم فقال : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ أى جمع كفار مكة ، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره . وقراءة العامة « سَيُهْزَمُ » بالياء على ما لم يسم فاعله « الْجَمْعُ » بالرفع . وقرأ رُوَيْس عن يعقوب « سَنَهْزِمُ » بالنون وكسر الزاى « الْجَمْعَ » نصبا . ﴿ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ قراءة العامة بالياء على الخبر عنهم . وقرأ عيسى وابن إسحق ورويس عن يعقوب « وَتُوَلُّونَ » بالتـاء على الخطاب . و « الدُّبُرَ » اسم جنس كالدرهم

والدينار فوحد والمراد الجمع لأجل رءوس الآى . وقال مقاتل : ضرب أبو جهل فرسه يوم بدر فتقـدّم من الصّف وقال : نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحـابه ، فأنزل الله تعـالى : «نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» . وقال سعيد بن جبير قال سعد بن أبي وقاص : لمـا نزل قوله تعالى : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » كنت لا أدرى أى الجمع ينهزم ، فلما كان يوم بَدْر رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يَثِب فى الدِّرع ويقول : اللهم إن قريشا جاءتك تُحادُّك وتُحادُّ رسولَك بفخرها و[خُيَلائها][(1)] فأَحِنهم الغداةَ — ثم قال — «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» فعرفت تأويلها . وهذا من معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أخبر عن غيب فكان كما أخبر . أحْنى عليه الدهر أى أتى عليه وأهلكه ، ومنه قول النابغة :

* أَخْنَى عليه الذى أَخْنَى على لُبَدِ *

وأخنيت عليه أفسدت . قال آبن عباس : كان بين نزول هـذه الآية وبين بدر سبع سنين ؛ فالآية على هـذا مكية . وفى البخارى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بمكة وإنى لجارية ألعب « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ » . وعن آبن عباس أن النبي صلى الله عليه وسـلم قال وهو فى قُبَّة له يوم بدر : "أَنْشُدُكَ عهدَك ووعدَك اللهم إن شئت لم تُعبَد بعدَ اليوم أبدًا" فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك ؛ وهو فى الدِّرْع فخرج وهو يقول : « سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ » يريد القيامة . «وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ» أى أدهى وأمرّ ممـا لحقهم يوم بدر . و « أَدْهَى » من الداهية وهى الأمر العظيم ؛ يقال : دهاه أمر كذا أى أصابه دهوا ودهيا . وقال آبن السكيت : دهته داهية دهواء ودهياء وهى توكيد لهـا .

---

(١) فى الأصول : « بخيلها » وهو تحريف والتصويب من سيرة آبن هشام .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ أى فى حَيْدة عن الحق و « سعر » أى آحتراق . وقيل : جنون على ما تقدّم فى هـذه السورة . « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِم ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » فى صحيح مسـلم عن أبى هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القَدَر فنزلت « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ . إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » خرجه الترمذى أيضا وقال حديث حسن صحيح . وروى مسلم عن طاوس قال : أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : كل شيء بقَدَر . قال : وسمعت عبد الله بن عمر يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كُلّ شيءٍ بقَدر حتى العَجْز والكَيْس — أو — الكَيْس والعَجْز" وهذا إبطال لمذهب القَدَرية . « ذُوقُوا » أى يقال لهم ذوقوا ، ومسّها ما يجـدون من الألم عند الوقوع فيها . و « سَقَر » آسم من أسمـاء جهنم لا ينصرف ؛ لأنه آسم مؤنث معرفـة وكذا لظى وجهنم . وقال عطاء : « سَـقَر » الطبق السادس من جهنم . وقال قُطْرب : « سَـقَر » من سَقَرته الشمسُ وصَقَرته لَوَّحَتْه . ويوم مُسْمَقِرٌّ ومُصْمَقِرٌّ شديدُ الحرّ .

الثانيـــة — قوله تعالى : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ » قراءة العـامة « كُلَّ » بالنصب . وقـرأ أبو السَّمَّال « كُلُّ » بالرفع على الآبتداء . ومن نصب فبإضمار فعـل وهو آختيار الكوفيين ؛ لأن إنّ تطلب الفعل فهى به أولى ، والنصب أدل على العموم فى المخلوقات لله تعالى؛ لأنك لو حذفت « خَلَقْنَاهُ » المفسِّر وأظهرت الأوّل لصار إنا خلقنا كل شيء بقدر . ولا يصح كون خلقناه صفة لشيء؛ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف، ولا تكون تفسيرا لما يعمل فيما قبله .

الثالثـــة — الذى عليه أهــل السنة أن الله سبحانه قدّر الأشـياء ؛ أى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبــل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجده على نحو ما سبق فى علمه ؛ فلا يحدث حدث فى العالم العلوىّ والسفلىّ إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته و إرادته دون خلقه، وأن الخــلق ليس لهم فيها إلا نوع ٱكتساب ومحاولة ونسبة و إضافة، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسيرالله تعالى و بقدرته وتوفيقه و إلهامه سبحانه لا إله إلا هو ولا خالق غيره، كما نص عليه القرآن والسنة لا كما قالت القدَرِيّة وغيرهم من أن الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا . قال أبو ذَرٍّ رضى الله عنه : قدم وفد نجران على رســول الله صــلى الله عليه وســلم فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيــد غيرنا ؛ فنزلت هــذه الآيات إلى قوله : «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَــدَرٍ» فقالوا : يا محمــد يكتب علينا الذنب و يعــذبنا ؟ فقال : "أنتم خصماء الله يوم القيامة" .

الرابعـــة — روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنــه قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "إن مجوس هذه الأمة المكذّبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم و إن ماتوا فلا تشهدوهم و إن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم" . خرجه ٱبن ماجه فى سننه . وخرج أيضا عن ٱبن عباس وجابر قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صنفان من أمتى ليس لهم فى الإسلام نصيب أهل الإرجاء والقَدَر" . وأسند النحاس : وحدّثنا إبراهيم بن شريك الكوفى قال حدّثنا عقبة بن مكرم الضّبى قال حدّثنا يونس بن بكير عن سعيد بن ميسرة عن أنس قال قال رسول الله صــلى الله عليه وســلم : "القدَريّة الذين يقولون الخير والشر بأيدينا ليس لهم فى شفاعتى نصيب ولا أنا منهم ولا هم منّى" وفى صحيح مســلم أن ٱبن عمر تبرأ منهم ولا يتبرأ إلا من كافر؛ ثم أكد هذا بقوله : والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحُد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منــه حتى يؤمن بالقَدَر . وهذا مثل قوله تعــالى فى المنافقين : «وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ» وهذا واضح . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم : "الإيمان بالقَدَر يذهب الهمّ والحزن" .

قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ ﴾ أى إلا مرة واحدة . ﴿ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ أى قضائى فى خلق أسرع من لمح البصر . واللمح النظر بالعجلة ؛ يقال : لمح البرق ببصره . وفى الصحاح : لمحه وألمحه إذا أبصره بنظر خفيف ، والاسم اللمحة ، ولمح البرقُ والنجمُ لمحا أى لمع .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم الخالية . وقيل : أتباعكم وأعوانكم . ﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ أى من يتذكر .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ أى جميع ما فعلته الأمم قبلهم من خير أو شر كان مكتوبا عليهم . وهذا بيان قوله : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » . « فِي الزُّبُرِ » أى فى اللوح المحفوظ . وقيل : فى كتب الحفظة . وقيل فى أم الكتاب . ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ أى كل ذنب كبير وصغير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به ، ومكتوب إذا فعله ؛ سَطَرَ يسْطُرُ سَطْرا كَتَب واستطر مثله .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ لما وصف الكفار وصف المؤمنين أيضا . « وَنَهَرٍ » يعنى أنهار الماء والخمر والعسل واللبن ؛ قاله ابن جريج . ووحد لأنه رأس الآية ، ثم الواحد قد ينبئ عن الجميع . وقيل : فى « نهر » فى ضياء وسعة ومنه النهار لضيائه ، ومنه أنهرت الجرح ؛ قال الشاعر (١) :

مَلكتُ بها كفّى فأنهرتُ فتقَها ✽ يَرَى قائمٌ من دونها ما وراءها

(١) هو قيس بن الخطيم يصف طعنة . وملكت أى شددت وقويت .

وقرأ أبو مِجْلَز وأبو نهيك والأعرج وطلحة بن مصرِّف وقتادة « وَنُهُـرٍ » بضمتين كأنه جمع نهار لا ليل لهم كسحاب وسُحُب ؛ قال الفراء أنشدنى بعض العرب :

إنْ تَـكُ ليليًّا فإنِّى نَهِــرُ * مَـتَى أرى الصُّبحَ فــلا أنتَظِرُ

أى صاحب النهار . وقال آخر :

لَــوْلا الثَّرِيدانِ هَلَكْنا بالضُّـمُرْ * ثَرِيدُ ليْــلٍ وثَرِيــدٌ بالنُّهُــرْ

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أى مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ أى يقدر على ما يشاء ، و «عند» هاهنا عندية القربة والزلفة والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة . قال الصادق : مدح الله المكان الصدق فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق . وقرأ عثمان البَتِّى «فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ» بالجمع والمقاعد مواضع قعود الناس فى الأسواق وغيرها ؛ قال عبد الله بن بريدة : إن أهل الجنة يدخلون كل يوم على الجبار تبارك وتعالى ، فيقرءون القرآن على ربهم تبارك وتعالى، وقد جلس كل إنسان مجلسه الذى هو مجلسه ، على منابر من الدرّ والياقوت والزبرجد والذّهب والفضّة بقدر أعمالهم ، فلا تَقَرّ أعينهم بشىء قط كما تَقَرّ بذلك ، ولم يسمعوا شيئا أعظم ولا أحسن منه ، ثم ينصرفون إلى منازلهم ، قريرة اعينهم إلى مثلها من الغـد . وقال ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان : بلغنا أن الملائكة يأتون المؤمنين يوم القيامـة فيقولون : يا أولياء الله آنطلقوا ؛ فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ فيقول المؤمنون : إنكم تذهبون بنا إلى غير بغيتنا . فيقولون : فما بغيتكم ؟ فيقولون : مقعد صدق عند مليك مقتدر . وقد روى هذا الخبر على الخصوص بهذا المعنى؛ ففى الخبر: إن طائفة من العقلاء بالله عز وجل تزفّها الملائكة إلى الجنة والناس فى الحساب ، فيقولون للملائكة : إلى أين تحملوننا ؟ فيقولون إلى الجنـة . فيقولون : إنكم لتحملوننا إلى غير بغيتنا ؛ فيقولون : وما بغيتكم ؟ فيقولون : المقعد الصدق مع الحبيب كما أخبر « فِي مَقْعَدِ صِـدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » . والله أعلم .

تم تفسير سورة « القمر » والحمد لله .

سورة الرحمن

مكية كلها فى قول الحسن وعُروة بن الزبير وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : إلا آية منها هى قوله تعالى : « يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » الآية . وقال ابن مسعود ومقاتل : هى مدنية كلها . والقول الأوّل أصح لما روى عُرْوة بن الزبير قال : أوّل من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ؛ وذلك أن الصحابة قالوا : ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ فقال ابن مسعود : أنا ؛ فقالوا : إنا نخشى عليك ، و إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم تمادى رافعا بها صوته وقريش فى أنديتها ، فتأملوا وقالوا : ما يقول ابن أُمّ عَبْد ؟ قالوا : هو يقول الذى يزعم محمد أنه أنزل عليه ، ثم ضربوه حتى أثروا فى وجهه . وصح أن النبي صلى الله عليه وسلم قام يصلى الصبح بنخلة ، فقرأ سورة « الرحمن » ومرّ النفر من الجنّ فآمنوا به . وفى الترمذى عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة « الرحمن » من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : "لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ فكانوا أحسن مَرْدُودا منكم كنت كلما أتيت على قوله «فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ» قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد" قال : هذا حديث غريب . وفى هذا دليل على أنها مكية والله أعلم . وروى أن قيس بن عاصم المِنْقرى قال للنبي صلى الله عليه وسلم : آتل علىّ مما أنزل عليك ، فقرأ عليه سورة « الرحمن » فقال : أعدها ، فأعادها ثلاثا ، فقال : والله إنّ له لطَلاَوة ، وإن عليه لحَلاَوة ، وأسفله مغدِق ، وأعلاه مثمر ، وما يقول هذا بشر ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وروى عن علىّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لكل شيء عَروس وعَروس القرآن سورة الرحمن" .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ
ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾
وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾
وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ
ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ قال سعيد بن جبير وعامر الشَّعْبي : « الرحمٰن » فاتحة ثلاث سور إذا جمعن كن آسما من أسماء الله تعالى « الر » و « حم » و « ن » فيكون مجموع هذه « الرحمٰن » . « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى علّمه نبيه صلى الله عليه وسلم حتى أدّاه إلى جميع الناس . وأنزلت حين قالوا : وما الرحمٰن ؟ وقيل : نزلت جوابا لأهل مكة حين قالوا : إنما يعلّمه بشر وهو رحمٰن اليمامة ؛ يعنون مسيلمة الكذّاب ، فأنزل الله تعالى « الرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » . وقال الزجاج : معنى « عَلَّمَ الْقُرْآنَ » أى سهله لأن يذكر ويقرأ كما قال : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ » . وقيل : جعله علامة لما تعبد الناس به . ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ قال آبن عباس وقتادة والحسن يعنى آدم عليه السلام . ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ أسماء كل شيء . وقيل : علمه اللغات كلها . وعن آبن عباس أيضا وآبن كيسان : الإنسان ها هنا يراد به محمد صلى الله عليه وسلم ، والبيان بيان الحلال من الحرام ، والهدى من الضلال . وقيل : ما كان وما يكون ؛ لأنه بيّن عن الأوّلين والآخرين ويوم الدّين . وقال الضحاك : « البيان » الخير والشر . وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه وما يضره ؛ وقاله قتادة . وقيل : « الإنسان » يراد به جميع الناس فهو آسم للجنس و « البيان » على هذا الكلامُ والفهمُ ، وهو مما فضّل به الإنسان على

سائر الحيوان . وقال السدى : علم كل قوم لسانهم الذى يتكلمون به . وقال يمان : الكتابة والخط بالقلم . نظيره « عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ أى يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر . قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : أى يجريان بحساب فى منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها . وقال ابن زيد وابن كيسان : يعنى أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار ، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر أحد كيف يَحْسُب شيئا لو كان الدهر كلّه ليلا أو نهارا . وقال السدى : « بِحُسْبَانٍ » تقدير آجالها أى تجرى بآجال كآجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا ؛ نظيره « كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى » . وقال الضحاك : بقدر . مجاهد : « بِحُسْبَانٍ » كحسبان الرَّحَى يعنى قطبها يدوران فى مثل القطب . والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أَحْسُبُه بالضم حَسْبا وحُسْبانا مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجحان وحِسابة أيضا أى عددته . وقال الأخفش : ويكون جماعة الحساب مثل شِهاب وشُهبان . والحُسبان أيضا بالضم العذاب والسهام القصار ، وقد مضى فى « الكهف » (١) الواحدة حُسْبانة ، والحُسْبانة أيضا الوسادة الصغيرة ؛ تقول منه : حَسَّبْته إذا وسّدته ؛ قال (٢) :

* ... لَثَوَيْتَ غيرَ مُحَسَّبِ *

أى غير موسّد يعنى غير مكرّم ولا مكفّن ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : النجم مالا ساق له والشجر ماله ساق ، وأنشد ابن عباس قول صفوان بن أسد التميمى :

لَقَد أَنْجَمَ الْقَاعُ الكَبِيرُ عِضَاهَهُ * وتَمَّ بِهِ حَيّا تَمِيمٍ ووَائِلِ

وقال زهير بن أبى سُلْمى :

مُكَلَّلٌ بِأُصُولِ النَّجْمِ تَنْسِجُه * رِيحُ الجَنُوبِ لِضَاحِى مائِهِ حُبُكُ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٤٠٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هو نهيك الفزارى يخاطب عامر بن الطفيل ، والبيت بتمامه :

لتقيت بالوجعاء طعنة مرهف * مران أو لثويت غير محسب

الوجعاء الآست يقول : لوطعنتك لوليتنى دبرك واتقيت طعنتى بوجعائك ، ولثويت هالكا غير مكرم .

واشتقاق النجم من نَجَمَ الشيءُ يَنْجُم بالضم نجوما ظهر وطلع ، وسجودهما بسجود ظلالها قاله الضحاك . وقال الفرّاء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ؛ كما قال تعالى : « يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ » . وقال الحسن ومجاهد : النجم نجم السماء وسجوده في قول مجاهد دوران ظله وهو آختيار الطبري ؛ حكاه المهدوي . وقيل : سجود النجم أفوله وسجود الشجر إمكان الآجتناء لثمارها ؛ حكاه الماوردي . وقيل : إن جميع ذلك مسخر لله ؛ فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم من الصابئين النجوم ، وعبد كثير من العجم الشجر . والسجود الخضوع ، والمعنىّ به آثار الحدوث ؛ حكاه القشيري . النحاس : أصل السجود في اللغة الآستسلام والآنقياد لله عز وجل ؛ فهو من الموات كلها استسلامها لأمر الله عز وجل وآنقيادها له ومن الحيوان كذلك ويكون من سجود الصلاة ؛ وأنشد محمد بن يزيد في النجم بمعنى النجوم قال[1] :

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرةٍ * سَرِيعٍ بأَيْدِي الآكِلِين جُمُودُها

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ وقرأ أبو السَّمّال « والسماءُ » بالرفع على الآبتداء وآختار ذلك لما عطف على الجملة التي هي « وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » فجعل المعطوف مركبا من مبتدإ وخبر كالمعطوف عليه . الباقون بالنصب على إضمار فعل يدل عليه ما بعده . ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ أي العدل ؛ عن مجاهد وقتادة والسدي ؛ أي وضع في الأرض العدل الذي أمر به ؛ يقال : وضع الله الشريعة . ووضع فلان كذا أي ألقاه . وقيل : على هذا الميزان القرآن ؛ لأن فيه بيان ما يحتاج إليه وهو قول الحسين بن الفضل . وقال الحسن وقتادة — أيضا — والضحاك : هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل ؛ يدل عليه قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » والقسط العدل . وقيل : هو الحكم . وقيل : أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال . وأصل ميزان موزان وقد مضى في « الأعراف »[2] القول فيه . ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ موضع « أَنْ » يجوز أن يكون نصبا

(١) قائله الراعي . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

على تقدير حذف حرف الجر كأنه قال : لئلا تطغوا ؛ كقوله تعالى : « يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » . ويجوز ألا يكون « لأن » موضع من الإعراب فتكون بمعنى أى و « تطغوا » على هذا التقدير مجزوما ؛ كقوله تعالى : « وَٱنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا » . والطغيان مجاوزة الحد فمن قال الميزان العدل قال طغيانه الجور . ومن قال : إنه الميزان الذى يوزن به قال طغيانه البخس . قال ابن عباس : أى لا تخونوا من وزنتم له . وعنه أنه قال : يا معشر الموالى ! وليتم أمرين بهما هلك الناس : المكيال والميزان . ومن قال إنه الحكم قال : طغيانه التحريف . وقيل : فيه إضمار ؛ أى وضع الميزان وأمركم ألا تطغوا فيه . ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ أى افعلوه مستقيما بالعدل . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل . وقال ابن عيينة[1] : الإقامة باليد والقسط بالقلب . وقال مجاهد : القسط العدل بالرومية . وقيل هو كقولك : أقام الصلاة أى أتى بها فى وقتها ، وأقام الناس أسواقهم أى أتوها لوقتها . أى لا تدعوا التعامل بالوزن بالعدل . ﴿ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ أى لا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن ، وهذا كقوله : « وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ » . وقال قتادة فى هذه الآية : اعدل يا بن آدم كما تحب أن يُعدَل لك ، وأوف كما تحب أن يُوفَّى لك ، فإن العدل صلاح الناس . وقيل : المعنى ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم . وكرر الميزان لحال رءوس الآى . وقيل : التكرير للأمر بإيفاء الوزن ورعاية العدل فيه . وقراءة العامة « تُخْسِرُوا » بضم التاء وكسر السين . وقرأ بلال بن أبى بُرْدة وأَبَان بن عثمان « تَخْسَرُوا » بفتح التاء والسين وهما لغتان ؛ يقال : أخسرت الميزان وخسرته كأجبرته وجبرته وقيل : « تَخْسَرُوا » بفتح التاء والسين محمول على تقدير حذف حرف الجر والمعنى ولا تخسروا فى الميزان . ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ الأنام الناس ؛ عن ابن عباس . الحسن : الجن والإنس . الضحاك كل ما دب على وجه الأرض ؛ وهذا عام . ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ أى كل

(١) فى حاشية الجمل نقلا عن القرطبى « أبو عبيدة » بدل ابن عيينة .

ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار . ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ الأكمام جمع كِمّ بالكسر .
قال الجوهري : والكِمّة بالكسر والكِمامة وعاء الطلع وغطاء النَّوْر والجمع كِمَام وأَكِمّة وأَكْمَام
والأكاميم أيضا . وكُمّ الفصيلُ إذا أُشفق عليه فسُتِر حتى يَقْوَى ؛ قال العجّاج :

بَلْ لَوْ شَهِدْتَ الناسَ إذْ تُكُمُّوا * بِغُمَّــةٍ لَــوْ لَمْ تُفَــرَّجْ غُمُّــوا

وتُكُمُّوا أى أغمى عليهم وغُطُّوا . وأَكَمَّت [النَّـخلةُ] (١) وكَمَّمت أى أخرجت أكمامها . والكِمَام
بالكسر والكِمَامة أيضا ما يُـكَمّ به فمُ البعير لئلا يَعَضّ ؛ تقول منه بعير مَكْموم أى مَحْجوم .
وكَمَّمت الشيء غطّيته . والكِمّ ما ستر شيئا وغطّاه ومنه كُمّ القميص بالضم والجمع أَكْمَام وكِمَمَة
مثل حُبّ وحِبَبَة . والكُمّة القَلَنْسوة المدوّرة؛ لأنها تُغطّى الرأس . قال :

فقلتُ لهمْ كِيلُوا بكُمَّةِ بعضِكمْ * دَرَاهمَكُمْ إنِّى كذلكَ أَكْيَلُ

قال الحسن : « ذَاتُ الْأَكْمَامِ » أى ذات الليف فإن النخلة قد تُكَمّم بالليف، وكِمامها ليفها
الذى فى أعناقها . ابن زيد : ذات الطلع قبل أن يتفتق . وقال عكرمة : ذات الأحمال .
﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ الحبّ الحنطة والشعير ونحوهما والعصف التِّبْن، عن الحسن
وغيره . مجاهد : ورق الشـجر والزرع . ابن عباس : تِبْن الزرع وورقه الذى تعصـفه
الرياح . سعيد بن جبير : بَقْل الزرع أى أول ما ينبت منه . وقاله الفرّاء . والعرب تقول :
خرجنا نَعصِف الزرعَ إذا قطعوا منـه قبل أن يُدرِك . وكذا فى الصحاح : وعَصَفتُ الزرعَ
أى جززته قبل أن يُدرِك . وعن ابن عباس أيضا : العصف ورق الزرع الأخضر إذا قطع
رءوسه ويبس؛ نظيره : « فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » . الجوهرى : وقـد أَعصَفَ الزرعُ
ومكان مُعْصِف أى كثير الزرع . قال أبو قيس بن الأَسْلَت الأنصارىّ :

إذا جُمَـادَى مَنعتْ قَطْـرَهَا * زَانَ جَنَابِى عَطَنٌ مُعْصِفُ

(١) الزيادة من الصحاح للجوهرى .

والعَصْف أيضا الكسب؛ ومنه قول الراجز (١) :

* بغيرِ ما عَصْفٍ ولا ٱصْطِرَافِ *

وكذلك الاعتصاف ، والعَصِيفة الورق المجتمع الذى يكون فيه السُّنْبل . وقال الهروىّ : والعصف والعَصِيفة ورق السُّنْبل . وحكى الثعلبي : وقال ٱبن السِّكِّيت تقول العرب لورق الزرع العصف والعَصِيفة والجِلّ بكسر الجيم . قال عَلْقَمة بن عَبَدة :

تَسْقِي مَذَانِبَ قد مَالتْ عَصِيفَتُهَا * حَدُورُها من أَتِيِّ المـاءِ مَطْمُومُ

وفى الصحاح : والجِلُّ بالكسر قصب الزرع إذا حُصِد . والريحان الرزق؛ عن ٱبن عباس ومجاهد . الضحاك : هى لغة حِمْير . وعن ٱبن عباس أيضا والضحاك وقتادة : أنه الريحان الذى يشمّ . وقاله ٱبن زيد . وعن ٱبن عباس أيضا : أنه خضرة الزرع . وقال سعيد بن جبير : هو ما قام على ساق . وقال الفراء : العصف المأكول من الزرع ، والريحان ما لا يؤكل . وقال الكلبي : إن العصف الورق الذى لا يؤكل ، والريحان هو الحبّ المأكول . وقيل : الريحان كل بقلة طيبة الريح سميت رَيْحانا ؛ لأن الإنسان يَراحُ لها رائحةً طيبة . أى يشمّ فهو فَعْلان رَوْحان من الرائحة ؛ وأصل الياء فى الكلمة واو قلب ياء للفرق بينه و بين الرُّوحانىّ وهو كل شيء له رُوح . قال ٱبن الأعرابى : يقال شيء رُوحانى ورُيحانى أى له رُوح . ويجوز أن يكون على وزن فَيْعَلان فأصله رَيْوَحان فأبدل من الواو ياء وأدغم كهَيِّن ولَيِّن ، ثم ألزم التخفيف لطوله ولحاق الزائدتين الألف والنون ، والأصل فيما يتركب من الراء والواو والحاء الاهتزاز والحركة . وفى الصحاح : والرَّيْحان نبت معروف ؛ والرَّيْحان الرزق ؛ تقول : خرجت أبتغى رَيْحانَ الله ؛ قال النَّمِرُ بنُ تَوْلَب :

سَلامُ الإلهِ ورَيْحَانُهُ * ورَحْمَتُهُ وسَمَاءٌ دِرَرْ

(١) قائله العجاج . وصدر البيت :

* قد يكسب المال الهدان الجافى *

والهدان الأحمق .

وفى الحديث : " الولد من ريحان الله " . وقولهم : سبحانَ الله وريحانه نصبوهما على المصدر يريدون تنزيها له وآسترزاقا . وأما قوله : « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ » فالعصف ساق الزرع والريحان ورقه ؛ عن الفراء . وقراءة العامة « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ » بالرفع فيهما كلها على العطف على الفاكهة . ونصبها كلها آبن عامر وأبو حيوة والمغيرة عطفا على الأرض . وقيل : بإضمار فعل أى وخلق الحبّ ذا العصف والريحان ؛ فمن هذا الوجه يحسن الوقف على « ذَاتُ الْأَكْمَامِ » . وجرّ حمزة والكسائى « الريحان » عطفا على العصف أى فيهما الحبّ ذو العصف والريحانِ ، ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان الرزق ، فيكون كأنه قال : والحبّ ذو الرزق . والرزق من حيث كان العصف رزقا ؛ لأن العصف رزق للبهائم والريحان رزق للناس ، ولا شبهة فيه فى قول من قال إنه الريحان المشموم .

قوله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ خطاب للإنس والجنّ لأن الأنام واقع عليهما . وهذا قول الجمهور ويدل عليه حديث جابر المذكور أول السورة ، وخرجه الترمذى وفيه "لَلْجِنُّ أحسنُ منكم رَدًّا"[1] . وقيل : لما قال « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » و « خَلَقَ الْجَانَّ » دل ذلك على أن ما تقدّم وما تأخر لهما . وأيضا قال : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ وهو خطاب للإنس والجنّ وقد قال فى هذه السورة : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » . وقال الجرجانى : خاطب الجنّ مع الإنس وإن لم يتقدّم للجنّ ذكر ؛ كقوله تعالى : « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » . وقد سبق ذكر الجنّ فيما سبق نزوله من القرآن ، والقرآن كالسورة الواحدة ؛ فإذا ثبت أنهم مكلّفون كالإنس خوطب الجنسان بهذه الآيات . وقيل : الخطاب للإنس على عادة العرب فى الخطاب للواحد بلفظ التثنية ؛ حسب ما تقدّم من القول فى « أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ » . وكذلك قوله :

* قِفَا نَبْكِ ...[2] *

و * خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي ...[3] *

---

(١) رواية الترمذى المتقدّمة تخالف هذه الرواية فى اللفظ وهذه رواية الحاكم .

(٢) البيت مطلع معلقة آمرىء القيس وتمامه :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

(٣) البيت مطلع قصيدة لآمرئ القيس أيضا والبيت بتمامه :

خليلى مرا بى على أم جندب * نقضّ لبانات الفؤاد المعذب

فأما مابعـد « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » و « خَلَقَ الْجَانَّ » فإنه خطاب للإنس والجن ، والصحيح قول الجمهور لقوله تعـالى : « والْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » والآلاء النعم وهو قول جميـع المفسرين ، واحدها إِلًى وأَلًى مثـل مِعًى وعَصًا ، وإِلْيٌ وأَلْيٌ أربع لغـات . حكاها النحاس قال : وفي واحد « آناء الليل » ثلاث تسقط منها المفتوحة الألف المسكنة اللام ، وقد مضى في « الأعراف »[(١)] و « النجـم » . وقال ٱبن زيد : إنها القدرة وتقـدير الكلام فبأيّ قدرة ربكما تكذّبان ؛ وقاله الكلبي وٱختاره الترمذيّ محمد بن علي ، وقال : هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن ، والعَلَم إمام الجند والجند تتبعه ، وإنمـا صارت عَلَما لأنها سورة صفة الملك والقدرة ؛ فقـال : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُـرْآنَ » فٱفتتح السورة بٱسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هـذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقـال : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ » ثم ذكر الإنسان فقال : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ » ثم ذكر ما صنع به وما منّ عليـه به ، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجـود الأشياء مما نَجَم وشَجَر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ، فخاطب هذين الثقلين الجنّ والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود ٱتخـذوه من دونه ، وجحدوا الرحمة التي خرجت هـذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلا لهم : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي بأيّ قدرة ربكما تكذّبان ، فإنمـا كان تكذيبهم أنهم جعلوا له في هـذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكا يملك معه ويقدر معه ، فذلك تكذيبهم . ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجان من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : « فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » أي بأيّ قدرة ربكما تكذّبان ؛ فإن له في كل خلق بعد خلق قدرة بعد قدرة فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير ، وٱتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلق خلق . وقال القُتَبيّ : إن الله تعالى عدّد في هذه السورة نعماءه ، وذكر خلقه آلاءه ، ثم أتبع

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٧ طبعة أولى أو ثانية . وص ١٢١ من هذا الجزء .

كل خلة وصفها ونعمــة وضعها بهــذه ، وجعلها فاصــلة بين كل نعمتين لينبههم على النعم و يقررهم بها ؛ كما تقول لمن تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيرا فأغنيتك أفتنكر هــذا ؟ ! ألم تكن خاملا فعززتك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن صَرُورة فحججت بك أفتنكر هذا ؟ ! ألم تكن راجلا فحملتك أفتنكر هذا ؟ ! والتكرير حسن فى مثل هذا ، قال :

* كَمْ نِعْمَةٍ كانتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *

وقال :

لا تَقتُلِي مُسْلِمــاً إنْ كنتِ مُسْلِمَــةً * إيّاكِ مِنْ دَمِهِ إيّاكِ إيّاكِ

وقال آخر :

لا تقطعنَّ الصــديقَ ما طَرَفتْ * عينــاكَ من قــول كاشحٍ أَشِرِ
ولا تَمَلَّنَّ مِنْ زيارته زُرْهُ * وزُرْهُ وزُرْ وزُرْ وزُرِ

وقال الحسين بن الفضل : التكرير طردا للغفلة، وتأكيدا للحجة .

قوله تعالى : خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ لمــا ذكر سبحانه خالق العالم الكبير من السماء والأرض، وما فيهما من الدلالات على وحدانيته وقدرته ذكر خلق العالم الصغير فقال : «خَلَقَ الْإِنْسَانَ» باتفاق من أهل التأويل يعنى آدم . ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ الصلصال الطين اليابس الذى يسمع له صلصلة، شبهه بالفخّار الذى طبخ . وقيل : هو طين خلط برمل . وقيل : هو الطين المنتن من صَلَّ اللحمُ وأَصلَّ إذا أنتن ؛ وقد مضى فى « الحجر » (١) . وقال هنا : « مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » وقال هناك : « مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » . وقال : « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢١ طبعة أولى أو ثانية .

لَا رَيْبَ» . وقال : « كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » وذلك متفق المعنى؛ وذلك أنه أخذ من تراب الأرض فعجنه فصار طينا ، ثم آنتقل فصار كالحمإ المسنون ، ثم آنتقل فصار صلصالا كالفخار . ﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴾ قال الحسن : الجان إبليس وهو أبو الجنّ . وقيل : الجان واحد الجنّ والمارج اللهب ؛ عن آبن عباس ، وقال : خلق الله الجان من خالص النار . وعنه أيضا من لسانها الذى يكون فى طرفها إذا آلتهبت . وقال الليث : المارج الشُّعْلة الساطعة ذات اللهب الشديد . وعن آبن عباس أنه اللهب الذى يعلو النار فيختلط بعضه ببعض أحمر وأصفر وأخضر؛ ونحوه عن مجاهد؛ وكله متقارب المعنى . وقيل : المارج كل أمر مرسل غير ممنوع ، ونحوه قول المبرد ؛ قال المبرد : المارج النار المرسلة التى لا تمنع . وقال أبو عبيدة والحسن : المارج خلط النار وأصله من مرج إذا آضطرب وآختلط؛ ويروى أن الله تعالى خلق نارين فمرج إحداهما بالأخرى ، فأكلت إحداهما الأخرى وهى نار السموم فخلق منها إبليس . قال القُشَيرى : والمارج فى اللغة المرسل أو المختلط وهو فاعل بمعنى مفعول؛ كقوله : « ماء دافق » و « عيشة راضية » والمعنى ذو مرج ؛ قال الجوهرى فى الصحاح : و « مارج من نار » نار لا دخان لها خلق منها الجان . ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ أى هو ربّ المشرقين . وفى الصافات « وَرَبُّ الْمَشَارِقِ » وقد مضى الكلام فى ذلك هنالك (١) .

قوله تعالى : مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾

(١) راجع جـ ١٥ ص ٦٣ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ . بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ « مَرَجَ » أى خلّى وأرسل وأهمل ؛ يقال : مرج السلطانُ الناسَ إذا أهملهم . وأصل المَرْج الإهمال كما تُمْرَج الدابةُ فى المرعى . ويقال : مَرَجَ خَلَطَ . وقال الأخفش : ويقول قوم أَمْرَجَ البحرين مثل مَرَجَ ، فَعَل وأَفْعَل بمعنى . « الْبَحْرَيْنِ » قال آبن عباس : بحر السماء وبحر الأرض ؛ وقاله مجاهد وسعيد بن جبير . « يَلْتَقِيَانِ» فى كل عام . وقيل : يلتقى طرفاهما . وقال الحسن وقتادة : بحر فارس والروم . وقال آبن جريج : إنه البحر المالح والأنهار العذبة . وقيل : بحر المشرق والمغرب يلتقى طرفاهما . وقيل : بحر اللؤلؤ والمرجان . « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ » أى حاجز فعلى القول الأوّل ما بين السماء والأرض ؛ قاله الضحاك . وعلى القول الثانى الأرض التى بينهما وهى الحجاز ؛ قاله الحسن وقتادة . وعلى غيرهما من الأقوال القدرة الإلهية على ما تقدّم فى « الفرقان »[(١)] . وفى الخبر عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى كلم الناحية الغربية فقال : إنى جاعل فيك عبادا لى يُسبّحونى ويُكبّرونى ويهلّلونى ويمجّدونى فكيف أنت لهم ؟ فقالت : أُغرقهم يا ربّ . قال : إنى أحملهم على يدى ، وأجعل بأسك فى نواحيك . ثم كلّم الناحية الشرقية فقال : إنى جاعل فيك عبادا لى يُسبّحونى ويُكبّرونى ويُهلّلونى ويُمجّدونى فكيف أنت لهم ؟ قالت : أُسبّحك معهم إذا سبّحوك ، وأُكبّرك معهم إذا كبّروك ، وأُهلّلك معهم إذا هلّلوك ، وأُمجّدك معهم إذا مجّدوك ؛ فأثابها الله الحلْية وجعل بينهما برْزخا ، وتحوّل أحدهما ملحا أُجاجا ، وبقى الآخر على حالته عذبا فُراتا ؛ ذكر هذا الخبر الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله قال : حدّثنا صالح بن محمد ، حدّثنا القاسم العمرىّ عن سهل عن أبيه عن أبى هريرة . « لَا يَبْغِيَانِ » قال قتادة : لا يبغيان على الناس فيغرقانهم ؛ جعل بينهما و بين الناس يبَسا . وعنه أيضا ومجاهد : لا يبغى أحدهما على صاحبه فيغلبه . آبن زيد : المعنى « لَا يَبْغِيَانِ » أن يلتقيا ، وتقدير الكلام : مرج البحرين يلتقيان لولا البرزخ الذى بينهما لا يبغيان أن يلتقيا . وقيل : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ؛ أى بينهما

(١) راجع جـ ١٣ ص ٥٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

مدّة قدرها الله وهى مدّة الدنيا فهما لا يبغيان؛ فإذا أذن الله فى انقضاء الدنيا صار البحران شيئا واحدا؛ وهو كقوله تعالى: «وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ». وقال سهل بن عبدالله: البحران طريق الخير والشر، والبرزخ الذى بينهما التوفيق والعصمة.

قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ أى يخرج لكم من الماء اللؤلؤ والمرجان، كما يخرج من التراب الحبّ والعصف والريحان. وقرأ نافع وأبو عمرو «يُخْرَجُ» بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول. الباقون «يَخْرُجُ» بفتح الياء وضم الراء على أن اللؤلؤ هو الفاعل. وقال: «منهما» وإنما يخرج من الملح لا العذب لأن العرب تجمع الجنسين ثم تخبر عن أحدهما؛ كقوله تعالى: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ» وإنما الرسل من الإنس دون الجن؛ قاله الكلبي وغيره. وقال الزجاج: قد ذكرهما الله فإذا خرج من أحدهما شيء فقد خرج منهما؛ وهو كقوله تعالى: «أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا» والقمر فى سماء الدنيا ولكن أجمل ذكر السبع فكأن ما فى إحداهنّ فيهنّ. وقال أبو عليّ الفارسيّ: هذا من باب حذف المضاف؛ أى من أحدهما؛ كقوله: «عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» أى من إحدى القريتين. وقال الأخفش سعيد: زعم قوم أنه يخرج اللؤلؤ من العذب. وقيل: هما بحران يخرج من أحدهما اللؤلؤ ومن الآخر المرجان. ابن عباس: هما بحرا السماء والأرض. فإذا وقع ماء السماء فى صدف البحر انعقد لؤلؤا فصار خارجا منهما؛ وقاله الطبرى. قال الثعلبيّ: ولقد ذكر لى أن نواة كانت فى جوف صدفة، فأصابت القطرةُ بعض النواة ولم تُصب البعض، فكان حيث أصاب القطرة من النواة لؤلؤة وسائرها نواة. وقيل: إن العذب والملح قد يلتقيان، فيكون العذب كاللقاح للملح، فنسب إليهما كما ينسب الولد إلى الذكر والأنثى وإن ولدته الأنثى. لذلك قيل: إنه لا يخرج اللؤلؤ إلا من موضع يلتقى فيه العذب والملح. وقيل: المرجان عظام اللؤلؤ وكباره؛ قاله على وابن عباس رضى الله عنهما. واللؤلؤ صغاره. وعنهما أيضا بالعكس: إن اللؤلؤ كبار اللؤلؤ والمرجان صغاره؛ وقاله الضحاك وقتادة. وقال ابن مسعود وأبو مالك: المرجان الخرز الأحمر.

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنْشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ (٢٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ ﴾ يعنى السفن . ﴿ الْمُنْشَآتُ ﴾ قراءة العامة « الْمُنْشَآتُ » بفتح الشين ؛ قال قتادة : أى المخلوقات للجرى مأخوذ من الإنشاء . وقال مجاهد : هى السفن التى رُفع قِلْعها ؛ قال : وإذا لم يُرفَع قِلْعها فليست بمنشَآت . وقال الأخفش : إنها المجرَيات . وفى الحديث : إن عليا رضى الله عنه رأى سفنا مُقْلَعة ، فقال : ورب هذه الجوارِى المنشئات ما قتلت عثمان ولا مالأت فى قتله . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم بآختلاف عنه « الْمُنْشِئَاتُ » بكسر الشين أى المنشئات السير؛ أضيف الفعل إليها على التجوز والاتساع . وقيل : الرافعات الشُّرُع أى القُلُع . ومن فتح الشين قال : المرفوعات الشُّرُع . ﴿ كَالْأَعْلَامِ ﴾ أى كالجبال والعَلَم الجبل الطويل ، قال[1] :

* إذا قطعْنَ عَلَمًا بَدَا عَلَمْ *

فالسفن فى البحر كالجبال فى البر وقد مضى فى « الشورى »[2] بيانه . وقرأ يعقوب « الْجَوَارِى » بياء فى الوقف وحذف الباقون .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ الضمير فى « عَلَيْهَا » للأرض ، وقد جرى ذكرها فى أول السورة فى قوله تعالى : « وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ » وقد يقال : هو أكرم مَنْ عليها ،

---

(١) قائله جرير ؛ وتمام البيت :

* حتى تناهين بنا إلى الحكم *

وبعده : خليفة الحجاج غير المتهم * فى ضئضئ المجد وبؤبؤ الكرم

(٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٣ طبعة أولى أو ثانية .

يعنون الأرض وإن لم يجر لها ذكر . وقال ٱبن عباس : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض فنزلت « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » فأيقنت الملائكة بالهلاك ؛ وقاله مقاتل . ووجه النعمة في فناء الخلق التسوية بينهم في الموت ، ومع الموت تستوى الأقدام . وقيل : وجه النعمة أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب . ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أى ويبقى الله فالوجه عبارة عن وجوده وذاته سبحانه ؛ قال الشاعر :

قَضَى على خلقه المنايا * فكلُّ شيءٍ سواه فانى

وهذا الذى ٱرتضاه المحققون من علمائنا ؛ ٱبن فورك وأبو المعالى وغيرهم . وقال ٱبن عباس : الوجه عبارة عنه كما قال : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » وقال أبو المعالى : وأما الوجه فالمراد به عند معظم أئمتنا وجود البارى تعالى ، وهو الذى ٱرتضاه شيخنا . ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : « وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ » والموصوف بالبقاء عند تعرض الخلق للفناء وجود البارى تعالى . وقد مضى فى « البقرة »(١) القول فى هذا عند قوله تعالى : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ » وقد ذكرناه فى الكتاب الأسنى مستوفى . قال القشيرى : قال قوم هو صفة زائدة على الذات لاتكيف ، يحصل بها الإقبال على من أراد الربّ تخصيصه بالإكرام . والصحيح أن يقال وجهه وجوده وذاته ، يقال : هذا وجه الأمر ووجه الصواب وعين الصواب . وقيل : أى يبقى الظاهر بأدلته كظهور الإنسان بوجهه . وقيل : وتبقى الجهة التى يتقرب بها إلى الله . ﴿ ذُو الْجَلَالِ ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه وٱستحقاقه صفات المدح ؛ يقال : جَلَّ الشيءُ أى عَظُم وأجللته أى عظّمته ، والجلال ٱسم من جلّ . ﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أى هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك ؛ كما تقول : أنا أكرمك عن هذا ؛ ومنه إكرام الأنبياء والأولياء . وقد أتينا على هذين الأسمين لغة ومعنى فى الكتاب الأسنى مستوفى . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أَلِظُّوا بيا ذا الجلالِ والإكرام". وروى أنه من قول ٱبن مسعود ومعناه : ٱلزموا ذلك فى الدعاء . قال أبو عبيد :

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٣ فما بعدها طبعة ثانية .

الإلظاظ لزوم الشيء والمثابرة عليه . ويقال الإلظاظ الإلحاح . وعن سعيد المقبري أن رجلا ألحّ فجعل يقول : اللهم ياذا الجلال والإكرام ! اللهم يا ذا الجلال والإكرام ! فنودى : إنى قد سمعت فما حاجتك ؟

قوله تعالى : يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قيل : المعنى يسأله من في السموات الرحمة ، ومن في الأرض الرزق . وقال ابن عباس وأبو صالح : أهل السموات يسألونه المغفرة ولا يسألونه الرزق ، وأهل الأرض يسألونهما جميعا . وقال ابن جريج : وتسأله الملائكة الرزق لأهل الأرض فكانت المسئلتان جميعا من أهل السماء وأهل الأرض لأهل الأرض . وفي الحديث : " إن من الملائكة ملكا له أربعة أوجه كوجه الإنسان وهو يسأل الله الرزق لبني آدم ووجه كوجه الأسد وهو يسأل الله الرزق للسباع ووجه كوجه الثور وهو يسأل الله الرزق للبهائم ووجه كوجه النسر وهو يسأل الله الرزق للطير ". وقال ابن عطاء : إنهم سألوه القوة على العبادة . ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ هذا كلام مبتدأ . وانتصب « كُلَّ يَوْمٍ » ظرفا ، لقوله : « فِي شَأْنٍ » أو ظرفا للسؤال؛ ثم يبتدئ « هُوَ فِي شَأْنٍ » . وروى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » قال : " من شأنه أن يغفر ذنبا و يفرج كربا و يرفع قوما و يضع آخرين ". وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » قال : " يغفر ذنبا ويكشف كربا ويجيب داعيا " . وقيل : من شأنه أن يحيي ويميت ، ويعز ويذل ، ويرزق ويمنع . وقيل : أراد شأنه في يومي الدنيا والآخرة . قال ابن بحر : الدهر كله يومان ، أحدهما مدة أيام الدنيا ، والآخر يوم القيامة ؛ فشأنه سبحانه وتعالى في أيام الدنيا الابتلاء والاختبار بالأمر والنهي والإحياء والإماتة والإعطاء والمنع ، وشأنه يوم القيامة الجزاء والحساب ،

والثواب والعقاب . وقيل : المراد بذلك الإخبار عن شأنه في كل يوم من أيام الدنيا وهو الظاهر . والشأن في اللغة الخطب العظيم والجمع الشئون والمراد بالشأن هاهنا الجمع كقوله تعالى : « ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » . وقال الكلبي : شأنه سوق المقادير إلى المواقيت . وقال عمرو ابن ميمون في قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » من شأنه أن يميت حيًّا، ويُقِرَّ في الأرحام ماشاء، ويعزّ ذليلا، ويذلّ عزيزا . وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فلم يعرف معناها، واستمهله إلى الغد فانصرف كئيبا إلى منزله فقال له غلام له أسود : ماشأنك؟ فأخبره . فقال له : عد إلى الأمير فإني أفسرها له، فدعاه فقال : أيها الأمير! شأنه أن يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيما، ويسقم سليما، ويبتلي معافى، ويعافي مبتلًى، ويعز ذليلا، ويذل عزيزا، ويفقر غنيا، ويغني فقيرا؛ فقال له : فَرَّجت عني فَرَّج الله عنك، ثم أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام؛ فقال : يامولاي ! هذا من شأن الله تعالى . وعن عبد الله ابن طاهر أنه دعا الحسين بن الفضل وقال له : أشكلت علي ثلاث آيات دعوتك لتكشفها لي؛ قوله تعالى : « فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » وقد صح أن الندم توبة . وقوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » وقد صح أن القلم جَفَّ بما هو كائن إلى يوم القيامة . وقوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز ألا يكون الندم توبة في تلك الأمة، ويكون توبة في هذه الأمة؛ لأن الله تعالى خص هذه الأمة بخصائص لم تشاركهم فيها الأمم . وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ولكن على حمله . وأما قوله : « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ » فإنها شئون يبديها لا شئون يبتديها . وأما قوله : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » فمعناه ليس له إلا ماسعى عدلا ولي أن أجزيه بواحدة ألفًا فضلا؛ فقام عبد الله وقبل رأسه وسوّغ خراجه .

قوله تعالى : سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ يقال : فَرَغت من الشغل أفرُغ فُروغا وفَراغا وتفرغت لكذا وآستفرغت مجهودى فى كذا أى بذلته . والله تعالى ليس له شغل يفرغ منه، إنما المعنى سنقصد لمجازاتكم أو محاسبتكم، وهذا وعيد وتهديد لهم كما يقول القائل لمن يريد تهديده : إذًا أتفرغ لك أى أقصدك . وفرغ بمعنى قصد ؛ وأنشد آبن الأنبارى فى مثل هذا لجرير :

ألانَ وقَدْ فَرَغْتُ إلى نُمَيْرٍ * فهذا حِينَ كُنْتُ لها عَذابَا

يريد وقد قصدت . وقال أيضا[(١)] وأنشده النحاس :

* فَرَغْتُ إلى العَبْدِ المقَيَّدِ فى الحِجْلِ *

وفى الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع الأنصار ليلة العقبة ، صاح الشيطان : يا أهل الجُبَاجِب[(٢)] ! هذا مُذَمَّم يبايع بنى قَيْلة على حربكم ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هذا إِزْبُ[(٣)] العقبة أَمَا والله يا عدوّ الله لأتفرغنّ لك" أى أقصد إلى إبطال أمرك . وهذا آختيار القتبي والكسائى وغيرهما . وقيل : إن الله تعالى وعد على التقوى وأوعد على الفجور، ثم قال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » مما وعدناكم ونوصل كُلًّا إلى ما وعدناه، أى أقسم ذلك وأتفرغ منه . قاله الحسن ومقاتل وآبن زيد . وقرأ عبد الله وأبيّ « سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ » وقرأ الأعمش وإبراهيم

(١) أى جرير . (٢) الجباجب : منازل منى . (٣) الإزب : ضبطه الحلبي فى سيرته بكسر الهمزة وإسكان الزاى ، وهو هنا آسم شيطان .

« سَيُفْرَغُ لَكُمْ » بضم الياء وفتح الراء على ما لم يسم فاعله . وقرأ آبن شهاب والأعرج « سَنَفْرَغُ لَكُمْ » بفتح النون والراء ؛ قال الكسائي : هي لغة تميم يقولون فَرِغ يَفْرَغ ، وحكى أيضا فَرَغ يَفْرَغ ورواهما هبيرة عن حفص عن عاصم . وروى الجُعْفي عن أبي عمرو « سَيَفْرَغُ » بفتح الياء والراء ، ورويت عن آبن هُرْمُز . وروى عن عيسى الثقفي « سَنِفْرَغُ لَكُمْ » بكسر النون وفتح الراء وقرأ حمزة والكسائي « سَيَفْرُغُ لَكُمْ » بالياء . الباقون بالنون وهي لغة تهامة . والثَّقَلان الجنّ والإنس ؛ سميا بذلك لعظم شأنهما بالإضافة إلى ما في الأرض من غيرهما بسبب التكليف . وقيل : سموا بذلك لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتا ؛ قال الله تعالى : « وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا » ومنه قولهم : أعطه ثقله أي وزنه . وقال بعض أهل المعاني : كل شيء له قدر ووزن ينافس فيه فهو ثقل . ومنه قيل لبيض النعام ثقل ؛ لأن واجده وصائده يفرح به إذا ظفر به . وقال جعفر الصادق : سميا ثقلين ؛ لأنهما مثقلان بالذنوب . وقال : « سَنَفْرُغُ لَكُمْ » بجمع ، ثم قال : « أَيُّهَ الثَّقَلَانِ » لأنهما فريقان وكل فريق جمع ، وكذا قوله تعالى : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ » ولم يقل إن آستطعتما ؛ لأنهما فريقان في حال الجمع ، كقوله تعالى : « فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ » و « هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ » ولو قال : سنفرغ لكما ، وقال : إن آستطعتما لجاز (١) . وقرأ أهل الشام « أَيُّهُ الثَّقَلَانِ » بضم الهاء . الباقون بفتحها وقد تقدّم (٢) .

مسئلة — هذه السورة و « الأحقاف » و « قل أوحى » دليل على أن الجنّ مخاطبون مكلّفون مأمورون منهيون مثابون معاقبون كالإنس سواء ، مؤمنهم كمؤمنهم ، وكافرهم ككافرهم ، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ ذكر آبن المبارك وأخبرنا جويبر عن الضحاك قال : إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشققت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الربّ ، فينزلون إلى الأرض فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر الله السماء التي تليها

(١) أي في غير القرآن . (٢) راجع جـ ١٢ ص ٢٣٨ فما بعدها وجـ ١٦ ص ٩٧ فما بعدها .

كذلك فينزلون فيكونون صفًّا من خلف ذلك الصفّ ، ثم السماء الثالثة ثم الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة ثم السابعة ، فينزل الملَك الأعلى فى بهائه وملكه ومجنّبته اليسرى جهنم ، فيسمعون زفيرها وشهيقها ، فلا يأتون قُطْرا من أقطارها إلا وجدوا صفوفا من الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » والسلطانُ العذر . الضحاك أيضا : بينما الناس فى أسواقهم آنفتحت السماء ، ونزلت الملائكة ، فتهرب الجنّ والإنس ، فتحدق بهم الملائكة ، فذلك قوله تعالى : « لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » ذكره النحاس .

قلت : فعلى هــذا يكون فى الدنيا ، وعلى ما ذكر آبن المبارك يكون فى الآخرة . وعن الضحاك أيضا : إن آستطعتم أن تهربوا من الموت فآهربوا . وقال آبن عباس : إن آستطعتم أن تعلموا ما فى السموات وما فى الأرض فآعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان أى ببينة من الله تعالى . وعنه أيضا أن معنى « لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ » لا تخرجون من سلطانى وقدرتى عليكم . قتادة : لا تنفذون إلا بملك وليس لكم ملك . وقيل : لا تنفذون إلا إلى سلطان الباء بمعنى إلى ؛ كقوله تعالى : « وَقَدْ أَحْسَنَ بِي » أى إلىّ . قال الشاعر (١) :

أَسِيئى بِنا أو أحسِنِى لا مَلولَةٌ * لدينا ولا مَقْلِيَّةٌ إن تَقَلَّتِ

وقوله : « فَانْفُذُوا » أمر تعجيز .

قوله تعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ ﴾ أى لو خرجتم أرسل عليكم شواظ من نار ، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ . وقيل : ليس هــذا متعلقا بالنفوذ بل أخبر أنه يعاقب العصاة عذابا بالنار . وقيل : أى بآلاءِ ربكما تكذبان يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس عقوبة على ذلك التكذيب . وقيل : يحاط على الخلائق بالملائكة وبلسان من نار ثم ينادون « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » فذلك النار ، قوله : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ »

(١) هو كثير عزة .

والشواظ في قول ابن عباس وغيره اللهب الذي لا دخان له . والنحاس : الدخان الذي لا لهب فيه ؛ ومنه قول أمية بن أبي الصّلْت يهجو حسان بن ثابت رضي الله عنه كذا وقع في تفسير الثعلبيّ والماورديّ بن أبي الصّلْت ، وفي « الصحاح » و « الوقف والابتداء » لابن الأنباري أمية بن خلف قال :

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ حَسّانَ عَنِّي * مُغَلْغَلَةً تَدِبُّ إلى عُكَاظِ
أَلَيْسَ أبوكَ فينا كان قَيْنًا * لَدَى الْقَيْنَاتِ فَسْلًا في الحِفَاظِ
يَمَانِيًّا يَظَلُّ يَشُدُّ كِيرًا * ويَنْفُخُ دائبًا لَهَبَ الشُّوَاظِ

فأجابه حسان رضي الله عنه فقال :

هَجَوْتَكَ فاخْتَضَعْتَ لها بِذُلٍّ * بِقَافِيَةٍ تَأَجَّجُ كالشُّوَاظِ (١)

وقال رؤبة :

إنّ لهم مِن وَقْعِنَا أَقْيَاظَا * ونارَ حربٍ تُسْعِرُ الشُّوَاظَا

وقال مجاهد : الشّواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار . الضحاك : هو الدخان الذي يخرج من اللهب ليس بدخان الحطب . وقاله سعيد بن جبير . وقد قيل : إن الشواظ النار والدخان جميعا . قاله أبو عمرو وحكاه الأخفش عن بعض العرب . وقرأ ابن كثير «شِواظ» بكسر الشين الباقون بالضم وهما لغتان؛ مثل صُوَار وصِوَار لقطيع البقر . ﴿ وَنُحَاسٌ ﴾ قراءة العامة « وَنُحَاسٌ » بالرفع عطف على « شُوَاظ » . وقرأ ابن كثير وابن محيصن ومجاهد وأبو عمرو « ونُحَاسٍ » بالخفض عطفا على النار . قال المهدوي : من قال إن الشّواظ النار والدخان جميعا فالجر في « نحاس » على هذا بين ، فأما الجر على قول من جعل الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه فبعيد لا يسوغ إلا على تقدير حذف موصوف كأنه قال : « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا

(١) وفي التاج بدل هذا البيت :

مجللة تعممه شنارا * مضرمة تأجج كالشواظ

والفسل من الرجال الرذل الذي لا مروءة له ولا جلد والمفسول مثله .

شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ» وشيء من نحاس فشيء معطوف على شواظ ، ومن نحاس جملة هي صفة لشيء ، وحذف شيء وحذفت من لتقدم ذكرها في « مِن نار » كما حذفت على من قولهم : على من تنزل أنزل [أي](١) عليه . فيكون « نُحَاس » على هـذا مجرورا بمن المحذوفـة . وعن مجاهـد وحميد وعكرمة وأبي العـالية « ونِحاسٍ » بكسر النون لغتـان كالشِّواظ والشُّواظ . والنِّحاس بالكسر أيضا الطبيعة والأصل ؛ يقال : فلان كريم النِّحاس والنُّحاس أيضا بالضم أي كريم النِّجار . وعن مسلم بن جُنْدب « ونَحْسٌ » بالرفع . وعن حنظلة بن مرّة بن النعمان الأنصاري « ونَحْسٍ » بالجـر عطف على نار . ويجـوز أن يكون « ونِحاسٍ » بالكسر جمع نَحْسٍ كصَعْب وصِعاب « ونُحُسٌ » بالرفع عطف على « شـواظ » وعن الحسن « ونُحُسٍ » بالضم [فيهما](٢) جمع نَحْس . ويجوز أن يكون أصله ونُحُوس فقصر بحذف واوه حسب ما تقدّم عند قوله : « وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ »(٣) . وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة « وَنَحُسُّ » بفتح النون وضم الحاء وتشديد السين من حَسَّ يَحُسّ حَسًّا إذا آستأصل ؛ ومنه قوله تعالى : « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ » والمعنى ونقتل بالعذاب . وعلى القراءة الأولى «ونُحَاسٌ» فهو الصُّفْر المذاب يُصَبُّ على رءوسهم . قاله مجاهد وقتـادة وروى عن آبن عبـاس . وعن آبن عبـاس أيضا وسعيد آبن جبير أن النحاس الدخان الذي لا لهب فيـه ؛ وهو معنى قول الخليل ؛ وهو معروف في كلام العرب بهذا المعنى ؛ قال نابغة بني جَعْدة :

يُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيـ * ـطِ لم يَجْعَلِ اللهُ فيه نُحَـاسَا

قال الأصمعي : سمعت أعرابيا يقول السَّليط دهن السِّمسم بالشام ولا دخان فيه . وقال مقاتل : هي خمسة أنهار من صُفْر مُذَاب ، تجري من تحت العرش على رءوس أهل النار ؛ ثلاثة أنهار على مقدار الليل ونهران على مقدار النهار . وقال آبن مسعود : النُّحَاس المهـل . وقال الضحاك : هو دُرْدِيّ الزّيت المغلي . وقال الكسائي : هو النار التي لهـا ريح شديدة . ﴿ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ أي لا ينصر بعضكم بعضا يعني الجن والإنس .

---

(١) زيادة يقتضيها السياق .

(٢) الذي في الأصول : « بالضم فيهن » وما أثبتناه هو ما عليه كتب التفسير أي بضمتين وكسر السين .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ (٣٧)
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ
وَلَا جَآنٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠)

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أى ٱنصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ الدِّهان الدهن؛ عن مجاهد والضحاك وغيرهما. والمعنى أنها صارت فى صفاء الدهن، والدهان على هذا جمع دُهْن. وقال سعيد بن جبير وقتادة: المعنى فكانت حمراء. وقيل: المعنى تصير فى حمرة الورد وجريان الدهن؛ أى تذوب مع الآنشقاق حتى تصير حمراء من حرارة نار جهنم وتصير مثل الدُّهْن لرقتها وذوبانها. وقيل: الدّهان الجلد الأحمر الصّرف. ذكره أبو عبيد والفراء. أى تصير السماء حمراء كالأديم لشدة حر النار. ٱبن عباس: المعنى فكانت كالفرس الوَرْد؛ يقال للكُمَيْت وَرْدٌ إذا كان يتلون بألوان مختلفة. قال ٱبن عباس: الفرس الوَرْدُ؛ فى الربيع كُمَيت أصفر، وفى أوّل الشتاء كُمَيت أحمر، فإذ ٱشتد الشتاء كان كُمَيتا أغبر. وقال الفراء: أراد الفرس الوَرْدِيّة، تكون فى الربيع وَرْدة إلى الصُّفْرة، فإذا ٱشتد البرد كانت وَرْدَة حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وَرْدة إلى الغبرة؛ فشبه تلون السماء بتلون الوَرْد من الخيل. وقال الحسن: «كَالدِّهَانِ» أى كصبّ الدُّهن فإنك إذا صببته ترى فيه ألوانا. وقال زيد ٱبن أسلم: المعنى أنها تصير كعَكَر الزيت، وقيل: المعنى أنها تمر وتجيء. قال الزجاج: أصل الواو والراء والدال للمجيء والإتيان. وهذا قريب مما قدمناه من أن الفرس الوَرْدة تتغير ألوانها وقال قتادة: إنها اليوم خضراء وسيكون لها لون أحمر. حكاه الثعلبي. وقال الماوردي: وزعم المتقدمون أن أصل لون السماء الحُمْرة، وأنها لكثرة الحوائل وبعد المسافة ترى بهذا اللون الأزرق، وشبهوا ذلك بعروق البدن؛ وهى حمراء كحمرة الدم وترى بالحائل زرقاء، فإن كان هذا صحيحا فإن السماء لقربها من النواظر يوم القيامة وٱرتفاع الحواجز ترى حمراء، لأنه أصل لونها. والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ هذا مثل قوله : « وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » وأن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم فيسأل فى بعض ولا يسأل فى بعض ، وهذا قول عكرمة . وقيل : المعنى لا يسئلون إذا آستقروا فى النار . وقال الحسن وقتادة : لا يسئلون عن ذنوبهم؛ لأن الله حفظها عليهم، وكتبتها عليهم الملائكة . رواه العوفى عن آبن عباس . وعن الحسن ومجاهد أيضا : المعنى لا تسأل الملائكة عنهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم؛ دليله مابعده . وقاله مجاهد عن آبن عباس . وعنه أيضا فى قوله تعالى : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » وقوله : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » وقال : لا يسألهم ليعرف ذلك منهم؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكنه يسألهم لم عملتموها سؤال توبيخ . وقال أبو العالية : لا يسأل غير المجرم عن ذنب المجرم . وقال قتادة : كانت المسئلة قبل ، ثم ختم على أفواه القوم وتكلمت الجوارح شاهدة عليهم . وفى حديث أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم وفيه قال : "فيلقى العبدَ فيقول أى فُلْ[(1)] ألم أُكْرِمْك وأسوِّدْك وأزوِّجْك وأسخِّر لك الخيلَ والإبلَ وأَذَرْك تَرْأَسُ وتَرْبَعُ فيقول بلى فيقول أفظننت أنك مُلَاقِىّ فيقول لا فيقول إنى أنساك كما نسيتنى ثم يلقى الثانى فيقول له مثل ذلك بعينه ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول يا رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت وصمت وتصدّقت ويثنى بخير ما آستطاع فيقول هاهنا إذًا ثُمَّ يقال له الآن نبعث شاهدنا عليك فيفتكر فى نفسه من هذا الذى يشهد على فيُختَم على فِيهِ ويقال لفخذه ولحمه وعظامه آنطقى فتنطق فخذُه ولحمُه وعظامُه بعمله وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يسخط الله عليه" وقد مضى هذا الحديث فى « حم السجدة » وغيرها[(2)] .

---

(١) أى فل : معناه يا فلان وليس ترخيما له ، وإنما هى صيغة آرتجلت فى النداء، ولا تقال إلا بسكون اللام . وقال قوم إنه ترخيم فلان .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٨ فما بعدها وص ٣٥٠ منه أيضا طبعة أولى وثانية .

قوله تعالى : ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يُعرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ قال الحسن : سواد الوجه وزرقة الأعين ، قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » وقال تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » . ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ أى تأخذ الملائكة بنواصيهم أى بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم فيقذفونهم فى النار . والنواصى جمع ناصية . وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره . وعنه : يؤخذ برجلى الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ثم يلقى فى النار . وقيل : يفعل ذلك به ليكون أشد لعذابه وأكثر لتشويهه . وقيل : تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بناصيته وتجره على وجهه ، وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه .

قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى يقال لهم هذه النار التى أخبرتم بها فكذبتم . ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ قال قتادة : يطوفون مرة بين الحميم ومرة بين الجحيم ، والجحيم النار والحميم الشراب . وفى قوله : « آنٍ » ثلاثة أوجه ، أحدها أنه الذى آنتهى حَرُّه وحميمه . قاله آبن عباس وسعيد بن جبير والسدى ؛ ومنه قول النابغة الذُّبْيانى :

وَتُخْضَبُ لِحْيَةٌ غَدَرتْ وخَانَتْ * بِأَحمرَ من نَجِيعِ الجوفِ آنِ (١)

قال قتادة : « آنٍ » طبخ منذ خلق الله السموات والأرض ؛ يقول : إذا آستغاثوا من النار جعل غياثهم ذلك . وقال كعب : « آنٍ » واد من أودية جهنم يجتمع فيه صديد أهل

(١) نجيع الجوف : يعنى الدم الخالص . وقبل البيت :

فإن يقدر عليك أبو قبيس * تمط بك المعيشة فى هوان

النار فيغمسون بأغلالهم فيه حتى تخلع أوصالهم، ثم يخرجون منها وقد أحدث الله لهم خلقا جديدا فيلقون في النار، فذلك قوله تعالى : « يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . وعن كعب : أيضا أنه الحاضر . وقال مجاهد : إنه الذي قد آن شربه وبلغ غايته . والنعمة فيما وصف من هول القيامة وعقاب المجرمين ما في ذلك من الزجر عن المعاصي والترغيب في الطاعات . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتى على شاب في الليل يقرأ « فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ » فوقف الشاب وخنقته العَبْرة وجعل يقول : وَيْحي من يوم تنشق فيه السماء وَيْحي ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "وَيْحَكَ يافتى مثلها فو الذي نفسي بيده لقد بكت ملائكة السماء لبكائك" .

قوله تعالى : وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧)

قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — لما ذكر أحوال أهل النار ذكر ما أعدّ للأبرار . والمعنى خاف مقامه بين يدى ربه للحساب فترك المعصية . فـ « مقام » مصدر بمعنى القيام . وقيل : خاف قيام ربه عليه أى إشرافه وآطلاعه عليه؛ بيانه قوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » . وقال مجاهد وإبراهيم النخعى : هو الرجل يَهُمّ بالمعصية فيذكر الله فيدعها من خوفه .

الثانية — هذه الآية دليل على أن من قال لزوجه : إن لم أكن من أهل الجنة فأنت طالق أنه لا يحنث إن كان هَمّ بالمعصية وتركها خوفا من الله وحياء منه . وقال به سفيان الثورىّ وأفتى به . وقال محمد بن علىّ الترمذىّ : جنة لخوفه من ربه وجنة لتركه شهوته . وقال آبن عباس : من خاف مقام ربه بعد أداء الفرائض . وقيل : المقام الموضع . أى خاف مقامه بين يدى ربه للحساب كما تقدّم . ويجوز أن يكون المقام للعبد ثم يضاف إلى الله ، وهو كالأجل فى قوله : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ » وقوله فى موضع آخر :

« إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ » . ﴿ جَنَّتَانِ ﴾ أي لمن خاف جنتان على حدة، فلكل خائف جنتان . وقيل : جنتان لجميع الخائفين ؛ والأول أظهر . وروى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الجنتان بستانان في عرض الجنة كل بستان مسيرة مائة عام في وسط كل بستان دار من نور وليس منها شيء إلا يهتز نعمة وخضرة قرارها ثابت وشجرها ثابت" ذكره المهدوى والثعلبي أيضا من حديث أبي هريرة . وقيل : إن الجنتين جنته التي خلقت له وجنة ورثها . وقيل : إحدى الجنتين منزله والأخرى منزل أزواجه كما يفعله رؤساء الدنيا . وقيل : إن إحدى الجنتين مسكنه والأخرى بستانه . وقيل : إن إحدى الجنتين أسافل القصور والأخرى أعاليها . وقال مقاتل : هما جنة عدن وجنة النعيم . وقال الفراء : إنما هي جنة واحدة فثنى لرءوس الآى . وأنكر القتبي هذا وقال : لا يجوز أن يقال خزنة النار عشرون وإنما قال تسعة عشر لمراعاة رءوس الآى . وأيضا قال : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » . وقال أبو جعفر النحاس: قال الفراء قد تكون جنة فتثنى في الشعر ؛ وهذا القول من أعظم الغلط على كتاب الله عز وجل ، يقول الله عز وجل : « جَنَّتَانِ » ويصفهما بقوله « فِيهِمَا » فيدع الظاهر ويقول : يجوز أن تكون جنة ويحتج بالشعر . وقيل : إنما كانتا اثنتين ليضاعف له السرور بالتنقل من جهة إلى جهة . وقيل : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه خاصة حين ذكر ذات يوم الجنة حين أزلفت والنار حين برزت . قاله عطاء وابن شوذب ؛ وقال الضحاك : بل شرب ذات يوم لبنا على ظمإ فأعجبه ، فسأل عنه فأخبر أنه من غير حل فاستقاءه ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه ؛ فقال : " رحمك الله لقد أنزلت فيك آية " وتلا عليه هذه الآية .

قوله تعالى : ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾
فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾

قوله تعـالى : ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ قال ٱبن عباس وغيره : أى ذواتا ألوان من الفاكهة الواحد فنّ . وقال مجاهـد : الأفنان الأغصان واحدها فنن؛ قال النابغة :

بكاءَ حَمامَــةٍ تَدْعـو هَــدِيلًا * مُفَجَّعَــةٍ عــلى فَــنَنٍ تُغَـنِّى (١)

وقال آخر يصف طائرين :

باتا على غُصْنِ بَانٍ فى ذُرَى فَنَنٍ * يُرَدِّدانِ لُحُــونًا ذاتَ أَلْوانِ

أراد باللحون اللغات . وقال آخر :

ما هاجَ شَوْقَكَ مِن هَـدِيلِ حمامةٍ * تَدْعو على فَـنَنِ الغُصــونِ حَمامَا

تدعو أبا فَـرْخَيْنِ صادف ضارِيًا * ذا مِخْلَبَيْنِ مِن الصُّـقورِ قَطَامَا

والفنن جمعه أفنان ثم الأفانين؛ وقال يصف رَحًى :

* لهـا زِمامٌ مِن أفانِينِ الشَّجَرْ *

وشجرة فَنَّاء أى ذات أفنان وفنواء أيضا على غير قياس . وفى الحديث : "إن أهل الجنة مُرْدٌ مكَحَّلون أولو أفانين" يريد أولو فَنَن وهو جمع أفنان، وأفنان جمع فنن [وهو الخُصْلة (٢)] من الشّعر شبه بالغصن . ذكره الهروى . وقيل : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » أى ذواتا سعة وفضل على ما سـواهما؛ قاله قتـادة . وعن مجـاهد أيضا وعكرمة : إن الأفنـان ظل الأغصـان على الحيطان .

قوله تعـالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ أى فى كل واحدة منهما عين جارية . قال ٱبن عباس : تجريان ماء بالزيادة والكرامة من الله تعالى على أهل الجنة . وعن ٱبن عباس أيضا والحسن : تجريان بالمـاء الزّلال؛ إحدى العينين التسنيم والأخرى السلسبيل . وعنه أيضا :

(١) قبل هذا البيت :

أسائلها وقد سفحت دموعى * كأن مفيضهن غروب شن

(٢) الزيادة من النهاية لابن الأثير .

عينان مثل الدنيا أضعافا مضاعفة ، حصباؤهما الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وترابهما الكافور، وحمأتهما المسك الأذفر، وحافتاهما الزعفران . وقال عطية : إحداهما من ماء غير آسن ، والأخرى من خمر لذة للشاربين . وقيل : تجريان من جبل من مسك . وقال أبو بكر الوراق : فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه في الدنيا تجريان من مخافة الله عز وجل .

قوله تعالى : فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ أي صنفان وكلاهما حلو يستلذ به . قال ابن عباس : ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو. وقيل : ضربان رطب ويابس لا يقصر هـذا عن ذلك في الفضل والطِّيب . وقيل : أراد تفضيل هاتين الجنتين على الجنتين اللتين دونهما ، فإنه ذكر ها هنا عينين جاريتين وذكر ثَمَّ عينين نضّاختين بالماء والنّضخ دون الجري؛ فكأنه قال : في تينك الجنتين من كل فاكهة نوع، وفي هذه الجنة من كل فاكهة نوعان .

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ ﴾ هو نصب على الحال والفرش جمع فراش . وقرأ أبو حَيْوة «فُرْشٍ» بإسكان الراء . ﴿ بَطَائِنُهَا ﴾ جمع بطانة وهي التي تحت الظهارة . والإستبرق ما غلظ من الديباج وخشن؛ أي إذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا فما ظنك بالظهارة . قاله ابن مسعود وأبو هريرة . وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من إستبرق فما الظواهر ؟ قال هذا مما قال الله : « فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ » . وقال ابن عباس : إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم ، فأما الظواهر فلا يعلمها إلا الله . وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ظواهرها نور يتلألأ " . وعن الحسن : بطائنها من إستبرق وظواهرها من نور جامد . وعن الحسن أيضا : البطائن هي الظواهر .

وهو قول الفراء، وروى عن قتادة . والعرب تقول للظهر بطنا، فيقولون : هذا ظهر السماء وهـذا بطن السماء لظاهرها الذى تراه . وأنكر ابن قتيبة وغيره هذا ، وقالوا : لا يكون هذا إلا فى الوجهين المتساويين إذا ولى كلُّ واحد منهما قوماً ، كالحائط بينك وبين قوم ؛ وعلى ذلك أمر السماء . ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ الجَنَى ما يُجتَنَى من الشجر؛ يقال : أتانا بجَنَـاة طيبة لكل ما يجتنى . وثمر جنِيّ على فَعِيل حين جُنِى ؛ وقال(١) :

هـــذا جَنَـاىَ وخِيَـاره فِيـــهْ * إذْ كُلُّ جانٍ يَـدُهُ إلى فِيـهْ

وقرئ « جِنَى » بكسر الجيم . « دانٍ » قريب . قال ابن عباس : تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولىُّ الله إن شاء قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء مضطجعا لا يرد يدَه بُعْدٌ ولا شوك .

قوله تعـالى : ﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : « فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » قيل : فى الجنتين المذكورتين . قال الزجاج : وإنمـا قال : « فِيهِنَّ » ولم يقل فيهما ؛ لأنه عنى الجنتين وما أعدّ لصاحبهما من النعيم . وقيل : « فِيهِنَّ » يعود على الفرش التى بطائنها من إستبرق؛ أى فى هذه الفرش «قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» أى نساء قاصرات الطرف قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم. وقـد مضى فى « والصافات(٢) » ووحد الطـرف مع الإضافة إلى الجمع لأنه فى معنى المصدر؛ من طَرَفت عينـه تطرِف طَرْفا ، ثم سميت العين بذلك فأدّى عن الواحد والجمع ؛ كقولهم : قوم عَدْل وصَوْم .

(١) هو عمرو بن عدى اللخمى ابن أخت جذيمة الأبرش ، وهو مثل يضرب للرجل يؤثر صاحبه بخيار ما عنده .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

الثانيــة — قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » اى لم يصبهنّ بالجماع قبل أزواجهنّ هولاء أحد . الفراء : والطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية طَمَثها يَطمِثها ويَطمُثها طَمْثا إذا افتضها . ومنه قيل : امرأة طامث أى حائض . وغير الفراء يخالفه فى هذا ويقول : طَمَثها بمعنى وطئها على أى الوجوه كان . إلا أن قول الفراء أعرف وأشهر . وقرأ الكسائى « لَمْ يَطْمُثْهُنَّ » بضم الميم يقال : طَمَثت المرأةُ تَطمُث بالضم حاضت وطَمِثت بالكسر لغة فهى طامث؛ وقال الفرزدق :

وَقَعْنَ إلىَّ لم يُطْمَثْن قَبْلِي * وهنّ أَصَحُّ مِنْ بَيْضِ النَّعَامِ

وقيل : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » لم يمسسهن ؛ قال أبو عمرو : والطمث المسّ وذلك فى كل شىء يمّس . ويقال للرتع : ما طمث ذلك المرتع قبلنا أحدٌ ، وما طمث هذه الناقة حَبْل أى ما مسها عقال . وقال المبرِّد : أى لم يذللهن إنس قبلهم ولا جان والطمث التذليل . وقرأ الحسن « جَأَن » بالهمز .

الثالثة — فى هذه الآية دليل على أن الجنّ تغشى كالإنس ، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنيات . قال ضمرة : للؤمنين منهم أزواج من الحور العين فالإنسيات الإنس والجنيّات للجنّ . وقيل : أى لم يطمث ما وهب الله للؤمنين من الجنّ فى الجنة من الحور العين من الجنيّات جنّ ، ولم يطمث ما وهب الله للؤمنين من الإنس فى الجنّة من الحور العين من الإنسيات إنس ؛ وذلك لأن الجنّ لاتطأ بنات آدم فى الدنيا . ذكره القشيرى .

قلت : قد مضى فى « النمل »(1) القول فى هذا وفى « سبحان »(2) أيضا ، وأنه جائز أن تطأ بنات آدم . وقد قال مجاهد : إذا جامع الرجل ولم يسم انطوى الجان على إحليله فجامع معه فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » وذلك بأن الله تبارك وتعالى وصف الحور العين بأنه لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . يعلمك أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان ، وأن الحور العين قد برئن من هذا العيب ونزهن ، والطمث الجماع . ذكره بكماله الترمذى الحكيم ، وذكره المهدوى أيضا والثعلبى وغيرهما والله أعلم .

(1) راجع ج ١٣ ص ٢١١	(2) راجع ج ١٠ ص ٢٨٩

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ روى الترمذى عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلّة حتى يرى مخها " وذلك بأن الله تعالى يقول : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكا ثم استصفيته لأريته [من ورائه] (١) ويروى موقوفا. وقال عمرو بن ميمون : إن المرأة من الحور العين لتلبس سبعين حُلّة فيرى مخ ساقها من وراء ذلك ، كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء . وقال الحسن : هنّ فى صفاء الياقوت وبياض المرجان .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ «هَلْ» فى الكلام على أربعة أوجه؛ تكون بمعنى قد كقوله تعالى : « هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ » وبمعنى الاستفهام كقوله تعالى : « فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » وبمعنى الأمر كقوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » وبمعنى ما فى الجحد كقوله تعالى : « فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ » و « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » قال عكرمة : أى هل جزاء من قال لا إله إلا الله إلا الجنة . ابن عباس : ما جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة . وقيل : هل جزاء من أحسن فى الدنيا إلا أن يحسن إليه فى الآخرة؛ قاله ابن زيد . وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ » ثم قال " هل تدرون ماذا قال ربكم " قالوا الله ورسوله أعلم ؛ قال : " يقول ما جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة " . وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ

---

(١) الزيادة من صحيح الترمذى .

هذه الآية فقال : " يقول الله هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدى إلا أن أسكنه جنتي وحظيرة قُدْسى برحمتى" وقال الصادق : هل جزاء من أحسنت عليه فى الأزل إلا حفظ الإحسان عليه فى الأبد . وقال محمد بن الحنفية والحسن : هى مُسْجَلة للبر والفاجر؛ أى مرسلة على الفاجر فى الدنيا والبر فى الآخرة .

قوله تعالى : وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أى وله من دون الجنتين الأوليين جنتان أخريان . قال ابن عباس : ومن دونهما فى الدَّرَج . ابن زيد : ومن دونهما فى الفضل . ابن عباس : والجنات لمن خاف مقام ربه، فيكون فى الأوليين النخل والشجر، وفى الأخريين الزرع والنبات وما انبسط . الماوردى: ويحتمل أن يكون « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » لأتباعه لقصور منزلتهم عن منزلته، إحداهما للحور العين، والأخرى للولدان المخلّدين؛ ليتميز بهما الذكور عن الإناث . وقال ابن جريج : هى أربع : جنتان منها للسابقين المقربين « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ» و « عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » وجنتان لأصحاب اليمين « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » و « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » . وقال ابن زيد : إن الأوليين من ذهب للمقربين والأخريين من ورق لأصحاب اليمين . قلت : إلى هذا ذهب الحليمى أبو عبد الله الحسن بن الحسين فى كتاب منهاج الدين له، واحتج بما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ» إلى قوله « مُدْهَامَّتَانِ » قال : تانك للمقربين وهاتان لأصحاب اليمين . وعن أبى موسى الأشعرى نحوه . ولما وصف الله الجنتين أشار إلى الفرق بينهما فقال فى الأوليين : « فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ » وفى الأخريين « فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ » أى فوارتان ولكنهما ليستا كالجاريتين لأن النضخ دون الجرى . وقال فى الأوليين : « فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ » فعم ولم يخص وفى الأخريين « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ » ولم يقل من كل فاكهة ، وقال

فى الأولين : « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وهو الديباج وفى الأخريين « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ » والعبقرىّ الوشى ولاشك أن الديباج أعلى من الوشى ، والرفرف كِسَر الخباء ولا شك أن الفرش المعدّة للاتكاء عليها أفضل من فضل الخباء . وقال فى الأولين فى صفة الحور : « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » وفى الأخريين « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » وليس كل حسنٍ كحسن الياقوت والمرجان . وقال فى الأولين : « ذَوَاتَا أَفْنَانٍ » وفى الأخريين « مُدْهَامَّتَانِ » أى خضراوان كأنهما من شدّة خضرتهما سوداوان ، ووصف الأولين بكثرة الأغصان ، والأخريين بالخضرة وحدها ، وفى هذا كله تحقيق للمعنى الذى قصدنا بقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » ولعل مالم يذكر من تفاوت ما بينهما أكثر ممـا ذكر . فإن قيل : كيف لم يذكر أهـل هاتين الجنتين كما ذكر أهل الجنتين الأولين ؟ قيـل : الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه إلا أن الخائفين لهم مراتب ، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد رتبة فى الخوف من الله تعالى ، والجنتان الأخريان لمـن قصرت حاله فى الخوف من الله تعالى . ومذهب الضحاك أن الجنتين الأوليـين من ذهب وفضـة ، والأخريين من ياقوت وزمرّد وهما أفضل من الأولين ، وقوله : « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » أى ومن أمامهما ومن قبلهما . وإلى هـذا القول ذهب أبو عبـد الله الترمذى الحكيم فى نوادر الأصـول فقال : ومعـنى « وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ » أى دون هـذا إلى العرش ، أى أقرب وأدنى إلى العرش ، وأخذ يفضلهما على الأولين بمـا سنذكره عنه . وقال مقاتل : الجنتان الأوليـان جنة عدن وجنة النعيم ، والأخريان جنة الفردوس وجنة المأوى .

قوله تعـالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ أى خضراوان من الرِّىّ ؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال مجاهد : مسـودتان . والدُّهمة فى اللغة السواد ؛ يقال : فرس أدهم وبعير أدهم وناقة دهماء أى اشتدت زرقته حتى ذهب البياض الذى فيه ، فإن زاد على ذلك حتى اشـتد السواد فهو جَوْن . وادْهَمّ الفرسُ ادْهِمَامًا أى صـار أدهم وادهامّ الشيءُ ادهيامًا أى اسـوادّ ؛ قال الله

تعالى : « مُدْهَامَّتَانِ » أى سوداوان من شدة الخضرة من الرِّىّ ، والعرب تقول لكل أخضر أسود . وقال لَبِيد يرثى قتلى هَوَازِن :

وجاءوا بِـه(١) فى هَـوْدَجٍ وَوَرَاءَهُ ※ كَتَائِبُ خُضْرٌ فى نَسِيجِ السَّنَوَّرِ

السَّنَوَّر لَبُـوسٌ من قِدٍّ كالدِّرْع . وسميت قُرَى العراق سـوادا لكثرة خضرتها . ويقال لليل المظلم أخضر . ويقال : أباد الله خضراءهم أى سوادهم .

قوله تعـالى : فِيهِمَا عَيْنَـانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْـلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أى فوارتان بالمـاء ؛ عن آبن عباس . والنضخ بالخاء أكثر من النضح بالحاء . وعنه أن المعنى نَضَّاختان بالخير والبركة ؛ وقاله الحسن ومجاهد . آبن مسعود وآبن عباس أيضا وأنس : تَنْضَخ على أولياء الله بالمسك والعنبر والكافور فى دور أهل الجنة كما يَنْضَخ رش المطر . وقال سعيد بن جبير : بأنواع الفواكه والمـاء . الترمذى : قالوا بأنواع الفواكِهِ والنِّعَم والجوارِ المزيَّنات والدواب المسرَجات والثياب الملوَّنات . قال الترمذىّ : وهذا يدل على أن النضخ أكثر من الجرى . وقيل : تنبعان ثم تجريان .

قوله تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ قال بعض العلماء : ليس الرمان والنخل من الفاكهة ؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه إنمـا يعطف على غيره . وهـذا ظاهر الكلام . وقال الجمهور : هما من الفاكهة وإنمـا أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة ؛ كقوله تعـالى :

(١) وجاءوا به : يعنى قتادة بن مسلمة الحنفى .

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى » وقوله : « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » وقد تقدّم (١) . وقيل : إنما كررهما لأن النخل والرمان كانا عندهم في ذلك الوقت بمنزلة البُرّ عندنا ؛ لأن النخل عامة قوتهم ، والرمان كالثمرات (٢) ، فكان يكثر غرسهما عندهم لحاجتهم إليهما ، وكانت الفواكه عندهم من ألوان الثمار التي يعجبون بها ؛ فإنما ذكر الفاكهة ثم ذكر النخل والرمان لعمومهما وكثرتهما عندهم من المدينة إلى مكة إلى ما والاها من أرض اليمن ؛ فأخرجهما في الذكر من الفواكه وأفرد الفواكه على حدتها . وقيل : أُفردا بالذكر لأن النخل ثمره فاكهة وطعام، والرمان فاكهة ودواء، فلم يخلصا للتفكه ؛ ومنه قال أبو حنيفه رحمه الله، وهي المسئلة :

الثانيــة — إذا حلف لا يأكل فاكهة فأكل رمانا أو رُطَبا لم يحنث . وخالفه صاحباه والناس . قال ابن عباس : الرمانة في الجنة مثل البعير المُقتَّب . وذكر ابن المبارك قال : أخبرنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : نخل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وكرانيفها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مُقطَّعاتهم وحُلَلهم، وثمرها أمثال القِلال والدلاء، أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل وألين من الزُّبْد ليس فيه عَجَم . قال : وحدّثنا المسعوديّ عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة ، قال : نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القِلال كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى ، وإن ماءها ليجري في غير أخدود ، والعنقود اثنا عشر ذراعا .

قوله تعالى : فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١)

قوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ » يعني النساء الواحدة خَيْرة على معنى ذوات خير . وقيل : « خَيْرَات » بمعنى خَيِّرات نُخفِّف كهين ولين . ابن المبارك : حدثنا

(١) راجع ج ٢ ص ٣٦ طبعة ثانية و ج ٣ ص ٢٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) في حاشية الجمل نقلا عن القرطبي : والرمان كالشراب الخ .

الأوزاعيّ عن حسان بن عطية عن سعيد بن عامر قال : لو أن خَيْرة من « خيرات حسان » اطلعت من السماء لأضاءت لها ، ولقهر ضوء وجهها الشمس والقمر ، ولَنصيفٌ(١) تُكْساه خَيْرة خير من الدنيا وما فيها . « حِسَانٌ » أي حسان الخلق ، وإذا قال الله تعالى : « حِسَانٌ » فمن ذا الذي يقدر أن يصف حسنهن ! وقال الزهريّ وقتادة : « خَيْرَاتٌ » الأخلاق « حِسَانٌ » الوجوه . وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أمّ سلمة . وقال أبو صالح : لأنهنّ عَذَارى أبكار .

وقرأ قَتَادة وابن السَّمَيْقع وأبو رجاء العطارديّ وبكر بن حبيب السَّهْميّ « خَيِّرَاتٌ » بالتشديد على الأصل . وقد قيل : إنّ خَيْرات جمع خَيْر والمعنى ذوات خَيْر . وقيل : مختارات . قال الترمذيّ : فالخيرات ما اختارهنّ الله فأبدع خلقهنّ باختياره ، فاختيار الله لا يشبه اختيار الآدميين . ثم قال : « حِسَانٌ » فوصفهنّ بالحسن فإذا وصف خالق الحسن شيئا بالحسن فانظر ما هناك . وفى الأوليين ذكر بأنهن « قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » و « كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ » فانظر كم بين الخيرة وهى مختارة الله ، وبين قاصرات الطرف . وفى الحديث : "إن الحور يأخذ بعضهنّ بأيدى بعض ويتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بأحسن منها ولا بمثلها نحن الراضيات فلا نسخط أبدًا ونحن المقيمات فلا نَظعن أبدًا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبدًا ونحن خَيِّرَات حسان حبيبات لأزواج كرام" . خرجه الترمذى بمعناه من حديث عليّ رضى الله عنه . وقالت عائشة رضى الله عنها : إن الحور العين إذا قلن هذه المقالة أجابهنّ المؤمنات من نساء أهل الدنيا : نحن المصلِّيات وما صَلَّيتنّ ، ونحن الصائمات وما صُمْتنّ ، ونحن المتوضئات وما توضأتنّ ، ونحن المتصدِّقات وما تصدّقتنّ . فقالت عائشة رضى الله عنها : فغلبنهنّ والله .

الثانية — واختلف أيهما أكثر حسنا وأبهر جمالا الحور أو الآدميات؟ فقيل : الحور لما ذكر من وصفهنّ فى القرآن والسّنة ؛ ولقوله عليه الصلاة والسلام فى دعائه على الميت

(١) هو الخمار وقيل المعجر . النهاية .

فى الجنازة : "وأبدله زوجًا خيرا من زوجه" وقيل : الادميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف . وروى مرفوعا . وذكر ٱبن المبارك : وأخبرنا رِشْدِين عن ٱبن أَنْعُم(١) عن حبان ٱبن أبى جبلة ، قال : إن نساء الدنيا من دخل منهنّ الجنة فُضِّلن على الحور العين بما عملن فى الدنيا . وقد قيل : إن الحور العين المذكورات فى القرآن هنّ المؤمنات من أزواج النبيين والمؤمنين يُخْلَقن فى الآخرة على أحسن صورة ؛ قاله الحسن البصرى . والمشهور أن الحور العين لَسْنَ من نساء أهل الدنيا وإنما هنّ مخلوقات فى الجنة ؛ لأن الله تعالى قال : «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ » وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات ؛ ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ أقلّ ساكنى الجنّة النّساء " فلا يصيب كل واحد منهم ٱمرأة ، ووعدا لحور العين لجماعتهم ، فثبت أنهنّ من غير نساء الدنيا .

قوله تعالى : حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ﴾ « حُورٌ » جمع حوراء وهى الشديدة بياض العين الشديدة سوادها وقد تقدّم(٢) . « مَقْصُورَاتٌ » محبوسات مستورات «فى الْخِيَامِ» فى الحجال لسن بالطوافات فى الطرق ؛ قاله ٱبن عباس . وقال عمر رضى الله عنه : الخيمة دُرّة مجوّفة . وقاله ٱبن عباس . وقال : هى فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب . وقال الترمذىّ الحكيم أبو عبدالله فى قوله تعالى : « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ » بلغنا فى الرواية أن سحابة أمطرت من العرش فخلقت الحور من قَطَرات الرحمة ، ثم ضرب على كل واحدة منهنّ خيمة على شاطئ الأنهار سعتها أربعون ميلا وليس لها باب ، حتى إذا دخل ولىّ الله الجنة

(١) هو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (بفتح أوله وسكون النون وضم المهملة) .
(٢) راجع جـ ١٥ ص ٨٠ طبعة أولى أو ثانية .

آنصدعت الخيمة عن باب ليعلم ولىّ الله أن أبصار المخلوقين من الملائكة والخدم لم تأخذها، فهى مقصورة قد قصر بها عن أبصار المخلوقين . والله أعلم . وقال فى الأوليين : « فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ » قصرن طرفهنّ على الأزواج ولم يذكر أنهنّ مقصورات ، فدل على أن المقصورات أعلى وأفضل . وقال مجاهد : « مَقْصُورَاتٌ » قد قُصِرن على أزاجهنّ فلا يُردن بدلا منهم . وفى الصحاح : وقصرت الشيء أقصره قصرا حبسته ، ومنه مقصورة الجامع ، وقصرت الشيء على كذا إذا لم تجاوز به إلى غيره ، وآمرأة قَصِيرة وقَصُورة أى مقصورة فى البيت لا تترك أن تخرج ، قال كُثَيِّر :

وأنتِ التى حَبَّبْتِ كلَّ قَصِيرَةٍ * إلىَّ وما تَدْرِى بذاكَ القَصَائرُ
عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحِجَالِ ولم أُرِدْ * قِصَارَ الخُطَا شَرُّ النِّسَاءِ البَحَاتِرُ(١)

وأنشده الفراء قَصُورة، ذكره آبن السكيت . وروى أنس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مررت ليلة أُسرى بى فى الجنة بنهر حافتاه قِبَاب المرجان فنوديت منه السلام عليك يارسول الله فقلت ياجبريل من هؤلاء قال هؤلاء جوارٍ من الحور العين آستأذنّ ربهنّ فى أن يُسلِّمن عليك فأذن لهنّ فقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ونحن الناعمات فلا نَبْؤُس أبدًا ونحن الراضيات فلا نسخَط أبدا أزواج رجال كرام" ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الخِيَامِ » أى محبوسات حبس صيانةٍ وتكرمة . وروى عن أسماء بنت يزيد(٢) الأشهلية أنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ! إنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعدُ بيوتكم وحواملُ أولادكم ، فهل نشارككم فى الأجر ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "نعم إذا أحسنتن تَبَعُّل(٣) أزواجكنّ وطلبتن مرضاتهم" .

قوله تعالى : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ أى لم يمسسهن على ما تقدم قبل . وقراءة العامة «يَطْمِثْهُنَّ» بكسر الميم . وقرأ أبو حيوة الشامى وطلحة بن مُصرِّف والأعرج والشيرازى عن الكسائى

(١) البحاتر : جمع بحترة بضم الباء القصيرة المجتمعة الخلق .
(٢) فى نسخ الأصل بنت عبيد والتصحيح من التهذيب . (٣) مصاحبتهم فى الزوجية والعشرة .

بضم الميم في الحرفين . وكان الكسائي يكسر إحداهما ويضم الأخرى ويُخَـيِّر في ذلك ، فإذا رفع الأولى كسر الثانية وإذا كسر الأولى رفع الثانيـة . وهي قراءة أبي إسحق السَّبِيعي . قال أبو إسحق : كنت أصـلي خلف أصحاب علىّ فيرفعون الميم ، وكنت أُصَـلِّي خلف أصحـاب عبد الله فيكسرونها ، فآستعمل الكسائي الأثرين . وهما لغتان طَمُث وطَمِث مثل يَعرُشُون ويَعكُفُون ؛ فمن ضم فللجمع بين اللغتين ، ومن كسر فلأنها اللغة السائرة . وإنمـا أعاد قوله : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ » ليبين أن صفة الحور المقصورات في الخيام كصفة الحور القاصرات الطرف . يقول : إذا [قصرن](١) كانت لهنّ الخيام في تلك الحال .

قوله تعـالى : مُتَّـكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ الرفرف المحابس(٢) . وقال آبن عباس : الرفرف فضول الفرش والبسط . وعنه أيضا : الرفرف المحابس يتكئون على فضولها . وقاله قتادة . وقال الحسن والقرظي : هي البسط . وقال آبن عيينـة : هي الزرابي . وقال آبن كيسان : هي المرافق . وقاله الحسن أيضا . وقال أبو عبيـدة : هي حاشية الثوب . وقال الليث : ضرب من الثياب الخضر تبسط . وقيـل : الفرش المرتفعة . وقيل : كل ثوب عريض عند العرب فهو رفرف . قال آبن مقبل :

وإنّا لَـنَزّالونَ تَغْشَى نِعَـالُنَا * سَوَاقِطَ من أصنافِ رَيْطٍ ورفرفِ

وهـذه أقوال متقاربة . وفي الصحاح : والرفرف ثياب خضر تتخـذ منها المحابس الواحدة رَفْرَفة . وقال سعيد بن جبـير وآبن عباس أيضا : الرفرف رياض الجنـة وآشتقاق الرفرف

(١) في الأصول كلها : إذا ضجرن الخ والضجر لا يجوز في الجنة ولذا أثبتنا بدل ضجرن قصرن .

(٢) المحابس جمع محبس كمقعد ثوب يطرح على ظهر الفراش للنوم عليه . وفي نسخ : المجالس وكلا المعنيين صحيح كما في اللغـــة .

من رَفَّ يَرِفّ إذا ٱرتفع : ومنه رَفْرَفة الطائر لتحريكه جناحيه في الهواء وربما سموا الظَّلِيم رَفْرافا بذلك؛ لأنه يرفرف بجناحيه ثم يعدو، ورفرف الطائر أيضا إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه، والرفرف أيضا كِسَر الخباء وجوانب الدِّرْع وما تدلى منها؛ الواحدة رَفْرَفة . وفي الخبر في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم : فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه وَرَقة . أي رفع طرف الفسطاط . وقيل : أصل الرفرف من رَفَّ النبتُ يَرِفّ إذا صار غضًّا نضيرا . حكاه الثعلبي . وقال القتبي : يقال للشيء إذا كثر ماؤه من النِّعمة والغَضَاضة حتى كاد يهتز رَفَّ يَرِفّ رفيفًا . حكاه الهروي . وقد قيل : إن الرفرف شيء إذا ٱستوى عليه صاحبه رفرف به وأهوى به كالمِرْجاح يمينا وشمالا ورفعا وخفضا يتلذذ به مع أنيسته . قاله الترمذي الحكيم في نوادر الأصول وقد ذكرناه في « التذكرة » . قال الترمذي : فالرفرف أعظم خطرا من الفرش فذكر في الأولين « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ » وقال هنا : « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ » فالرفرف هو شيء إذا ٱستوى عليه الوليّ رفرف به ؛ أي طار به هكذا وهكذا حيث ما يريد كالمِرْجاح ؛ وأصله من رفرف بين يدي الله عز وجل ، روي لنا في حديث المعراج أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بلغ سِدْرة المنتهى جاءه الرفرف فتناوله من جبريل وطار به إلى مَسْند العرش ، فذكر أنه قال : " طار بي يخفضني ويرفعني حتى وقف بي بين يدي ربي " ثم لما حان الأنصراف تناوله فطار به خفضا ورفعا يهوي به حتى أداه إلى جبريل صلوات الله وسلامه عليه وجبريل يبكي ويرفع صوته بالتحميد؛ فالرفرف خادم من الخدم بين يدي الله تعالى له خواص الأمور في محل الدنو والقرب ، كما أن البُراق دابة يركبها الأنبياء مخصوصة بذلك في أرضه ، فهذا الرفرف الذي سخره الله لأهل الجنتين الدانيتين هو متكؤهما وفرشهما ، يرفرف بالولي على حافات تلك الأنهار وشطوطها حيث شاء إلى خيام أزواجه الخيرات الحسان . ثم قال : ﴿ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ فالعبقري ثياب منقوشة تبسط ، فإذا قال خالق النقوش إنها حسان فما ظنك بتلك العباقر ! . وقرأ عثمان رضي الله عنه والجحدري والحسن وغيرهم « مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَارِفَ » بالجمع غير مصروف وكذلك

« وَعَبَاقِرِيٍّ حِسَانٍ » جمع رَفْرَف وعَبْقرِىّ ، و « رَفْرَف » اسم للجمع و « عَبْقرِىّ » واحد يدل على الجمع المنسوب إلى عَبْقَر ، وقد قيل : إن واحد رفرف وعبقرى رَفْرَفة وعَبْقرية والرفارف والعَبَاقِر جمع الجمع ، والعبقرى الطَّنَافس الثِّخان منها ؛ قاله الفراء ، وقيل : الزَّرَابى ، عن ابن عباس وغيره ، الحسن : هى البُسُط ، مجاهد : الدِّيباج ، القتبى : كل ثوب وشى عند العرب عبقرى ، قال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى فينسب إليها كل وَشْى حُبِك ، قال ذو الرُّمّة :

حتى كأنّ رِياضَ الْقُفِّ أَلْبَسَهَا * مِن وَشْيِ عَبْقَرَ تَجْلِيلٌ وتَنْجِيدُ

ويقال : عَبْقر قرية بناحية اليمن تنسج فيها بُسُط منقوشة ، وقال ابن الأنبارى : إن الأصل فيه أن عَبْقر قرية يسكنها الجنّ ينسب إليها كل فائق جليل ، وقال الخليل : كل جليل نافس فاضل وفاخر من الرجال والنساء وغيرهم عند العرب عبقرى ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فى عمر رضى الله عنه : " فلم أر عبقريًّا من الناس يَفْرِى فَرِيَّه " وقال أبو عمرو بن العلاء وقد سئل عن قوله صلى الله عليه وسلم " فلم أر عَبْقريًّا يَفْرِى فَرِيَّه " فقال : رئيس قوم وجليلهم ، وقال زُهَير :

بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ * جَدِيرون يومًا أَنْ يَنالُوا فَيَسْتَعْلُوا

وقال الجوهرى : العبقرى موضع تزعم العرب أنه من أرض الجنّ .
قال لَبِيد :

* كُهُولٌ وشُبَّانٌ بِجِنَّةِ عَبْقَرِ (1) *

ثم نسبوا إليه كل شىء يعجبون من حِذقه وجودة صنعته وقوّته فقالوا : عَبْقرى وهو واحد وجمع ، وفى الحديث : " إنه كان يسجد على عبقرى " وهو هذه البسط التى فيها الأصباغ والنقوش حتى قالوا : ظُلْمٌ عبقرى وهذا عبقرىُّ قومٍ للرجل القوى ، وفى الحديث : " فلم أر عبقريا يَفْرِى فَرِيَّه " ثم خاطبهم الله بما تعارفوه فقال : « وعبقرِىٍّ حِسانٍ » وقرأ بعضهم

(1) صدر البيت : * ومن فاد من إخوانهم وبنيهم *

« عَبَاقِرِيٌّ » وهو خطأ لأن المنسوب لا يجمع على نسبته . وقال قُطْرُب : ليس بمنسوب وهو مثل كُرْسِيّ وكَرَاسِيّ وبُخْتِيّ وبَخَاتِيّ . وروى أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ « مُتَّكِئِينَ على رَفَارِفَ خُضُرٍ وعَبَاقِرَ حِسَانٍ » ذكره الثعلبي . وضمّ الضاد من « خضر » قليل .

قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ « تبارك » تفاعل من البركة وقد تقدّم (١) . « ذِى الجَلَالِ » أى العظمة . وقد تقدّم « والإِكْرَامِ » (٢) . وقرأ عامر « ذُو الجَلَالِ » بالواو وجعله وصفا للاسم ، وذلك تقوية لكون الاسم هو المسمى . الباقون « ذِى الجَلَالِ » جعلوا « ذى » صفة لـ « ربك » . وكأنه يريد به الاسم الذى ٱفتتح به السورة ؛ فقال : « الرحمن » فٱفتتح بهذا الاسم فوصف خلق الإنسان والجنّ ، وخلق السموات والأرض وصنعه ، وأنه « كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ » ووصف تدبيره فيهم ، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها ، وصفة النار ثم ختمها بصفة الجنان . ثم قال فى آخر السورة : « تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ » أى هذا الاسم الذى ٱفتتح به هذه السورة ؛ كأنه يعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتى ، فمن رحمتى خلقتكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار ، فهذا كله لكم من ٱسم الرحمن فمدح ٱسمه ثم قال : « ذِى الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ » جليل فى ذاته كريم فى أفعاله . ولم يختلف القراء فى إجراء النعت على الوجه بالرفع فى أوّل السورة ، وهو يدل على أن المراد به وجه الله الذى يلقى المؤمنون عندما ينظرون إليه ، فيستبشرون بحسن الجزاء ، وجميل اللقاء ، وحسن العطاء . والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ١ فما بعدها .

(٢) راجع ص ١٦٥ من هذا الجزء .

ســورة الواقعــة

مكية وهي سبع وتسعون آية

مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء . وقال ابن عبـاس وقتادة : إلا آية منهـا نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » . وقال الكلبي : مكية إلا أربع آيات؛ منها آيتان « أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ . وَتَجْعَـلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » نزلتا في سفره إلى مكة؛ وقوله تعالى : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » نزلتا في سفره إلى المدينـة . وقال مسروق : من أراد أن يعلم نبأ الأوّلين والآخرين ، ونبأ أهـل الجنة ، ونبأ أهل النار ، ونبأ أهل الدنيا ، ونبأ أهل الآخرة ، فليقرأ سورة الواقعة . وذكر أبو عمر ابن عبد البر في « التمهيـد » و « التعليق » والثعلبي أيضا : أن عثمان دخل على ابن مسعود يعوده في مرضـه الذي مات فيه فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي . قال : فمـا تشتهي ؟ قال : رحمة ربي . قال : أفـلا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضني . قال : أفـلا نأمر لك بعطائك ؟ قال : لا حاجة لي فيه ؛ حبسته عنّي في حياتي ، وتدفعه لي عند مماتي ؟ قال : يكون لبناتك من بعدك . قال : أتخشى على بناتي الفاقة من بعدي ؟ إني أمرتهن أن يقرأن سورة « الواقعة » كل ليلة ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من قرأ سورة الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبدا" .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي قامت القيامة ، والمراد النفخة الأخيرة . وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب . وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد . وفيه إضمار أي اذكروا

إذا وقعت الواقعة . وقال الجرجاني : « إذا » صلة؛ أى وقعت الواقعة؛ كقوله : « ٱقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » و « وَأَتَى أَمْرُ اللَّهِ » وهو كما يقال : قد جاء الصوم أى دنا وآقترب . وعلى الأول «إذا» للوقت،والجواب قوله : «فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» . ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ الكاذبة مصدر بمعنى الكذب ، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر ؛ كقوله تعالى : «لَا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ»[(١)] أى لغو، والمعنى لا يسمع لها كذب؛ قاله الكسائي. ومنه قول العامة : عائذًا بالله أى مَعاذ الله ، وقم قائما أى قم قياما . ولبعض نساء العرب تُرَقِّص آبنها :

قُـمْ قائمًـا قُمْ قائمَـا * أصبت عبـدًا نائمَـا

وقيل : الكاذبة صفة والموصوف محذوف ، أى ليس لوقعتها حال كاذبة ؛ أو نفس كاذبة ؛ أى كل من يخبر عن وقعتها صادق . وقال الزجاج : « لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » أى لا يردها شيء . ونحوه قول الحسن وقتادة . وقال الثوريّ : ليس لوقعتها أحد يكذّب بها . وقال الكسائيّ أيضا : ليس لها تكذيب ، أى ينبغى ألا يكذّب بها أحد . وقيل : إن قيامها جِدٌّ لا هزْلَ فيه .

قوله تعالى : ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ قال عكرمة ومقاتل والسُّدّى : خفضت الصوت فأسمعتْ من دنا ورفعتْ من نأى ؛ يعنى أسمعت القريب والبعيد . وقال السُّدّى : خفضت المتكبّرين ورفعت المستضعفين . وقال قتادة : خفضت أقواما فى عذاب الله ،ورفعت أقواما إلى طاعة الله . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : خفضت أعداء الله فى النار ،ورفعت أولياء الله فى الجنة . وقال محمد بن كعب : خفضت أقواما كانوا فى الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواما كانوا فى الدنيا مخفوضين . وقال آبن عطاء : خفضت أقواما بالعدل ،ورفعت آخرين بالفضل. والخفض والرفع يستعملان عند العرب فى المكان والمكانة والعز والمهانة . ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة

---

(١) هذه قراءة نافع .

توسعا ومجازا على عادة العرب فى إضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما ممـا لم يكن منه الفعل ؛ يقولون : ليل نائم ونهار صائم . وفى التنزيل : « بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » والخافض والرافع على الحقيقة إنما هو الله وحده ؛ فرفع أولياءه فى أعلى الدرجات ، وخفض أعداءه فى أسفل الدركات . وقـرأ الحسن وعيسى الثقفى « خَافِضَةً رَافِعَةً » بالنصب . الباقون بالرفع على إضمار مبتدإ ؛ ومن نصب فعلى الحال . وهو عند الفراء على إضمار فعل ؛ والمعنى « إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَـةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ » وقعت « خَافِضَةً رَافِعَةً » . والقيامة لا شك فى وقوعها، وأنها ترفع أقواما وتضع آخرين على ما بيناه .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴾ أى زُلزلت وحُركت عن مجاهد وغيره ؛ يقال : رَجّه يَرُجّه رجًّا أى حركه وزلزله . وناقة رجّاءُ أى عظيمة السَّنام . وفى الحديث : "مَنْ ركب البحرَ حين يَرْتَجّ فلا ذمّةَ له" يعنى إذا اضطربت أمواجه . قال الكلبي : وذلك أن الله تعالى إذا أوحى إليها اضطربت فَرَقا من الله تعالى . قال المفسّرون : تَرْتَجّ كما يَرْتَجّ الصبيُّ فى المهد حتى ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شيء عليها من الجبال وغيرها . وعن ابن عباس الرَّجّة الحركة الشديدة يسمع لهـا صوت . وموضع « إذا » نصب على البـدل من « إِذَا وَقَعَتْ » . ويجـوز أن ينتصب بـ « خَافِضَةً رَافِعَةً » أى تخفض وترفع وقت رجِّ الأرض وبسِّ الجبال ؛ لأن عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع، ويرتفع ما هو منخفض . وقيل : أى وقعت الواقعة إذا رجّت الأرض ؛ قاله الزجاج والجرجانى . وقيل : أى اذكر « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ . رَجًّا » مصدر وهو دليل على تكرير الزلزلة .

قوله تعـالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّـا ﴾ أى فُتّتت ؛ عن ابن عباس . مجاهد : كما يُبَسُّ الدقيق أى يُلَتّ . والبسيسة السَّوِيق أو الدقيق يُلَتّ بالسّمن أو بالزيت ثم يؤكل ولا يطبخ وقد يتخذ زادا . قال الراجز :

لا تَخْـبِزَا خُبْزًا وبُسًّا بَسًّا * ولا تُطِيـلَا بِمُنَـاخٍ حَبْسَـا

وذكر أبو عبيدة أنه لصّ من غَطَفان أراد أن يخبز فخاف أن يُعجَل عن ذلك فأكله عجينا . والمعنى أنها خُلِطت فصارت كالدقيق الملتوت بشيء من الماء . أي تصير الجبال ترابا فيختلط البعض بالبعض . وقال الحسن : وبُسَّت قلعت من أصلها فذهبت؛ نظيره: « يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا » . وقال عطية : بسطت كالرمل والتراب . وقيل : البسّ السّوق أي سيقت الجبال؛ قال أبو زيد : البسّ السّوق وقد بسست الإبل أبُسّها بالضم بَسًّا . وقال أبو عبيد : بسست الإبل وأبسست لغتان إذا زجرتها وقلت لها بَسْ بَسْ . وفي الحديث : "يخرج قوم من المدينة إلى اليمن والشام والعراق يَبُسُّون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون" ومنه الحديث الآخر : "جاءكم أهل اليمن يَبُسُّون عيالهم"[(1)] والعرب تقول : جئْ به من حَسِّك وبَسِّك . ورواهما أبو زيد بالكسر فمعنى من حِسّك من حيث أحسسته وبِسّك من حيث بلغه مسيرك . وقال مجاهد : سالت سيلا . عكرمة : هُدّت هدّا . محمد بن كعب : سُيرت سيرا ؛ ومنه قول الأغلب العِجْلىّ[(2)] :

وقال الحسن : قطعت قطعا . والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ قال علي رضي الله عنه : الهباء المنبث الرَّهَج[(3)] الذي يسطع من حوافر الدواب ثم يذهب ، فجعل الله أعمالهم كذلك . وقال مجاهد : الهباء هو الشعاع الذي يكون في الكوّة كهيئة الغبار . وروى نحوه عن ابن عباس . وعنه أيضا : هو ما تطاير من النار إذا اضطربت يطير منها شرر فإذا وقع لم يكن شيئا . وقاله عطية . وقد مضى في « الفرقان » عند قوله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً »[(4)] وقراءة العامة « مُنْبَثًّا » بالثاء المثلثة أي متفرقا من قوله تعالى : « وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ » أي فرّق ونشر . وقرأ مسروق والنَّخَعيّ وأبو حيوة « مُنْبَتًّا » بالتاء المثناة أي منقطعا من قولهم: بتّه الله أي قطعه ؛ ومنه البتات .

---

(١) أي يسوقون عيالهم . (٢) بياض بالأصل في موضع الشاهد من قول الأغلب العجلي الراجز ولم نعثر عليه . (٣) الرهج بالفتح وبالإسكان الغبار . (٤) راجع جـ ١٣ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ أى أصنافا ثلاثة كل صنف يشا كل ما هو منه، كما يشا كل الزوج الزوجة، ثم بين من هم فقال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ «وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ» و«السَّابِقُونَ» فأصحاب الميمنة هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة، وأصحاب المشأمة هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار . قاله السّدى . والمشأمة الميسرة وكذلك الشأمة . يقال : قعد فلان شأمة، ويقال: يا فلان شائم بأصحابك ، أى خذ بهم شأمة أى ذات الشمال . والعرب تقول لليد الشمال الشؤمى ، وللجانب الشمال الأشأم . وكذلك يقال لما جاء عن اليمين اليُمْن، ولما جاء عن الشمال الشّؤم . وقال ابن عباس والسّدى : أصحاب الميمنة هم الذين كانوا عن يمين آدم حين أخرجت الذّرية من صُلْبه فقال الله لهم : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى . وقال زيد بن أسلم : أصحاب الميمنة هم الذين أُخذوا من شقّ آدم الأيمن يومئذ، وأصحاب المشأمة الذين أُخذوا من شقّ آدم الأيسر . وقال عطاء ومحمد بن كعب : أصحاب الميمنة من أوتى كتابه بيمينه ، وأصحاب المشأمة من أوتى كتابه بشماله . وقال ابن جريج : أصحاب الميمنة هم أهل الحسنات، وأصحاب المشأمة هم أهل السيئات . وقال الحسن والربيع : أصحاب الميمنة الميامين على أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وأصحاب المشأمة المشائيم على أنفسهم بالأعمال السيئة القبيحة . وفى صحيح مسلم من حديث الإسراء عن أبى ذرّ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فلما علونا السماء الدنيا فإذا رجل عن يمينه أَسْوِدة وعن يساره أَسْوِدة — قال — فإذا نظر قِبل يمينه ضحك وإذا نظر قِبل شماله بكى — قال — فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح — قال — قلت يا جبريل من هذا قال هذا آدم عليه السلام وهذه الأسودة التى عن يمينه وعن شماله نَسَم بنيه فأهل اليمين أهل الجنة والأسودة التى عن شماله أهل النار " وذكر الحديث . وقال المبرد : وأصحاب الميمنة أصحاب التقدم وأصحاب المشأمة

أصحـاب التأخر ؛ والعـرب تقول : آجعـلنى فى يمينك ولا تجعلنى فى شمالك ، أى آجعلنى من المتقدمين ولا تجعلنا من المتأخرين . والتكرير فى « ما أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » . و « مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ » للتفخيم والتعجيب ؛ كقوله : « الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ » و « الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ » كما يقال : زيد ما زيد ! وفى حديث أم زَرْع رضى الله عنها (١) : مَالِكٌ ومَا مَالِكٌ ! والمقصود تكثير ما لأصحاب الميمنة من الثواب ولأصحاب المشأمة من العقاب . وقيل : « أَصْحَابُ » رفع بالابتداء والخبر « مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » كأنه قال : « فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ » ما هم ؛ المعنى أىّ شىء هم . وقيل : يجوز أن تكون « ما » تأكيدا والمعنى فالذين يعطون كتابهم بأيمانهم هم أصحاب التقـدّم وعلو المـنزلة .

قوله تعـالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ روى عن النبى صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " السابقون الذين إذا أُعطوا الحقّ قبلوه وإذا سئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم " ذكره المهدوى . وقال محمد بن كعب القُرَظىّ : إنهم الأنبياء . الحسن وقتادة : السابقون إلى الإيمـان من كل أمة . ونحوه عن عكرمة . محمد بن سيرين : هم الذين صـلوا إلى القبلتين ؛ دليله قوله تعالى : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » . وقال مجاهد وغيره : هم السـابقون إلى الجهاد وأوّل الناس رواحا إلى الصـلاة . وقال علىّ رضى الله عنه : هم السابقون إلى الصلوات الخمس . الضحاك : إلى الجهاد . سعيد بن جبير : إلى التوبة وأعمال البر ؛ قال الله تعـالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » ثم أثنى عليهم فقال : « أُولَئِـكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » . وقيل : إنهم أربعة ؛ منهم سابق أمة موسى وهو حزقيل مؤمن آل فرعون ، وسابق أمة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية ، وسابقان فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهما أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . قاله آبن عباس ؛ حكاه المـاوردى . وقال شُمَيْط بن العجلان : الناس ثلاثة ؛ فرجل آبتكر للخير فى حداثة سـنه ثم

(١) حديث أم زرع رواه مسـلم فى فضائل الصحابة عن عائشـة رضى الله عنها أنه : جلس إحدى عشرة آمرأة فتعاهدن وتعاقـدن ألا يكتمن من أخبـار أزواجهن شيئا ، فقالت إحداهن : زوجى مالك وما مالك ! مالك خير من ذلك ... ... الخ . الحديث .

داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا هو السابق المقرّب ، ورجل ٱبتكر عمره بالذنوب ثم طوّل الغفلة ثم رجع بتوبته حتى ختم له بها فهذا من أصحاب اليمين ، ورجل ٱبتكر عمره بالذنوب ثم لم يزل عليها حتى ختم له بهـا فهذا من أصحاب الشمال . وقيل : هم كل من سـبق إلى شيء من أشـياء الصلاح . ثم قيل : « السّـابِقُونَ » رفع بالأبتـداء والثانى توكيد له والخـبر ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ . وقال الزجاج : « السَّابِقُونَ » رفع بالأبتـداء والثانى خبره ؛ والمعنى السابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى رحمة الله ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ من صفتهم . وقيل : إذا خرج رجل من السابقين المقربين من منزله فى الجنة كان له ضوء يعرفه به من دونه .

قوله تعـالى : ﴿ ثُـلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيـلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّـكِئِينَ عَلَيْهَـا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أى جماعة من الأمم المـاضية . ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أى ممن آمن بمحمد صلى الله عليه وسـلم . قال الحسن : ثُلّة ممن قد مضى قبل هذه الأمة ، وقليل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم ٱجعلنا منهم بكرمك . وسموا قليلا بالإضافة إلى من كان قبلهم ؛ لأن الأنبياء المتقدمين كثروا فكثر السابقون إلى الإيمـان منهم ، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا . وقيل : لمـا نزل هذا شقّ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنى لأرجو أن تكونوا ربعَ أهل الجنة بل ثلثَ أهل الجنة بل نصفَ أهل الجنة وتقاسمونهم فى النصف الثانى " رواه أبو هريرة ، ذكره المـاوردى وغيره . ومعنـاه ثابت فى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود . وكأنه أراد أنها منسوخة والأشبه أنها محكمة لأنهـا خبر ؛ ولأن ذلك فى جماعتين مختلفتين . قـال الحسن : سابقو من مضى أكثر من سابقينا ؛ فلذلك قال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ وقال فى أصحاب اليمين وهم سوى السابقين : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنى لأرجو

أن تكون أمتي شطر أهل الجنة " ثم تلا قوله تعالى : «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ» قال مجاهد : كلٌّ من هذه الأمة . وروى سفيان عن أبان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : " الثُّلَّتان جميعا من أمتي " يعني « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » . وروى هذا القول عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه . قال أبو بكر رضي الله عنه : كلا الثلتين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فمنهم من هو في أول أمته ، ومنهم من هو في آخرها . وهو مثل قوله تعالى : «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ » . وقيل : « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » أي من أول هذه الأمة . « وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ » يسارع في الطاعات حتى يلحق درجة الأولين ؛ ولهـذا قال عليه الصلاة والسلام : " خيركم قَرْني " ثم سَوّى في أصحاب اليمين بين الأولين والآخرين . والثلة من ثلات الشيء أي قطعته ، فمعنى ثلة كمعنى فرقة ؛ قاله الزجاج .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ أي السابقون في الجنة « عَلَى سُرُرٍ » ؛ أي مجالسهم على سرر جمع سرير . «مَوْضُونَةٍ» قال ابن عباس : منسوجة بالذهب . وقال عكرمة : مشبكة بالدُّر والياقوت . وعن ابن عباس أيضا : « مَوْضُونَةٍ » مصفوفة ؛ كما قال في موضع آخر : «عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ» . وعنه أيضا وعن مجاهد : مَرْمُولة[(١)] بالذهب . وفي التفاسير : «مَوْضُونَةٍ» أي منسوجة بقضبان الذهب مشبكة بالدر والياقوت والزبرجد . والوَضْن النّسج المضاعف والنّضد ؛ يقال : وَضَن فلانٌ الحجرَ والآجُرّ بعضه فوق بعض فهو موضون ، ودرع موضونة أي محكمة في النّسج مثل مصفوفة ؛ قال الأعشى :

ومِنْ نَسْــجِ دَاوُدَ مَوْضُـــونَة * تُسَـــاقُ مع الحيِّ عيرًا فَعِـــيرَا

وقال أيضا :

وبَيْضَـــاء كالنِّهْيِ مَوْضُـــونَة * لهــا قَوْنَسٌ فوقَ جَيْبِ البَـــدَنْ

---

(١) مرمولة منسوجة .

والسرير الموضون الذى سطحه بمنزلة المنسوج؛ ومنه الوضين بطانٌ من سُيور ينسج فيدخل بعضه فى بعض؛ ومنه قوله :

* إليكَ تعْدُو قَلِقاً وَضِينُها (١) *

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى على السرر ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أى لا يرى بعضهم قَفَا بعض، بل تدور بهم الأسرة، وهذا فى المؤمن وزوجته وأهله؛ أى يتكئون متقابلين. قاله مجاهد وغيره. وقال الكلبيّ : طول كل سرير ثلثمائة ذراع، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت فإذا جلس عليها ٱرتفعت.

قوله تعالى : يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)

قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أى غلمان لا يموتون؛ قاله مجاهد. الحسن والكلبيّ : لا يهرمون ولا يتغيرون؛ ومنه قول ٱمرئ القيس :

وهَلْ يَنْعَمَنْ إلاّ سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ * قَلِيلُ الهُمُومِ مَا يَبِيتُ بِأَوْجَالِ

وقال سعيد بن جبير: مُخلَّدون مُقرَّطون يقال للقُرط الخَلَدَة ولجماعة الحُلِيّ الخِلَدَة. وقيل: مسوّرون ونحوه عن الفراء؛ قال الشاعر :

ومخلَّداتٌ باللُّجَيْنِ كأنَّمَا * أَعْجازُهُنَّ أَقاوِزُ الكُثْبانِ (٢)

(١) الضمير يعود على الناقة؛ أراد أنها قد هزلت ودقت للسير عليها.

(٢) الأقاوز جمع قوز وهو كثيب من الرمل صغير شبه به أرداف النساء؛ فالإضافة للبيان.

وقيل : مقرّطون يعنى ممنطقون من المناطق . وقال عكرمة : «مُخَلَّدُونَ» منعّمون . وقيل : على سنّ واحدة أنشأهم الله لأهل الجنـة يطوفون عليهـم كما شاء من غير ولادة . وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه والحسن البصرى : الولدان هاهنا ولدان المسلمين الذين يموتون صغارا ولا حسنة لهم ولا سيئة . وقال سلمان الفارسىّ : أطفال المشركين هم خدم أهل الجنة . قال الحسن : لم يكن لهم حسنات يجزون بها، ولا سيئات يعاقبون عليها، فوضعوا فى هذا الموضع . والمقصود أن أهل الجنة على أتم السرور والنعمة ، والنعمة إنما تتم باحتفاف الخدم والولدان بالإنسان . ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ ﴾ أكواب جمع كوب وقد مضى فى « الزخرف »(١) وهى الآنية التى لا عُرى لها ولا خراطيم ، والأباريق التى لها عُرى وخراطيم واحدها إبريق ؛ سمى بذلك لأنه يبرق لونه من صفائه . ﴿ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ مضى فى «والصافات»(٢) القول فيه . والمعين الجارى من ماء أو خمـر غير أن المراد فى هـذا الموضع الخمـر الجارية من العيون . وقيل : الظاهرة للعيون فيكون «معين» مفعولا من المعاينة . وقيل : هو فعيل من المعن وهو الكثرة . وبيّن أنها ليست كخمر الدنيا التى تستخرج بعصر وتكلّف ومعالجة .

قوله تعـالى : ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ﴾ أى لا تتصدع رءوسهم من شربها ؛ أى إنها لذة بلا أذى بخلاف شراب الدنيا . ﴿ وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾ تقدم فى « والصافات »(٣) أى لا يسكرون فتذهب عقولهم . وقرأ مجاهد : « لا يَصَّدَّعُونَ » بمعنى لا يتصدّعون أى لا يتفرقون كقوله تعالى : «يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ» . وقرأ أهل الكوفة « يُنْزِفُونَ » بكسر الزاى أى لا ينفد شرابهم ولا تفنى خمرهم ؛ ومنه قول الشاعر(٤) :

لَعَمْرِى لَـئِنْ أَنْزَفْتُمُ أو صَحَوْتُمُ　*　لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمُ آلَ أَبْجَـرَا

(١) راجع جـ ١٦ ص ١١٢ فما بعدها .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٧٧ فما بعدها .

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٧٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) هو الحطيئة وقد تقدّم البيت فى جـ ١٥ ص ٧٩

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : فى الخمر أربع خصال ؛ السُّكر والصُّداع والقىء والبول، وقد ذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

قوله تعالى : ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أى يتخيرون ما شاءوا لكثرتها . وقيل : وفاكهة متخيرة مرضية والتخير الاختيار . ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ روى الترمذى عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الكوثر؟ قال: "ذاك نهر أعطانيه الله تعالى — يعنى فى الجنة — أشدّ بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجُزُر" قال عمر : إن هذه لناعمةٌ ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَكَلَتُها أحسنُ منها"(1) قال : حديث حسن . وخرجه الثعلبى من حديث أبى الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن فى الجنة طيرا مثل أعناق البُخْت تصطفّ على يد ولىّ الله فيقول أحدها ياولىّ الله رَعيتُ فى مُرُوج تحت العرش وشربت من عيون التَّسنيم فكُلْ منّى فلا يزان يفتخرن بين يديه حتى يخطر على قلبه أكل أحدها فتخرّ بين يديه على ألوان مختلفة فيأكل منها ما أراد فإذا شبع تجمع عظام الطائر فطار يرعى فى الجنة حيث شاء" فقال عمر : يا نبىّ الله إنها لناعمة . فقال : "آكلُها أنعمُ منها" . وروى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن فى الجنة لطيرا فى الطائر منها سبعون ألف ريشة فيقع على صحفة الرجل من أهل الجنة ثم ينتفض فيخرج من كل ريشة لون طعام أبيض من الثلج وأبرد وألين من الزّبد وأعذب من الشهد ليس فيه لون يشبه صاحبه فيأكل منه ما أراد ثم يذهب فيطير" .

قوله تعالى : ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ قرئ بالرفع والنصب والجر ؛ فمن جر وهو حمزة والكسائى وغيرهما جاز أن يكون معطوفا على « بِأَكْوَابٍ » وهو محمول على المعنى ؛ لأن المعنى يتنعمون بأكواب وفاكهة ولحم وحور . قاله الزجاج . وجاز أن يكون معطوفا على « جَنَّاتِ » أى هم فى « جَنَّاتِ النَّعِيمِ » وفى حور على تقدير حذف المضاف كأنه قال : وفى معاشرة

(1) فى نسخ الأصل : أكلتها أنعم منها . وما أثبتناه هو ما فى صحيح الترمذى .

حـور . الفراء : الجـر على الإتباع فى اللفظ و إن آختلفا فى المعنى ؛ لأن الحور لا يطاف بهنّ قال الشاعر :

إذا ما الغانياتُ بَرَزْنَ يومًا * وزَجَّجْنَ الحَوَاجِبَ والعُيونَا

والعين لا تُزَجَّج و إنما تكحل . وقال آخر :

ورأيتُ زَوْجَكِ فى الوَغَى * مُتَقَلِّدًا سَيْفًا ورُمْحَا

وقال قُطْرب : هو معطوف على الأكواب والأباريق من غير حمل على المعنى . قال : ولا ينكر أن يطاف عليهم بالحور ويكون لهم فى ذلك لذة . ومن نصب وهو الأشهب العقيلى والنّخعى وعيسى بن عمر الثّقفىّ وكذلك هو فى مصحف أُبَىّ، فهو على تقدير إضمار فعل؛ كأنه قال : ويزوّجون حُورا عِينا . والحمل فى النصب على المعنى أيضا حسن ؛ لأن معنى يطاف عليهم به يُعطَونه . ومن رفع وهم الجمهور — وهو آختيار أبى عبيد وأبى حاتم — فعلى معنى وعندهم حور عين؛ لأنه لا يطاف عليهم بالحور . وقال الكسائى : ومن قال « وَحُورٌ عِينٌ » بالرفع وعلل بأنه لا يطاف بهنّ يلزمه ذلك فى فاكهة ولحم؛ لأن ذلك لا يطاف به وليس يطاف إلا بالخمر وحدها . وقال الأخفش : يجوز أن يكون محمولا على المعنى ؛ لأن المعنى لهم أكواب ولهـم حور عين . وجاز أن يكون معطوفا على « ثُلَّةٌ » و « ثُلَّةٌ » آبتداء وخبره « عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ » وكذلك « وَحُورٌ عِينٌ » وآبتدأ بالنكرة لتخصيصها بالصفة . ﴿ كَأَمْثَالِ ﴾ أى مثل أمثال ﴿ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ أى الذى لم تمسه الأيدى ولم يقع عليـه الغبار فهو أشـدّ ما يكون صفاء وتلألأ ؛ أى هنّ فى تشاكل أجسادهنّ فى الحسن من جميع جوانبهنّ كما قال الشاعر :

كأنّمـا خُلِقَتْ فى قِشْرِ لُؤْلُؤَةٍ * فَكُلُّ أَكْنافِهـا وَجْهٌ لِمِرْصادِ

﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ثوابا ونصبه على المفعول له . ويجوز أن يكون على المصدر؛ لأن معنى « يَطُوفُ عَلَيْهِـمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ » يجازون . وقـد مضى الكلام فى الحور العـين فى « والطُّور »[1] وغيرها . وقال أنس قال النبي صلى الله عليه وسـلم : " خلق الله الحور العين

(١) راجع ص ٦٥ من هذا الجزء . وراجع جـ ١٦ ص ١٥٢ .

من الزعفران" وقال خالد بن الوليد سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الرجل من أهل الجنة ليمسك التفاحة من تفاح الجنة فتنفلق في يده فتخرج منها حوراء لو نظرت للشمس لأخجلت الشمس من حسنها من غير أن ينقص من التفاحة " فقال له رجل : يا أبا سليمان إن هذا لعجبٌ ولا ينقص من التفاحة ؟ قال : نعم كالسِّراج الذي يوقد منه سراج آخر وسُرُج ولا ينقص ، والله على ما يشاء قدير . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : خلق الله الحور العين من أصابع رجليها إلى ركبتيها من الزعفران ، ومن ركبتيها إلى ثدييها من المسك الأذفر ، ومن ثدييها إلى عنقها من العنبر الأشهب ، ومن عنقها إلى رأسها من الكافور الأبيض ، عليها سبعون ألف حُلَّة مثل شقائق النعمان ، إذا أقبلت يتلألأ وجهها نورا ساطعا كما تتلألأ الشمس لأهل الدنيا ، وإذا أدبرت يرى كبدها من رقة ثيابها وجلدها ، في رأسها سبعون ألف ذؤابة من المسك الأذفر ، لكل ذؤابة منها وصيفة ترفع ذيلها وهي تنادي هذا ثواب الأولياء « جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ قال ابن عباس : باطلا ولا كذبا . واللغو ما يلغى من الكلام ، والتأثيم مصدر أثَّمْتُه أي قلت له أثمت . محمد بن كعب : « ولا تأثيما » أي لا يؤثِّم بعضُهم بعضا . مجاهد : « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا » شتما ولا مأثما . ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ « قِيلًا » منصوب بـ« يَسْمَعُونَ » أو استثناء منقطع أي لكن يقولون قيلا أو يسمعون و « سَلَامًا سلاما » منصوبان بالقول أي إلا أنهم يقولون الخير . أو على المصدر أي إلا أن يقول بعضهم لبعض سلاما . أو يكون وصفا لقيل ، والسلام الثاني بدل من الأول ، والمعنى إلا قيلا يسلم فيه من اللغو . ويجوز الرفع على تقدير سلام عليكم . قال ابن عباس : أي يحيي بعضهم بعضا . وقيل : تحييهم الملائكة أو يحييهم ربهم عزّ وجلّ .

قوله تعالى : وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ رجع إلى ذكر منازل أصحاب الميمنة وهم السابقون على ما تقدّم ، والتكرير لتعظيم شأن النعيم الذى هم فيه . ﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ أى فى نبق قد خضد شوكه أى قطع ؛ قاله ابن عباس وغيره . وذكر ابن المبارك ، حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابى يوما ؛ فقال : يا رسول الله ! لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تُؤذى صاحبها ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وما هى" قال : السِّدر فإن له شوكا مؤذيا ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : "أو ليس يقول « فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ » خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة فإنها تنبت ثمرا يفتق الثمر منهـا عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيه لون يشبه الآخر" . وقال أبو العالية والضحاك : نظر المسلمون إلى وَجٍّ (١) وهو وادٍ بالطائف مخصب فأعجبهم سدره ، فقالوا : يا ليت لنا مثل هذا ؛ فنزلت . قال أمية بن أبى الصَّلْت يصف الجنة :

إنّ الحدائق فى الجنان ظليلةٌ　＊　فيها الكواعبُ سِدْرُها مَخْضُودُ

وقال الضحاك ومجاهد ومقاتل بن حيان : « فى سِدْرٍ مَخْضُودٍ » وهو الموقر حملا . وهو قريب مما ذكرنا فى الخبر . سعيد بن جبير : ثمرها أعظم من القلال . وقد مضى هذا فى سورة

(١) الذى فى اللسان : وج موضع بالبادية . وقيل : بلد بالطائف وقيل هى الطائف .

« النجم » عند قوله تعالى : « عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى » وأن ثمرها مثل قلال هَجَر من حديث[1] أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ الطَّلْح شجر الموز واحده طلحة ، قاله أكثر المفسرين علىّ وابن عباس وغيرهم . وقال الحسن : ليس هو موز ولكنه شجر له ظـل بارد رطب . وقال الفراء وأبو عبيدة : شجر عظام له شوك ؛ قال بعض الحداة[2] وهو الجعدىّ :

بَشَّرَهَـــا دَلِيلُهـــا وقَالَا * غَدًا تَرَيْنَ الطَّلْحَ وَالأَحْبَالَا[3]

فالطَّلح كلّ شجر عظيم كثير الشوك . الزّجاج : يجوز أن يكون فى الجنة وقـد أزيل شوكه . وقال الزجاج أيضا : كشجر أم غيلان [له][4] نَوْر طيّب جدا فخوطبوا ووعدوا بما يحبون مثله ، إلا أن فضله على ما فى الدنيا كفضل سائر ما فى الجنة على ما فى الدنيا . وقال السدىّ : طلح الجنة يشبه طلح الدنيا لكن له ثمر أحلى من العسل . وقرأ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : « وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » بالعين وتلا هذه الآية « وَنَخْـلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ » وهو خلاف المصحف . فى رواية أنه قرئ بين يديه « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » فقال : ما شأن الطلح ؟ إنمـا هو « وَطَلْعٍ مَنْضُودٍ » ثم قال : « لَهَـا طَلْعٌ نَضِيدٌ » فقيل له : أفـلا نحوّلها ؟ فقال : لا ينبغى أن يهاج القرآن ولا يحوّل . فقد ٱختار هذه القراءة ولم ير إثباتها فى المصحف لمخالفة ما رسْمه مُجْمَع عليه . قاله القشيرى . وأسنده أبو بكر الأنبارىّ قال : حدثنى أبى قال حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الحسن بن سـعد عن قيس بن عُبَاد قال : قرأت عنـد علىّ أو قُرِئت عند علىّ ــ شكّ مجالد ــ « وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ » فقال على رضى الله عنه : ما بال الطلح ؟ أما تقرأ « وَطَلْعٍ » ثم قال : « لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ » فقال له : يا أمير المؤمنين أنحكّها من المصحف ؟

(١) راجع ص ٩٤ فما بعدها من هذا الجزء .
(٢) فى الأصول « الحداة » بالحاء المهملة وما أثبتناه يوافق ما فى تفسير الطبرى .
(٣) الأحبال جمع حبلة بالضم : ثمر السلم والبال والسمر أو ثمر العضاه عامة .
(٤) زيادة يقتضيها السياق .

فقال : لا يهاج القرآن اليوم . قال أبو بكر : ومعنى هـذا أنه رجع إلى ما في المصحف وعلم أنه هو الصواب ، وأبطل الذي كان فرط من قوله . والمنضود المتراكب الذي نُضِدَ أوّله وآخره بالحمل ، ليست له سُوقٌ بارزة بل هو مرصوص ، والنَّضْد هو الرّص والمنضَّد المرصوص ؛ قال النابغة :

خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيٍّ كان يَحْبِسُهُ * ورَفَّعَتْهُ إلى السَّجْفَيْنِ فالنَّضَدِ

وقال مسروق : أشجار الجنة من عروقها إلى أفنانها نضيدة ثمر كلّه، كلّما أكل ثمرة عاد مكانها أحسنُ منها .

قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ أي دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس ؛ كقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا » وذلك بالغداة وهي ما بين الإسفار إلى طلوع الشمس حسب ما تقدّم بيانه هنالك(١) . والجنة كلها ظلّ لا شمس معه . قال الربيع بن أنس : يعني ظل العرش . وقال عمرو بن ميمون : مسيرة سبعين ألف سنة . وقال أبو عبيدة : تقول العرب للدهر الطويل والعمر الطويل والشيء الذي لا ينقطع ممدود ؛ وقال لبيد :

غَلَبَ العَزاءُ وكنتُ غيرَ مُغَلَّبٍ * دَهْرٌ طويلٌ دائمٌ ممدودُ

وفي صحيح الترمذيّ وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " وفي الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرءوا إن شئتم « وَظِلٍّ مَمْدُودٍ » . ﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾ أي جارٍ لا ينقطع وأصل السّكب الصبّ ؛ يقال : سكبه سَكْبًا والسُّكوب آنصبابه ؛ يقال : سَكَب سُكُوبا وآنْسَكَب آنسكابا ؛ أي وماء مصبوب يجري الليل والنهار في غير أخدود لا ينقطع عنهم . وكانت العرب أصحاب بادية وبلادٍ حارة ، وكانت الأنهار في بلادهم عزيزة لا يصلون إلى الماء إلا بالدلو والرشاء فوعدوا في الجنة خلاف ذلك ، ووصف لهم أسباب النزهة المعروفة في الدنيا ، وهي الأشجار وظلالها والمياه والأنهار وآطرادها .

(١) راجع ج ٣ ص ٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ أى ليست بالقليلة العزيزة كما كانت فى بلادهم ﴿ لَا مَقْطُوعَةٍ ﴾ أى فى وقت من الأوقات كانقطاع فواكه الصيف فى الشتاء ﴿ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ أى لا يُحظَر عليها كثمار الدنيا . وقيل : « وَلَا مَمْنُوعَةٍ » أى لا يمنع من أرادها بشوك ولا بعد حائط ؛ بل إذا اشتهاها العبد دنت منه حتى يأخذها ؛ قال الله تعالى : « وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا » . وقيل : ليست مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾ روى الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى « وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » قال : " ارتفاعها لكما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة " قال : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رِشْدِين بن سعد . وقال بعض أهل العلم فى تفسير هذا الحديث : الفرش فى الدرجات وما بين الدرجات كما بين السماء والأرض . وقيل : إن الفرش هنا كناية عن النساء اللواتى فى الجنة ولم يتقدم لهن ذكر ، ولكن قوله عز وجل « وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ » دالٌّ ؛ لأنها محل النساء ؛ فالمعنى ونساء مرتفعات الأقدار فى حسنهن وكمالهن ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ أى خلقناهن خلقا وأبدعناهن إبداعا . والعرب تسمى المرأة فِراشا ولِباسا وإزارا ؛ وقد قال تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ » ثم قيل : على هذا هن الحور العين ؛ أى خلقناهن من غير ولادة . وقيل : المراد نساء بنى آدم أى خلقناهن خلقا جديدا وهو الإعادة ؛ أى أعدناهن إلى حال الشباب وكمال الجمال . والمعنى أنشأنا العجوز والصبية إنشاء واحدا وأضمرن ولم يتقدم ذكرهن ؛ لأنهن قد دخلن فى أصحاب اليمين ؛ ولأن الفُرُش كناية عن النساء كما تقدم . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً » قال : " منهن البِكْر والثَّيِّب " . وقالت أم سلمة رضى الله تعالى عنها : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا » فقال : " يا أم سلمة هن اللواتى قُبِضن فى الدنيا عجائز شُمْطا عُمْشا رُمْصا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد فى الاستواء " أسنده النحاس عن أنس قال : حدثنا أحمد بن عمرو قال حدثنا عمرو بن على ، قال حدثنا أبو عاصم عن

موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك رفعه «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً» قال : "هنّ العجائز العُمْش الرُّمْص كُنّ في الدنيا عُمْشا رُمْصا" . وقال المسيّب بن شريك : قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله «إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً» قال : "هنّ عجائز الدنيا أنشأهنّ الله خلقا جديدا كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا" فلما سمعت عائشة ذلك قالت : واوجعاه ! فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليس هناك وجع" . ﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب . قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : العُرُب العواشق لأزواجهنّ . وعن ابن عباس أيضا : أن العروب الملقة . عكرمة : الغَنِجة . ابن زيد : بلغة أهل المدينة . ومنه قول لبيد :

وفى الخِبَاءِ عَرُوبٌ غيرُ فاحِشةٍ * رَيَّا الروادِفِ يَعْشَى دُونَها البصرُ

وهى الشَّكِلة بلغة أهل مكة . وعن زيد بن أسلم أيضا : الحسنة الكلام . وعن عكرمة أيضا وقتادة : العرب المتحببات إلى أزواجهنّ واشتقاقه من أعرب إذا بين، فالعروب تبين محبتها لزوجها بشكل وغنج وحسن كلام . وقيل : إنها الحسنة التبعل لتكون ألذ استمتاعا . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «عُرُبًا» قال : "كلامهنّ عربيّ" . وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم «عُرْبًا» بإسكان الراء . وضم الباقون وهما جائزان في جمع فَعُول . «أَتْرَابًا» على ميلاد واحد في الاستواء وسنّ واحدة ثلاث وثلاثين سنة . يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران . وكانت العرب تميل إلى من جاوزت حد الصِّبَا من النساء وانحطت عن الكبر . وقيل : «أَتْرَابًا» أمثالا وأشكالا ؛ قاله مجاهد . السدى : أتراب في الأخلاق لا تباغض بينهنّ ولا تحاسد . ﴿ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ قيل : الحور العين للسابقين، والأتراب العرب لأصحاب اليمين .

قوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ رجع الكلام إلى قوله تعالى : «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ» أى هم «ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ» وقد مضى الكلام في معناه . وقال أبو العالية ومجاهد وعطاء بن أبي رباح والضحاك :

« ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ » يعنى من سابق هـذه الأمة « وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » من هذه الأمة من آخرها؛ يدل عليه ماروى عن ٱبن عباس فى هذه الآية « ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ » فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "هم جميعا من أمتى" . وقال الواحدىّ : أصحاب الجنة نصفان نصف من الأمم المـاضية ونصف من هـذه الأمة . وهـذا يردّه ما رواه ٱبن ماجه فى سننه والترمذىّ فى جامعه عن بُريدة بن خَصيب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "أهل الجنة عشرون ومائة صفّ ثمـانون منها من هـذه الأمة وأربعون من سائر الأمم" . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن . و « ثُـلَّةٌ » رفع على الآبتداء، أو على حذف خبر حرف الصـفة، ومجازه : لأصحاب اليمين ثلتان ثلة من هؤلاء وثلة من هؤلاء . والأوّلون الأمم المـاضية والآخرون هذه الأمة على القول الثانى .

قوله تعـالى : وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ ذكر منازل أهل النار وسماهم أصحاب الشمال؛ لأنهم يأخذون كتبهم بشمائلهم ثم عظّم ذكرهم فى البلاء والعذاب فقال : ﴿ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ ﴾ والسموم الريح الحارة التى تدخل فى مسام البدن . والمراد هنا حرّ النار ولفحها . ﴿ وَحَمِيمٍ ﴾ أى ماء حار قد ٱنتهى حره إذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم ، كالذى يفزع من النار إلى المـاء ليطفئ به الحر فيجده حميا حارا فى نهاية الحرارة والغليان . وقد مضى فى « القتال »(١) « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » . ﴿ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ أى يفزعون من السَّموم إلى الظل كما يفزع أهل الدنيا فيجدونه ظلاًّ من يَحْموم؛ أى من دخان جهنم أسود شديد السواد . عن ٱبن عباس ومجاهد وغيرهما . وكذلك اليَحموم فى اللغـة الشديد السواد وهو يَفْعول من الحَمّ وهو الشَّحْم المسودّ بٱحتراق النار . وقيل : هو مأخوذ من الحُمَم وهو الفحم . وقال الضحاك : النار سوداء وأهلها سود وكل مافيها أسود . وعن ٱبن عباس أيضا : النار سوداء . وقال ٱبن زيد : اليَحْموم جبل فى جهنم يستغيث إلى ظله أهل النـار . ﴿ لَا بَارِدٍ ﴾ بل حار لأنه من دخان شـفير جهنم . ﴿ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ عذب ؛ عن الضحاك . وقال سـعيد بن المسيّب : ولا حسن منظره ، وكل ما لا خير فيه فليس بكريم . وقيل : « وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ » أى من النار يُعذّبون بها ؛ كقوله تعـالى : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ أى إنمـا ٱستحقوا هذه العقوبة لأنهم كانوا فى الدنيـا متنعمين بالحرام والمترَف المنعَّم ؛ عن ٱبن عباس وغيره . وقال السُّدىّ : « مُتْرَفِينَ » أى مشركين . ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴾ أى يقيمون على على الشرك ؛ عن الحسن والضحاك وٱبن زيد . وقال قتـادة ومجاهد : الذنب العظيم الذى لا يتوبون منه . الشّعْبى : هو اليمين الغَمُوس وهى من الكبائر؛ يقال : حَنِث فى يمينه أى لم يَبرّها ورجع فيها . وكانوا يقسمون أن لا بعث ، وأن الأصنام أنداد الله فذلك حِنْثهم ؛ قال الله تعالى مخبرا عنهم : «وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَـانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ» . وفى الخبر :

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ٢٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

كان يتحنّث في حراء؛ أي يفعل ما يسقط عن نفسه الحنث وهو الذنب . ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا ﴾ هذا استبعاد منهم لأمر البعث وتكذيب له؛ فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ ﴾ من آبائكم ﴿ وَالْآخِرِينَ ﴾ منكم ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ يريد يوم القيامة . ومعنى الكلام القسم ودخول اللام في قوله تعالى : « لَمَجْمُوعُونَ » هو دليل القسم في المعنى؛ أي إنكم لمجموعون قسما حقّا خلاف قسمكم الباطل ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ ﴾ عن الهدى ﴿ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بالبعث ﴿ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ وهو شجر كريه المنظر كريه الطّعم وهي التي ذكرت في سورة « والصافات »(1) . ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ أي من الشجرة؛ لأن المقصود من الشجر شجرة . ويجوز أن تكون « من » الأولى زائدة ، ويجوز أن يكون المفعول محذوفا كأنه قال : « لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ » طعاما . وقوله : « مِنْ زَقُّومٍ » صفة لشجر، والصفة إذا قدرت الجار زائدا نصبت على المعنى، أو جررت على اللفظ، فإن قدرت المفعول محذوفا لم تكن الصفة إلا في موضع جر .

قوله تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ ﴾ أي على الزقّوم أو على الأكل أو على الشجر؛ لأنه يذكر ويؤنث . ﴿ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾ وهو الماء المغليّ الذي قد اشتدّ غليانه وهو صديد أهل النار . أي يورثهم حرّ ما يأكلون من الزقوم مع الجوع الشديد عطشا فيشربون ماء يظنون أنه يزيل العطش فيجدونه حميا مُغْلًى .

قوله تعالى : ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ قراءة نافع وعاصم وحمزة « شُرْبَ » بضم الشين . الباقون بفتحها لغتان جيدتان؛ تقول العرب : شربت شُرْبا وشَرْبا وشِرْبا وشُرُبا بضمتين . قال أبو زيد: سمعت العرب تقول بضم الشين وفتحها وكسرها والفتح هو المصدر الصحيح؛ لأن كل مصدر من ذوات الثلاثة فأصله فَعْل ألا ترى أنك ترده إلى المرة الواحدة؛ فتقول: فَعْلة نحو شَرْبة وبالضم الاسم . وقيل : إن المفتوح والاسم مصدران فالشَّرْب كالأكل والشُّرْب كالذُّكْر . والشِّرْب بالكسر المشروب كالطِّحْن المطحون . والهِيم الإبل العطاش التي

(1) راجع جـ ١٥ ص ٨٥ طبعة أولى أو ثانية

لا ترْوَى لداء يصيبها . عن ابن عباس وعكرمة وقَتَادة والسُّدىّ وغيرهم . وقال عِكرمة أيضا : هى الإبل المِراض . الضحاك : الهيم الإبل يصيبهـا داء تَعطَش منه عطشا شـديدا واحدها أَهْيَم والأنثى هَيْماء . ويقال لذلك الداء الهُيَام ؛ قال قيس بن الملوَّح :

يقـال بِهِ داء الهُيَـامِ أصـابه * وقـد علِمت نفسى مكانَ شِفائِهـا

وقوم هِيم أيضا أى عِطاش وقـد هاموا هُيَاما . ومن العرب من يقول فى الإبل هائم وهائمة والجمع هِيم ؛ قال لَبِيد :

أَجَزْتُ إلى معـارِفِهـا بِشُـعْثٍ * وأَطْلَاحٍ مِنَ العِيـدِىِّ هِيمِ (١)

وقال الضحاك والأخفش وابن عيينـة وابن كيسان : الهِيم الأرض السهلة ذات الرمـل . وروى أيضا عن ابن عباس : فيشربون شرب الرمال التى لا ترْوَى بالمـاء . المهدوى : ويقال لكل ما لا يروى من الإبل والرمل أهيم وهيماء . وفى الصحاح : والهُيَام بالضم أشد العطش والهُيَام كالجنون من العشق . والهُيَام داء يأخذ الإبل فتهيم فى الأرض لا ترعى . يقال : ناقة هَيْماء . والهيماء أيضا المفازة لا ماء بها . والهَيَام بالفتح الرمل الذى لا يتماسك أن يسيل من اليد للينه والجمع هِيم مثل قَـذَالٍ وقُذُلٍ (٢) . والهِيَام بالكسر الإبل العطاش الواحد هيمان وناقـة هيماء مثل عطشان وعطشى .

قوله تعـالى : ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ أى رزقهم الذى يعدّ لهم ، كالنزل الذى يعـدّ للأضياف تكرمة لهم ، وفيـه تهكم ؛ كما فى قوله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ » وكقول أبى السّعد الضَّبىّ :

وكنّا إذا الجَبّـارُ بالجيش ضافَنـا * جعلنا القَنـا والمرهفاتِ له نُزْلَا

وقرأ يونس بن حبيب وعباس عن أبى عمرو « هَذَا نُزْلُهُمْ » بإسكان الزاى ؛ وقد مضى فى آخر « آل عمران (٣) » القول فيه . « يَوْمَ الدِّينِ » يوم الجزاء يعنى فى جهنم .

---

(١) شعث : رجال ساءت حالهم من الجهد والسفر . وأطلاح : إبل مهازيل والواحد طليح . والعيدى إبل منسوبة إلى فحل . (٢) أى خففت وكسرت الهاء لأجل الياء . (٣) راجع جـ ٤ ص ٣٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ أى فهلا تصدّقون بالبعث ؟ لأن الإعادة كالابتداء . وقيل : المعنى نحن خلقنا رزقكم فهلا تصدّقون أن هذا طعامكم إن لم تؤمنوا ؟

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ أى ما تصبّونه من المنيّ فى أرحام النساء . ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ أى تصوّرون منه الإنسان ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ المقـدرون المصوّرون . وهـذا ٱحتجاج عليهم وبيـان للآية الأولى ؛ أى إذا أقررتم بأنا خالقوه لا غيرنا فاعترفوا بالبعث . وقرأ أبو السَّمّال ومحمد بن السَّمَيْقَع وأشهب العقيلي : « تَمْنُونَ » بفتح التـاء وهما لغتان أمنى ومنى وأمذى ومذى ، يُمنِى ويَمنِى ويُمذى ويَمذِى . المـاوردى : ويحتمل أن يختلف معناهما عنـدى فيكون أَمْنى إذا أنزل عن جماع ، ومَنَى إذا أنزل عن الاحتـلام . وفى تسمية المنيّ مَنِيًّا وجهان : أحدهما لإمنائه وهو إراقته . الثانى لتقديره ومنه المنَا الذى يوزن به لأنه مقدار لذلك ، كذلك المنيّ مقدار صحيح لتصوير الخلقة .

قوله تعـالى : ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ ﴾ ٱحتجاج أيضا أى الذى يقـدر على الإماتة يقدر على الخـلق ، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث . وقرأ مجاهد وحميد وٱبن مُحَيْصِن وٱبن كَثِير « قَدَرْنَا » بتخفيف الدال . الباقون بالتشديد ، قال الضحاك : أى سوينا بين أهل السماء وأهل الأرض . وقيل : قضينا . وقيل : كتبنا ، والمعنى متقارب ؛ فـلا أحد يبقى غيره عز وجل . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ . عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ ﴾ أى إن أردنا أن نبدل أمثالكم لم يسبقنا أحد ؛ أى لم يغلبنا . « وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ » معناه بمغلوبين . وقال الطبريّ : المعنى نحن قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم بعد موتكم آخرين من جنسكم ، وما نحن بمسبوقين

فى آجالكم ؛ أى لا يتقدّم متأخر ولا يتأخر متقدّم . ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الصور والهيئات . قال الحسن : أى نجعلكم قردة وخنازير كما فعلنا بأقوام قبلكم . وقيل : المعنى ننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا ، فيجمّل المؤمنُ ببياض وجهه ، ويُقبّح الكافرُ بسواد وجهه . سعيد بن جبير : قوله تعالى « فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » يعنى فى حواصل طير سود تكون ببَرَهُوت كأنها الخطاطيف ، وبَرَهُوت واد فى اليمن . وقال مجاهد : « فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ » فى أى خلق شئنا . وقيل : المعنى ننشئكم فى عالم لا تعلمون ، وفى مكان لا تعلمون .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ ﴾ أى إذ خلقتم من نُطْفة ثم من عَلَقة ثم من مُضْغة ولم تكونوا شيئا ؛ عن مجاهد وغيره . قتادة والضحاك : يعنى خلق آدم عليه السلام . ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أى فهلا تذكرون . وفى الخبر : عجبا كلّ العجب للكذّب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للصدّق بالنشأة الآخرة وهو لا يسعى لدار القرار . وقراءة العامة « النَّشْأَةَ » بالقصر . وقرأ مجاهد والحسن وابن كثير وأبو عمرو : « النَّشَاءَةَ » بالمد ، وقد مضى فى « العنكبوت »(١) بيانه .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ هذه حجة أخرى ؛ أى أخبرونى عما تحرثون من أرضكم فتطرحون فيها البذر ، أنتم تنبتونه وتحصلونه زرعا فيكون فيه السُّنْبل والحبّ أم نحن نفعل ذلك ؟ وإنما منكم البذر وشقّ الأرض ، فإذا أقررتم بأن إخراج السُّنْبل من الحبّ ليس إليكم ، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم ؟ ! وأضاف الحرث إليهم والزرع إليه تعالى ؛ لأن الحرث فعلهم ويجرى على اختيارهم ، والزرع من فعل الله تعالى

(١) راجع جـ ١٣ ص ٣٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

وينبت على اختياره لا على اختيارهم . وكذلك ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقولنّ أحدكم زرعتُ وليقلْ حرثتُ فإن الزارع هو الله" قال أبو هريرة : ألم تسمعوا قول الله تعالى « أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » . والمستحب لكل من يلقى البذر فى الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ » الآية ثم يقول : بل الله الزارع والمنبت والمبلغ ، اللهم صل على محمد ، وارزقنا ثمره ، وجنّبنا ضرره ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، ولآلائك من الذاكرين ، وبارك لنا فيه يارب العالمين . ويقال : إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات ؛ الدود والجراد وغير ذلك . سمعناه من ثقة وجُرِّب فوجد كذلك . ومعنى « أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ » أى تجعلونه [زرعا](1) . وقد يقال : فلان زرّاع كما يقال حراث ؛ أى يفعل ما يؤول إلى أن يكون زرعا يعجب الزراع . وقد يطلق لفظ الزرع على بذر الأرض وتكريبها تجوزا .

قلت : فهو نهى إرشاد لا نهى حظر وإيجاب ؛ ومنه قوله عليه السلام : "لا يقولنّ أحدكم عبدى وأمتى وليقلْ غلامى وجاريتى وفتاىَ وفتاتى"(2) وقد مضى فى « يوسف » القول فيه . وقد بالغ بعض العلماء فقال : لا يقل حرثت فأصبت ، بل يقل : أعاننى الله فحرثت ، وأعطانى بفضله ما أصبت . قال الماوردى : وتتضمن هذه الآية أمرين ؛ أحدهما — الامتنان عليهم بأن أنبت زرعهم حتى عاشوا به ليشكروه على نعمته عليهم . الثانى — البرهان الموجب للاعتبار ؛ لأنه لما أنبت زرعهم بعد تلاشى بذره ، وانتقاله إلى استواء حاله من العفن والتتريب حتى صار زرعا أخضر ، ثم جعله قويا مشتدا أضعاف ما كان عليه ، فهو بإعادة من أمات أخفّ عليه وأقدر ؛ وفى هذا البرهان مقنع لذوى الفِطَر السليمة . ثم قال : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ أى متكسرا يعنى الزرع . والحطام الهشيم الهالك الذى لا ينتفع به فى مطعم ولا غذاء ؛ فنبه بذلك أيضا على أمرين : أحدهما — ما أولاهم به من النِّعم فى زرعهم إذ لم يجعله حطاما ليشكروه . الثانى — ليعتبروا بذلك فى أنفسهم ؛ كما أنه يجعل

(1) زيادة لازمة . (2) راجع جـ ٩ ص ١٩٤ طبعة أولى أو ثانية .

الزرع حطاما إذا شاء ، كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا فينزجروا . ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أى تعجبون بذهابها وتندمون مما حل بكم ؛ قاله الحسن وقتادة وغيرهما . وفى الصحاح : وتفكه أى تعجب ويقال تندّم ، قال الله تعالى : « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ » أى تندّمون وتفكهت بالشيء تمتعت به . وقال يمان : تندمون على نفقاتكم ؛ دليله : « فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا » . وقال عكرمة : تلاومون وتندمون على ما سلف منكم من معصية الله التي أوجبت عقوبتكم حتى نالتكم فى زرعكم . ابن كيسان : تحزنون ؛ والمعنى متقارب . وفيه لغتان : تَفَكَّهون وتَفَكَّنون : قال الفراء : والنون لغة عُكْل . وفى الصحاح : التفكن التندّم على مافات . وقيل : التفكه التكلم فيما لا يعنيك ، ومنه قيل للزاح فُكَاهة بالضم ؛ فأما الفَكاهة بالفتح فمصدر فَكِه الرجلُ بالكسر فهو فَكِهٌ إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحا . وقراءة العامة « فَظَلْتُمْ » بفتح الظاء . وقرأ عبد الله « فَظِلْتُمْ » بكسر الظاء ورواها هرون عن حسين عن أبى بكر . فمن فتح فعلى الأصل والأصل ظَلِلْتم فحذف اللام الأولى تخفيفا ، ومن كسر نقل كسرة اللام الأولى إلى الظاء ثم حذفها . ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ وقرأ أبو بكر والمفضَّل « أَئِنَّا » بهمزتين على الاستفهام ورواه عاصم عن زِرّ بن حُبَيش . الباقون بهمزة واحدة على الخبر ؛ أى يقولون « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » أى معذَّبون ؛ عن ابن عباس وقتادة قالا والغرام العذاب ؛ ومنه قول ابن المحلِّم :

وثقت بأن الحفظ منّى سجيـة * وأنّ فؤادى مُتبَلٌ بك مغرمُ

وقال مجاهد وعكرمة : لمولع بنا ؛ ومنه قول النَّمِر بن تَوْلَب :

سَـلا عن تذكُّره تُكْتَما[(١)] * وكان رَهيناً بها مُغْرَمَا

يقال : أغرم فلان بفلانة ، أى أولع بها ومنه الغرام وهو الشر اللازم . وقال مجاهد أيضا : لملقون شرا . وقال مقاتل بن حيان : مهلكون . النحاس : « إِنَّا لَمُغْرَمُونَ » مأخوذ من الغَرَام وهو الهلاك ؛ كما قال[(٢)] :

يومُ النِّسَارِ ويومُ الجِفَـارِ * كَانَا عَـذَاباً وكانا غَرَاماَ

(١) تكتم : اسم من يشبب بها . (٢) قائله بشر بن أبى خازم . النسار موضع وقيل هو ماء لبنى عامر . والجفار موضع وقيل هو ماء لبنى تميم . ويوم النسار ويوم الجفار يومان من أيام العرب مشهوران .

الضحاك وابن كيسان : هو من الغُرْم ، والمُغْرَم الذى ذهب ماله بغير عوض ؛ أى غرمنا الحبّ الذى بذرناه . وقال مُرّة الهَمْدانى : محاسبون . ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ أى حرمنا ما طلبنا من الرّيع . والمحروم الممنوع من الرزق . والمحروم ضد المرزوق وهو الحارف فى قول قتادة .
وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بأرض الأنصار فقال : "ما يمنعكم من الحرث" قالوا : الجدوبة ؛ فقال : "لا تفعلوا فإن الله تعالى يقول أنا الزارع إن شئت زرعت بالماء وإن شئت زرعت بالريح وإن شئت زرعت بالبذر" ثم تلا « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ » .

قلت : وفى هذا الخبر والحديث الذى قبله ما يصحح قول من أدخل الزارع فى أسماء الله سبحانه ، وأباه الجمهور من العلماء ، وقد ذكرنا ذلك فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴾ لتحيوا به أنفسكم ، وتسكنوا به عطشكم ، لأن الشراب إنما يكون تبعا للطعوم ، ولهذا جاء الطعام مقدما فى الآية قبل ، ألا ترى أنك تسقى ضيفك بعد أن تطعمه . الزمخشرى : ولو عكست قعدت تحت قول أبى العلاء :

إذا سُقِيَتْ ضُيوفُ الناسِ مَحْضاً * سَقَوْا أضيافَهمْ شَبِماً زُلالا

وسُقِى بعضُ العرب فقال : أنا لا أشرب إلا على ثميلة . ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ أى السّحاب الواحدة مُزْنة ؛ فقال الشاعر :

فنحنُ كماءِ المُزْنِ ما فى نِصابِنا * كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيلُ

وهذا قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما أن المُزْن السّحاب . وعن ابن عباس أيضا والثوري : المُزْن السّماء والسحاب . وفي الصّحاح : أبو زيد؛ المُزْنة السّحابة البيضاء والجمع مُزْن، والمُزْنة المَطْرَة ؛ قال :

ألم تـرَ أنّ اللهَ أَنْزَلَ مُزْنَةً * وعُفْرُ الظِّباءِ في الكِنَاسِ تَقَمَّعُ[(١)]

﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ أي فإذا عرفتم بأني أنزلته فلم لا تشـكروني بإخلاص العبـادة لي ؟ ولم تنكرون قدرتي على الإعادة ؟ . ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ﴾ أي ملحا شديد الملوحة ؛ قاله ابن عباس . الحسن : مرًّا قُعاعًا[(٢)] لا تنتفعون به في شرب ولا زرع ولا غيرهما . ﴿ فَلَوْلَا ﴾ أي فهلّا تشكرون الذي صنع ذلك بكم .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ أي أخبروني عن النار التي تظهرونها بالقَدْح من الشجر الرَّطْب ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَـرَتَهَا ﴾ يعني التي تكون منها الزِّناد وهي المَرْخ والعَفَار . ومنه قولهم : في كلّ شجرٍ نارٌ واستمجد المَرْخُ والعَفَارْ ؛ أي استكثرا منها، كأنهما أخذا من النار ما هو حَسْبهما . ويقال : لأنهما يُسرعان الْوَرْيَ . يقال : أوريت النار إذا قدحتها . ووَرَى الزَّنْدُ يَرِي إذا انقدح منه النار . وفيه لغـة أخرى : ووَرِيَ الزَّنْدُ يَرَى بالكسر فيهما . ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ أي المخترعون الخالقون ؛ أي فإذا عرفتم قدرتي فاشكروني ولا تنكروا قدرتي على البعث .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ يعني نار الدنيا موعظة للنار الكبرى ؛ قاله قتادة . ومجاهد : تبصرة للناس من الظلام . وصح عن النبي صلى الله عليـه وسلم أنه قال : " إن ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم " فقالوا يا رسول الله : أن كانت لكافية ؛ قال : "فإنها فَضَلت عليها بتسعة وستين جزءا كلّهنّ مثل حَرِّها" . ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ قال الضحاك : أي منفعة للمسافرين ؛ سموا بذلك لنزولهم القَوَى وهو القفر . الفراء : إنما يقال

(١) البيت لأوس بن حجر : وتقمع تحرك رءوسها لتطرد القمعة وهي ذباب أزرق يدخل في أنوف الدواب .

(٢) في نسخة : زعاقا ومعناهما واحد، وهو الماء الشديد المرارة والملوحة .

للمسافرين مُقْوِين إذا نزلوا القِيّ وهي الأرض القفر التي لا شيء فيها . وكذلك القَوَى والقَوَاء بالمد والقصر، ومنزل قَوَاء لا أنيس به ؛ يقال : أَقْوَت الدارُ وقَوِيت أيضا أي خلَت من سكانها ؛ قال النابغة :

يادارَ ميَّةَ بالعَلْياءِ فالسَّنَدِ * أَقْوَتْ وطالَ عليها سالِفُ الأمَدِ

وقال عَنْتَرة :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقادَمَ عَهْدُهُ * أَقْوَى وأَقْفَرَ بعدَ أُمِّ الهَيْثَمِ

ويقال : أَقْوَى أي قَوِي وقَوِي أصحابه ، وأَقْوَى إذا سافر أي نزل القَوَاء والقِيّ . وقال مجاهد : للمقوين المستمتعين بها من الناس أجمعين في الطبخ والخبز والاصطلاء والاستضاءة ، ويتذكر بها نار جهنم فيستجار بالله منها . وقال ابن زيد : للجائعين في إصلاح طعامهم . يقال : أقويت منذ كذا وكذا أي ما أكلت شيئا ، وبات فلان القَوَاء وبات القفرَ إذا بات جائعا على غير طُعْم قال الشاعر (١) :

وإِنِّي لأختارُ القَوَى طاوِيَ الحَشَى * مُحافَظَةً من أَنْ يقالَ لَئِيمُ

وقال الربيع والسدي : المقوين المنزلين لا زناد معهم يعني نارا يوقدون فيختبزون بها ؛ ورواه العوفي عن ابن عباس . وقال قطرب : المُقْوِي من الأضداد يكون بمعنى الفقير ويكون بمعنى الغني ؛ يقال : أقوى الرجل إذا لم يكن معه زاد ، وأقوى إذا قويت دوابه وكثر ماله . المهدوي : والآية تصلح للجميع لأن النار يحتاج إليها المسافر والمقيم والغني والفقير . وحكى الثعلبي أن أكثر المفسرين على القول الأول . القشيري : وخص المسافر بالانتفاع بها لأن انتفاعه بها أكثر من منفعة المقيم ، لأن أهل البادية لا بد لهم من النار يوقدونها ليلا لتهرب منهم السباع ، وفي كثير من حوائجهم .

قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أي فنزه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد والعجز عن البعث .

(١) قائله : حاتم طيّ .

قوله تعـالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ ﴾ « لا » صلة فى قول أكثر المفسرين ، والمعنى فأقسم ؛ بدليل قوله : « وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ » . وقال الفراء : هى نفى والمعنى ليس الأمر كما تقولون ، ثم آستأنف « أُقْسِمُ » . وقد يقول الرجل : لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفى اليمين بل يريد به نفى كلام تقدّم . أى ليس الأمر كما ذكرت بل هو كذا . وقيل : « لا » بمعنى أَلَا للتنبيه كما قال[1] :

* أَلَا عِمْ صَبَاحاً أَيُّهـا الطَّلَلُ الْبَالِي *

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه ، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا . وقرأ الحسن وحميـد وعيسى بن عمر « فَلَأُقْسِمُ » بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حالٍ ويقدر مبتدأ محذوف ؛ التقدير : فلأنا أقسم بذلك . ولو أريد به الآستقبال للزمت النون ، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذى يراد به الآستقبال وهو شاذ .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ بِمَوَٰقِعِ النُّجُومِ ﴾ مواقع النجوم مساقطها ومغاربها فى قول قتادة وغيره . عطاء بن أبى رَبَاح : منازلهـا . الحسن : آنكدارها وآنتثارها يوم القيامة . الضحاك : هى الأنـواء التى كان أهل الجاهليـة يقولون إذا مُطِروا قالوا مُطِـرنا بنَوْءِ كذا . الماوردى : ويكون قوله تعالى « فَلَآ أُقْسِمُ » مستعملا على حقيقته من نفى القسم . القشيرى : هو قسم ولله تعالى أن يقسم بما يريد ، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة .

(١) قائله آمرؤ القيس ؛ وتمامه :

* وهل يعمن من كان فى العصر الخالى *

قلت : يدل على هـذا قراءة الحسن « فَلَأُقْسِمُ » وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته فى غير موضع من كتابه . وقال ٱبن عباس : المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما ، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السَّفَرة الكاتبين ، فنجمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد عليه الصلاة والسلام عشرين سنة ، فهو ينزله على الأحداث من أمته ؛ حكاه المـاوردى عن ٱبن عباس والسدىّ . وقال أبو بكر الأنبارى : حدثنا إسمعيل ٱبن إسحق القاضى حدثنا حجّاج بن المنهال حدثنا همّام عن الكلبى عن أبى صالح عن ٱبن عباس قال : نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل إلى الأرض نجوما ، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر ، فذلك قول الله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِـعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُـونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وحكى الفراء عن ٱبن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن . وقرأ حمزة والكسائى « بِمَوْقِـعِ » على التوحيد وهى قراءة عبد الله ٱبن مسعود والنَّخَعى والأعمش وٱبن محيصن ورُوَيس عن يعقوب . الباقون على الجمـع ؛ فمن أفرد فلأنه ٱسم جنس يؤدّى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ قيل : إن الهاء تعود على القرآن أى إن القرآن لقسم عظيم ؛ قاله ٱبن عباس وغيره . وقيل : ما أقسم الله به عظيم « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » ذكر المقسم عليه ؛ أى أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم ، ليس بسحر ولا كهانة وليس بمفترًى ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربّهم ، وشفاء صدورهم ؛ كريم على أهل السماء ؛ لأنه تنزيل ربّهم ووحيه . وقيل : « كَرِيمٌ » أى غير مخلوق . وقيل : « كَرِيمٌ » لما فيه من كريم الأخلاق ومعالى الأمور . وقيل : لأنه يُكرَّم حافظه ويُعظَّم قارئه .

الرابعـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ مصون عند الله تعـالى . وقيل : مكنون محفوظ عن البـاطل . والكتاب هنـا كتاب فى السماء ؛ قاله ٱبن عبـاس . وقال جابر بن زيد وٱبن عباس أيضا : هو اللوح المحفوظ . عكرمة : التـوراة والإنجيل فيهما ذكر

القرآن ومن ينزل عليه . السّدىّ : الزبور . مجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ اختلف فى معنى « لَا يَمَسُّهُ » هل هو حقيقة فى المسّ بالجارحة أو معنى؟ وكذلك اختلف فى «الْمُطَهَّرُونَ» من هم؟ فقال أنس وسعيد بن جبير : لا يمسّ ذلك الكتاب إلا المطهّرون من الذنوب وهم الملائكة . وكذا قال أبو العالية وابن زيد : إنهم الذين طُهِّروا من الذّنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بنى آدم؛ فجبريل النازل به مُطهَّر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهَّرون . الكلبىّ : هم السَّفَرة الكرام البَرَرَة . وهذا كله قول واحد، وهو نحو ما اختاره مالك حيث قال : أحسن ما سمعت فى قوله « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنها بمنزلة الاية التى فى «عَبَسَ وَتَوَلَّى» : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِى سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ » يريد أن المطهّرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة فى سورة «عبس» . وقيل : معنى «لَا يَمَسُّهُ» لا ينزل به « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أى الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء . وقيل : لا يمسّ اللوح المحفوظ الذى هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهّرون . وقيل : إن إسرافيل هو الموكل بذلك؛ حكاه القشيرى . ابن العربى : وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله فى وقت ولا تصل إليه بحال، ولو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه مجال . وأما من قال : إنه الذى بأيدى الملائكة فى الصحف فهو قول محتمل؛ وهو اختيار مالك . وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذى بأيدينا؛ وهو الأظهر . وقد روى مالك وغيره أن فى كتاب عمرو بن حزم الذى كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته : (من محمد النبىّ إلى شُرَحْبِيل بن عبد كُلَال والحرث بن عبد كُلَال ونُعَيْم بن عبد كُلَال قَيْل ذى رُعَين ومَعَافر وهَمْدان أما بعد) وكان فى كتابه ألا يمسّ القرآن إلا طاهر . وقال ابن عمر قال النبى صلى الله عليه وسلم : " لا تَمَسَّ القرآن إلا وأنت طاهر " . وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة : « لَا يَمَسُّهُ

إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » فقام وآغتسل وأسلم . وقد مضى فى أول سورة « طه »(١) . وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره : « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » من الأحداث والأنجاس . الكلبي : من الشرك . الربيع بن أنس : من الذنوب والخطايا . وقيل : معنى « لَا يَمَسُّهُ » لا يقرؤه « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » إلا الموحِّدون ؛ قاله محمد بن فضيل وعبيدة . قال عكرمة : كان آبن عباس ينهى أن يُمكَّن أحدٌ من اليهود والنصارى من قراءة القرآن . وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه وبركته إلا المطهَّرون ؛ أى المؤمنون بالقرآن . آبن العربي : وهو آختيار البخاريّ ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا" . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهّره الله من الشرك والنفاق . وقال أبو بكر الورّاق : لا يوفق للعمل به إلا السّعداء . وقيل : المعنى لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون . ورواه معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : ظاهر الآية خبر عن الشرع؛ أى لا يمسّه إلا المطهَّرون شرعا، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع ؛ وهذا آختيار القاضى أبى بكر بن العربي . وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة » . المهدويّ : يجوز أن يكون أمرا وتكون ضمة السين ضمة إعراب . ويجوز أن يكون نهيا وتكون ضمة السين ضمة بناء والفعل مجزوم .

السادسة — وآختلف العلماء فى مسّ المصحف على غير وضوء ؛ فالجمهور على المنع من مسّه لحديث عمرو بن حزم . وهو مذهب عليّ وآبن مسعود وسعد بن أبى وقاص وسعيد آبن زيد وعطاء والزهرى والنَّخَعيّ والحكم وحمّاد، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى . وآختلفت الرواية عن أبى حنيفة؛ فروى عنه أنه يمسّه المحدث ، وقد روى هذا عن جماعة من السَّلف منهم آبن عباس والشّعبي وغيرهما . وروى عنه أنه يمسّ ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه ، وأما الكتاب فلا يمسه إلا طاهر . آبن العربي : وهذا إن سلّمه مما يقوى الحجة عليه ؛ لأن حريم الممنوع ممنوع . وفيما كتبه النبي صلى الله عليه وسلم لعمرو

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٣ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ٱبن حزم أقوى دليل عليه . وقال مالك : لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذلك ، ولم يمنع من حَمْله بعلاقة أو مسّه بحائل . وقد روى عن الحكم وحمّاد وداود بن على أنه لا بأس بحمله ومسّه للسلم والكافر طاهرا أو محدثا إلا أن داود قال : لا يجوز للشرك حمله . وٱحتجوا فى إباحة ذلك بكتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه . وفى مسّ الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع ٱعتبارا بالبالغ . والثانى الجواز؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن؛ لأن تعلّمه حال الصغر؛ ولأن الصبيّ وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة؛ لأن النية لا تصح منه؛ فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثا .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى منزل؛ كقولهم : ضَرْب الأمير ونَسْج اليمن . وقيل : « تَنْزِيلٌ » صفة لقوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وقيل : أى هو تنزيل .

قوله تعالى : أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ أى مكذّبون ؛ قاله ٱبن عباس وعطاء وغيرهما . والمُدْهِن الذى ظاهره خلاف باطنه، كأنه شبه بالدُّهن فى سهولة ظاهره . وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مُدْهِنون كافرون ؛ نظيره : « وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ » . وقال المؤرّج : المدهن المنافق أو الكافر الذى يلين جانبه ليُخْفِى كفره ،

والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللِّين وأن يُسِرّ خلاف ما يظهر ؛ وقال أبو قيس بن الأسلت :

الحَزْمُ والقُوَّةُ خيرٌ من الإدهانِ والفَهَّةِ والهَاعِ (١)

وأدهن وداهن واحد . وقال قوم : داهنت بمعنى واريت وأدهنت بمعنى غششت . وقال الضحاك : «مدهنون» معرضون . مجاهد : ممالئون الكفار على الكفر به . ابن كيسان : المدهن الذي لا يعقل ما حق الله عليه ويدفعه بالعلل . وقال بعض اللغويين : مدهنون تاركون للجزم في قبول القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال ابن عباس : تجعلون شكركم التكذيب . وذكر الهيثم بن عدى : أن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان ؟ أى ما شكره . وإنما صلح أن يوضع اسم الرزق مكان شكره ؛ لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه فيكون الشكر رزقا على هذا المعنى . فقيل : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ » أى شكر رزقكم الذى لو وجد منكم لعاد رزقا لكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالرزق أى تضعون الكذب مكان الشكر ؛ كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » أى لم يكونوا يُصلّون ولكنهم كانوا يصفرون ويُصفّقون مكان الصلاة . ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغى أن يروه من قبل الوسائط التى جرت العادة بأن تكن أسبابا ؛ بل ينبغى أن يروه من قبل الله تعالى ، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمة ، أو صبرٍ إن كان مكروها تعبدا له وتذللا . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ « وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » حقيقة . وعن ابن عباس أيضا : أن المراد به الاستسقاء بالأنواء وهو قول العرب مُطِرنا بنَوْء كذا . رواه علىّ بن أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس قال : مُطِر الناس على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر قالوا

(١) الفهة العى . والهاع هنا : سوء الحرص مع ضعف .

هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صدق نوء كذا وكذا " قال فنزلت هذه الآية : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ » حتى بلغ « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » . وعنه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في سفر فعطشوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أرأيتم إن دعوت الله لكم فسُقيتم لعلكم تقولون هذا المطر بنوء كذا " فقالوا : يا رسول الله ما هذا بحين الأنواء . فصلّى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمُطروا ؛ فمرّ النبي صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سُقينا بنوء كذا ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أي شكركم لله على رزقه إياكم « أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » بالنعمة وتقولون سُقينا بنوء كذا ؛ كقولك : جعلتَ إحسانى إليك إساءة منك إلىّ ، وجعلتَ إنعامى لديك أن اتخذتنى عدوًّا . وفي الموطأ عن زيد بن خالد الجُهَنيّ أنه قال : صلّى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم صلاةَ الصبح بالحُدَيْبِية على إِثْرِ سماء (١) كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس وقال : "أتدرون ماذا قال ربكم" قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر بالكوكب فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب وأما من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بى " . قال الشافعي رحمه الله : لا أحبّ أحدا أن يقول مُطرنا بنوء كذا وكذا ، وإن كان النوء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ولا يحبس شيئا من المطر ، والذى أحبّ أن يقول : مُطرنا وقت كذا كما تقول مُطرنا شهر كذا ، ومن قال ، مُطرنا بنوء كذا ، وهو يريد أن النوء أنزل الماء ، كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر ، حلال دمه إن لم يتب . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكيا عن الله سبحانه : " أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر " فمعناه عندى على وجهين ؛ أما أحدهما فإن المعتقد بأن النوء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشئ للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفرا صريحا يجب استتابته عليه وقتله [إن أبى] (٢) لنبذه الإسلام وردّه القرآن ؛ والوجه الآخر أن

(١) في إثر سماء : أي بعد مطر . وفي « إثر » لغتان : كسر الهمزة وسكون الثاء ، وفتحهما .
(٢) زيادة يقتضيها السياق .

يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء ، وأنه سبب الماء على ما قدره الله وسبق فى علمه ؛ وهذا وإن كان وجها مباحا ، فإن فيه أيضا كفرا بنعمة الله عز وجل ، وجهلا بلطيف حكمته فى أنه ينزل الماء متى شاء ، مرة بنوء كذا ، ومرة بنوء كذا ، وكثيرا ما ينوء النوء فلا ينزل معه شيء من الماء ، وذلك من الله تعالى لا من النوء . وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مطر : مطرنا بنوء الفتح ؛ ثم يتلو : «مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا» قال أبو عمر : وهذا عندى نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم "مُطرنا بفضل الله ورحمته". ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين آستسقى به : ياعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كم بقى من نوء الثريا؟ فقال العباس : العلماء يزعمون أنها تعترض فى الأفق سبعا بعد سقوطها . فما مضت سابعة حتى مطروا ؛ فقال عمر : الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته . وكان عمر رحمه الله قد علم أن نوء الثُّريا وقت يُرجى فيه المطر ويؤمَّل فسأله عنه أخرج أم بقيت منه بقية . وروى سفيان بن عيينة عن إسمعيل بن أمية أن النبى صلى الله عليه وسلم سمع رجلا فى بعض أسفاره يقول : مطرنا ببعض عثانين الأسد ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كذبتَ بل هو سُقيا الله عز وجل" قال سفيان : عثانين الأسد الذراع والجبهة . وقراءة العامة « تُكَذِّبون » من التكذيب . وقرأ المفضّل عن عاصم ويحيى بن وثّاب « تَكْذِبُونَ » بفتح التاء مخففا . ومعناه ما قدمناه من قول من قال : مطرنا بنوء كذا . وثبت من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاث لن يزلن فى أمتى التفاخر فى الأحساب والنِّياحة والأنْواء" ولفظ مسلم فى هذا "أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ الفخر فى الأحساب والطعن فى الأنساب والآستسقاء بالنجوم والنياحة" .

قوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ أى فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الحُلقوم . ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى معروف؛ قال حاتم :

أَمَاوِيَّ ما يُغْنِي الثَّرَاءُ عن الفتى * إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ

وفى حديث : « إنّ مَلَك الموت له أعوان يقطعون العروق ويجمعون الروح شيئا فشيئا حتى ينتهى بها الى الحُلْقوم فيتوفاها ملك الموت » . ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أمرى وسلطانى . وقيل : تنظرون إلى الميت لا تقدرون له على شيء . وقال آبن عباس : يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تخرج نفسه . ثم قيل : هو رد عليهم فى قولهم لإخوانهم « لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا » أى فهل ردّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحُلْقوم . وقيل : المعنى فهلا إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه فى جسده، مع حرصكم على آمتداد عمره ، وحبكم ابقائه . وهذا رد لقولهم : « نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » . وقيل : هو خطاب لمن هو فى النزع ؛ أى إن لم يك ما بك من الله فهلا حفظت على نفسك الروح . ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أى بالقدرة والعلم والرؤية . قال عامر بن عبد القيس : ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إلىّ منه . وقيل : أراد ورسلنا الذين يتولون قبضه « أقرب إليه منكم » ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أى لا ترونهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أى فهلّا إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَدِينُونَ »(١) أى مجزيّون محاسبون . وقد تقدم . وقيل : غير مملوكين ولا مقهورين . قال الفراء وغيره : دنته ملكته ؛ وأنشد للحطيئة :

لقد دُيِّنْتِ(٢) أَمْرَ بَنِيكِ حَتَّى ❊ تَرَكْتِهِـمُ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ

يعنى مُلِّكْتِ . ودانه أى أذله وآستعبده ؛ يقال : دنته فدان . وقد مضى فى « الفاتحة »(٣) القول فى هذا عند قوله تعالى : « يَوْمِ الدِّينِ » . ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ ترجعون الروح الى الجسد . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين . و « تَرْجِعُونَهَا » جواب لقوله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » ولقوله : « فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ »

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) ويروى : سوست ؛ يخاطب أمه .

(٣) راجع جـ ١ ص ١٤٣ فما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أجيبا بجواب واحد . قاله الفراء . وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى : « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » أجيبا بجواب واحد وهما شرطان . وقيل : حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه . وقيل : فيها تقديم وتأخير مجازها : فلولا وهلّا إن كنتم غير مدينين ترجعونها ؛ تردون نفس هذا الميت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم .

قوله تعالى : فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ (٩٦)

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبين درجاتهم فقال : «فَأَمَّا إِنْ كَانَ» هذا المتوفى « مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » وهم السابقون . ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ وقراءة العامة « فَرَوْحٌ » بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره فراحة من الدنيا . وقال الحسن : الرَّوْح الرحمة . الضحاك : الرَّوح الاستراحة . القتبي : المعنى له في القبر طيب نسيم . وقال أبو العباس بن عطاء : الرَّوح النظر إلى وجه الله ، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه ، وجنة نعيم هو ألا يحتجب فيها عن الله عز وجل . وقرأ الحسن وقَتَادة ونصر بن عاصم والجَحْدَرِيّ ورُوَيس وزيد عن يعقوب « فَرُوحٌ » بضم الراء ورويت عن ابن عباس . قال الحسن : الرُّوح الرحمة ؛ لأنها كالحياة للمرحوم . وقالت عائشة رضى الله عنها : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم « فَرُوح » بضم الراء ومعناه فبقاء له وحياة

فى الجنة وهذا هو الرحمة . « وَرَيْحَانٌ » قال مجاهد وسعيد بن جبير : أى رزق . قال مقاتل : هو الرزق بلغة حمير؛ يقال خرجت أطلب ريحان الله أى رزقه ؛ قال النَّمِر بن تَوْلَب :

سَلَامُ الإلهِ ورَيْحانُه * ورحمتُـه وسَمَاءٌ دِرَرْ

وقال قتادة : إنه الجنة . الضحاك : الرحمـة . وقيل هو الريحان المعروف الذى يشم . قاله الحسن وقتادة أيضا . الربيع بن خيثم : هذا عند الموت والجنة مخبوءة له إلى أن يبعث . أبو الجوزاء : هذا عند قبض روحه يتلقى بضَبائر الرَّيْحان . أبو العالية : لا يفارق أحد رُوحه من المقربين فى الدنيا حتى يؤتى بغصنين(1) من ريحان فيشمهما ثم يقبض روحه فيهما وأصل ريحان وآشتقاقه تقدم فى أوّل سورة « الرحمن »(2) فتأمله . وقد سرد الثعلبى فى الرَّوْح والرَّيْحان أقوالا كثيرة سوى ما ذكرنا من أرادها وجدها هناك .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى « إِنْ كَانَ » هذا المتوفى « مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » ﴿ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ أى لست ترى منهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتم لهم ، فإنهم يسلمون من عذاب الله . وقيل : المعنى سلام لك منهم ؛ أى أنت سالم من الاغتمام لهم . والمعنى واحد . وقيل : أى إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلى الله عليك ويسلّم . وقيل : المعنى إنهم يسلّمون عليك يا محمد . وقيل : معناه سلمت أيها العبد مما تكره فإنك من أصحاب اليمين فحذف إنك . وقيل : إنه يُحيَّا بالسلام إكراما ؛ فعلى هذا فى محل السـلام ثلاثة أقاويل : أحدها عند قبض روحه فى الدنيا يسلّم عليه ملَك الموت ؛ قاله الضحاك . وقال آبن مسعود : إذا جاء ملَك الموت ليقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . وقد مضى هذا فى سورة « النحل »(3) عند قوله تعالى : « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ » الثانى عند مساءلته فى القبر يسلّم عليه منكر ونكير . الثالث عند بعثه فى القيامة تسلّم عليه الملائكة قبل وصوله إليها .

---

(1) فى رواية أخرى « بغصن » .   (2) راجع ص ١٥٧ فما بعدها من هذا الجزء .

(3) راجع ج ١٠ ص ١٠١ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قلت : وقد يحتمل أن تسلّم عليه فى المواطن الثلاثة ويكون ذلك إكراما بعد إكرام . والله أعلم . وجواب « إنْ » عند المبرِّد محذوف والتقدير مهما يكن من شيء « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » إن كان من أصحاب اليمين « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » فحذف جواب الشرط لدلالة ما تقدّم عليـه ، كما حذف الجواب فى نحو قولك أنت ظالم إن فعلت ؛ لدلالة ما تقدّم عليه . ومذهب الأخفش أن الفاء جواب « أَمَّا » و « إِنْ » ومعنى ذلك أن الفاء جواب « أَمَّا » وقد سدّت مسدّ جواب « إِنْ » على التقدير المتقدّم ، والفاء جواب لهما على هذا الحد . ومعنى « أَمَّا » عند الزجاج الخروج من شيء الى شيء ؛ أى دع ما كنا فيـه وخذ فى غيره .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ بالبعث ﴿ الضَّالِّينَ ﴾ عن الهدى وطريق الحقّ ﴿ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ أى فلهم رزق من حميم ، كما قال : « ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ » وكما قال : « ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ » ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ إدخال فى النار . وقيل : إقامة فى الجحيم ومقاساة لأنواع عذابها ؛ يقال : أصلاه النار وصلاه ؛ أى جعله يصلاها والمصدر ههنا أضيف إلى المفعول ؛ كما يقال : لفلان إعطاء مالٍ أى يُعطَى المـال . وقرئ « وَتَصْلِيَةِ » بكسر التاء أى ونزل من تصلية جحيم . ثم أدغم أبو عمرو التاء فى الجيم وهو بعيد . ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أى هذا الذى قصصناه محض اليقين وخالصه . وجاز إضافة الحق إلى اليقين وهما واحد لاختـلاف لفظهما . قال المبرد : هو كقولك عين اليقين ومحض اليقين فهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه عند الكوفيين . وعند البصريين حقّ الأمر اليقين أو الخبر اليقين . وقيل : هو توكيد . وقيل : أصل اليقين أن يكون نعتا للحق فأضيف المنعوت إلى النعت على الاتساع والمجاز ؛ كقوله : « وَلَدَارُ الْآخِرَةِ » وقال قتادة فى هذه الآية : إن الله ليس بتارك أحدا من الناس حتى يقفه على اليقين من هذا القرآن ، فأما المؤمن فأيقن فى الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة ، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين . ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ أى نزّه الله تعالى عن السوء . والباء زائدة أى سبح اسم ربك والاسم المسمى . وقيـل :

« فَسَبِّحْ » أى فصلّ بذكر ربك وبأمره . وقيل : فاذكر آسم ربك العظيم وسبحه . وعن عقبة بن عامر قال : لما نزلت « فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ » قال النبي صلى الله عليه وسلم "آجعلوها فى ركوعكم" ولما نزلت « سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى » قال النبي صلى الله عليه وسلم : "آجعلوها فى سجودكم" خرجه أبو داود . والله أعلم .

سـورة الحـديد

مدنية فى قول الجميع وهى تسع وعشرون آية

عن العرباض بن سارية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بالمسبِّحات قبل أن يرقد ويقول : "إن فيهنّ آية أفضل من ألف آية" يعني بالمسبِّحات « الحديد » و « الحشر » و « الصف » و « الجمعة » و « التغابن » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢)
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣)

قوله تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى مجد الله ونزهه عن السوء . وقال آبن عباس : صلى لله « مَا فِي السَّمَاوَاتِ » ممن خلق من الملائكة « وَالْأَرْضِ » من شيء فيه رُوح أو لا رُوح فيه . وقيل : هو تسبيح الدلالة . وأنكر الزجاج هذا وقال : لو كان هذا تسبيح الدلالة وظهور آثار الصنعة لكانت مفهومة ؛ فلِمَ قال : « وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » وإنما هو تسبيح مقال . وآستدل بقوله تعالى : « وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ » فلو كان هذا تسبيح دلالة فأى تخصيص لداود ؟ !

قلت : وما ذكره هو الصحيح ، وقد مضى بيانه والقول فيه في «سبحان»(١) عند قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ٱنفرد بذلك . والمُلْك عبارة عن المَلْك ونفوذ الأمر فهو سبحانه الملك القادر القاهر . وقيل : أراد خزائن المطر والنبات وسائر الرزق . ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يميت الأحياء في الدنيا ويحيي الأموات للبعث . وقيل : يحيي النطف وهي موات ويميت الأحياء . وموضع « يُحْيِي وَيُمِيتُ » رفع على معنى وهو يحيي ويميت . ويجوز أن يكون نصبا بمعنى « لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » محييا ومميتا على الحال من المجرور في « له » والجار عاملا فيها . ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أي الله لا يعجزه شيء .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ ٱختلف في معاني هذه الأسماء وقد بيناها في الكتاب الأسنى . وقد شرحها رسول الله صلى الله عليه وسلم شرحا يغني عن قول كل قائل؛ فقال في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء ٱقض عنا الدين وأغننا من الفقر" عنى بالظاهر الغالب ، وبالباطن العالم ؛ والله أعلم . ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ بما كان أو يكون فلا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٦٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ تقدّم في « الأعراف »(١) مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي يدخل فيهـا من مطر وغيره ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَـا ﴾ من نبات وغيره ﴿ وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ من رزق ومطر ومَلَك ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ يعني بقدرته وسلطانه وعلمه ﴿ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ يبصر أعمالكم ويراها ولا يخفى عليه شيء منها . وقد جمع في هذه الآية بين « اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » وبين « وَهُـوَ مَعَكُمْ » والأخذ بالظاهرين تناقض فدل على أنه لا بدّ من التأويل ، والإعراض عن التأويل اعتراف بالتناقض . وقد قال الإمام أبو المعالي : إن محمدا صلى الله عليه وسلم ليـلة الإسراء لم يكن بأقرب إلى الله عز وجل من يونس بن متى حين كان في بطن الحوت . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هـذا التكرير للتأكيد أي هو المعبود على الحقيقة ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أي أمور الخـلائق في الآخرة . وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصن وحميد والأعمش وحمزة والكسائي وخلف « تَرجِع » بفتح التاء وكسر الجيم . الباقون « تُرْجَعُ » .

قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ تقدّم في « آل عمران »(٢) . ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي لا تخفى عليه الضمائر ، ومن كان بهذه الصفة فـلا يجوز أن يعبد من سواه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٨ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى صدّقوا أن الله واحد وأن محمدا رسوله ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ تصدّقوا . وقيل أنفقوا فى سبيل الله . وقيل : المراد الزكاة المفروضة . وقيل : المراد غيرها من وجوه الطاعات وما يقرب منه ﴿ مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ دليل على أن أصل الملك لله سبحانه ، وأن العبد ليس له فيه إلا التصرف الذى يرضى الله فيثيبه على ذلك بالجنة . فمن أنفق منها فى حقوق الله وهان عليه الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم . وقال الحسن : « مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » بوراثتكم إياه عمن كان قبلكم . وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم فيها إلا بمنزلة النوّاب والوكلاء ، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحقّ قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم . ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وعملوا الصالحات ﴿ مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا ﴾ فى سبيل الله ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ وهو الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ استفهام يراد به التوبيخ . أى أىّ عذر لكم فى ألا تؤمنوا وقد أزيحت العلل ؟ ! ﴿ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ بين بهذا أنه لا حكم قبل ورود الشرائع . وقرأ أبو عمرو : ﴿ وَقَدْ أُخِذَ مِيثَاقُكُمْ ﴾ على غير مسمى الفاعل . والباقون على مسمى الفاعل ، أى أخذ الله ميثاقكم . قال مجاهد : هو الميثاق الأوّل الذى كان وهم فى ظهر آدم بأن الله ربكم لا إله لكم سواه . وقيل : أخذ ميثاقكم بأن ركب فيكم العقول ، وأقام عليكم الدلائل والحجج التى تدعو إلى متابعة الرسول ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى إذ كنتم . وقيل : أى

إن كنتم مؤمنين بالحجج والدلائل . وقيل : أى إن كنتم مؤمنين بحق يوما من الأيام فالآن أحرى الأوقات أن تؤمنوا لقيام الحجج والأعلام ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم فقد صحت براهينه . وقيل : إن كنتم مؤمنين بالله خالقكم . وكانوا يعترفون بهذا . وقيل : هو خطاب لقوم آمنوا وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم ميثاقهم فآرتدوا . وقوله : « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » أى إن كنتم تقرون بشرائط الإيمان .

قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يريد القرآن . وقيل : المعجزات ؛ أى لزمكم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ لما معه من المعجزات ، والقرآن أكبرها وأعظمها . ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ أى بالقرآن . وقيل : بالرسول . وقيل : بالدعوة . ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ وهو الشرك والكفر ﴿إِلَى النُّورِ﴾ وهو الإيمان . ﴿وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

قوله تعالى : وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ أَنْ لَا تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ﴾ أى أىُّ شىء يمنعكم من الإنفاق فى سبيل الله ، وفيما يقربكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهى صائرة إلى الله تعالى . فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق . ﴿وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى إنهما راجعتان إليه بآنقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له .

الثانية — قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة . وقال الشَّعْبىّ والزُّهرىّ : فتح الحُدَيْبية . قال قتادة :

كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك. وفى الكلام حذف؛ أى «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل. فحذف لدلالة الكلام عليه. وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم؛ لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشقّ والأجر على قدر النَّصَب. والله أعلم.

الثالثــة — روى أشهب عن مالك قال: ينبغى أن يُقدَّم أهل الفضل والعزم؛ وقد قال الله تعالى: «لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ» وقال الكلبي: نزلت في أبى بكر رضى الله عنــه؛ ففيها دليل واضح على تفضيل أبى بكر رضى الله عنه وتقديمــه؛ لأنه أوّل من أسلم. وعن ابن مسعود: أوّل من أظهر الإسلام بسيفه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر؛ ولأنه أوّل من أنفق على نبيّ الله صلى الله عليــه وسلم. وعن ابن عمر قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو بكر وعليه عباءة قد خلَّلها فى صدره بخِلَال فنزل جبريل فقال: يانبيّ الله! مالى أرى أبابكر عليه عَبَاءة قد خلَّلها فى صدره بخِلَال فقال: "قد أنفق علىَّ ماله قبــل الفتح" قال: فإن الله يقــول لك اقرأ على أبى بكر السلام وقــل له أراضٍ أنت فى فقرك هذا أم ساخط؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا بكر إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أراضٍ أنت فى فقرك هذا أم ساخط" فقال أبو بكر: أأسخط على ربّى؟ إنى عن ربّى لراضٍ، إنى عن ربّى لراضٍ، إنى عن ربّى لراضٍ، قال: "فإن الله يقــول لك قد رضيت عنك كما أنت عنى راضٍ" فبكى أبو بكر فقال جبريل عليــه السلام: والذى بعثك يا محمد بالحقّ، لقد تخلَّلت حملةُ العرش بالعُبِيّ منذ تخلَّل صاحبك هذا بالعباءة؛ ولهذا قدمته الصحابة على أنفسهم، وأقروا له بالتقدم والسبق. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: سبق النبي صلى الله عليه وسلم وصلَّى أبو بكر وثلَّث عمر، فلا أوتى برجل فضَّلنى على أبى بكر إلا جلدته حد المفترى ثمانين جلدة وطرح الشهادة. فنال المتقدمون من المشقة أكثر مما نال من بعدهم، وكانت بصائرهم أيضا أنفذ.

الرابعة — التقدم والتأخر قد يكون في أحكام الدنيا، فأما في أحكام الدين فقد قالت عائشة رضي الله عنها : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم . وأعظم المنازل مرتبة الصلاة . وقد قال صلى الله عليه وسلم في مرضه : " مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس " الحديث . وقال : " يؤم القومَ أقرؤهم لكتاب الله " وقال : " وليؤمّكما أكبركما " من حديث مالك بن الحويرث وقد تقدم . وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كبر المنزلة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " الولاء لِلكُبْر " ولم يعن كبر السن . وقد قال مالك وغيره : إن للسنّ حقّا . وراعاه الشافعي وأبو حنيفة وهو أحقّ بالمراعاة ؛ لأنه إذا اجتمع العلم والسنّ في خَيِّرين قُدِّم العلم ، وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدين ، فمن قُدِّم في الدين قُدِّم في الدنيا . وفي الآثار : " ليس مِنا من لم يوقِّر كبيرنا و يرحمْ صغيرنا و يعرفْ لعالمنا حقّه " . ومن الحديث الثابت في الأفراد : "ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيّض الله له عند سنّه من يكرمه " وأنشدوا [(١)] :

يا عائبا للشيوخ مِن أشَرٍ * دَاخَلَهُ في الصِّبا ومِن بَذَخِ

اذكر إذا شئتَ أن تُعيِّرهُمْ * جَدَّكَ واذكر أباك يا بن أخِ

واعلم بأن الشباب منسلخٌ * عنك وما وِزْرُه بمنسلخ

من لا يعزّ الشيوخَ لا بلغتْ * يوماً به سِنُّه إلى الشَّيَخِ

الخامسة — قوله تعالى : « وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » أي المتقدمون المتناهون السابقون والمتأخرون اللاحقون وعدهم الله جميعا الجنة مع تفاوت الدرجات . وقرأ ابن عامر «وَكُلٌّ» بالرفع وكذلك هو بالرفع في مصاحف أهل الشام . الباقون « وَكُلًّا » بالنصب على ما في مصاحفهم ؛ فمن نصب فعلى إيقاع الفعل عليه أي وعد الله كلًّا الحسنى . ومن رفع فلأن المفعول إذا تقدم ضعف عمل الفعل ، والهاء محذوفة من وَعَدَه .

---

(١) هو لابن عبد الصمد السرقسطي كما في « أحكام القرآن » لابن العربي .

قوله تعالى : مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ندب إلى الإنفاق فى سبيل الله . وقد مضى فى « البقرة »[١] القول فيه . والعرب تقول لكل من فعل فعلا حسنا قد أقرض ؛ كما قال[٢] :

وإذا جُوزِيتَ قَرْضًا فاجْزِهِ * إنَّمَا يَجْزِى الفتى ليس الجَمَلْ

وسمى قرضا ؛ لأن القرض أخرج لاسترداد البدل ، أى من ذا الذى ينفق فى سبيل الله حتى يبدله الله بالأضعاف الكثيرة . قال الكلبى : « قرضا » أى صدقة « حسنا » أى محتسبا من قلبه بلا منٍّ ولا أذى . ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ ما بين السبع إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف . وقيل : القرض الحسن هو أن يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . رواه سفيان عن أبى حيان[٣] . وقال زيد بن أسلم : هو النفقة على الأهل . الحسن : التطوع بالعبادات . وقيل : إنه عمل الخير ؛ والعرب تقول : لى عند فلان قرض صدق وقرض سوء . القشيرى : والقرض الحسن أن يكون المتصدق صادق النية طيب النفس ، يبتغى به وجه الله دون الرياء والسمعة ، وأن يكون من الحلال . ومن القرض الحسن ألا يقصد إلى الردىء فيخرجه ؛ لقوله تعالى : « ولا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ »

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٧ فما بعدها .

(٢) قائله لبيد ؛ ومعنى البيت : إذا أسدى إليك معروف فكافئ عليه .

(٣) كل نسخ الأصل بلفظ أبى حيان والظاهر أن صوابه : ابن حيان .

وأن يتصدق في حال يأمل الحياة ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم سـئل عن أفضل الصدقة فقال : " أن تعطيـه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش ولا تمهـل حتى إذا بلغت التراقي قلت لفلان كذا ولفلان كذا " وأن يخفي صـدقته ؛ لقوله تعـالى : « وَإِنْ تُخْفُـوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » وألّا يمُنّ ؛ لقوله تعالى : « لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » وأن يستحقر كثير ما يعطى ؛ لأن الدنيا كلها قليلة ، وأن يكون من أحبّ أمواله ؛ لقوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّـا تُحِبُّونَ » وأن يكون كثيرا ؛ لقوله صـلى الله عليه وسـلم : "أفضل الرقاب أغلاها ثمنا وأنفسها عند أهلها" . « فَيُضَاعِفَهُ لَهُ » وقرأ ابن كثير وابن عامر « فَيُضَعِّفُهُ » بإسقاط الألف إلا ابن عامر ويعقوب نصبوا الفاء . وقرأ نافع وأهل الكوفة والبصرة « فَيُضَاعِفُـهُ » بالألف وتخفيف العين إلا أن عاصما نصب الفاء . ورفـع الباقون عطفا على « يُقْرِضُ » . وبالنصب جوابا على الاسـتفهام . وقد مضى في « البقرة »[(1)] القول في هذا مستوفى . ﴿ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعني الجنة .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ العامل في « يوم » « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » وفي الكلام حذف أي « وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » في « يوم ترى » فيه ﴿ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ ﴾ أي يمضي على الصراط في قول الحسن . وهو الضياء الذي يمرون فيه ﴿ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي قـدّامهم . ﴿ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ قال الفراء : الباء بمعنى في أي في أيمانهم أو بمعنى عن أي عن أيمانهم . وقال الضحاك : «نُورُهُمْ» هداهم «وبِأَيْمَانِهِمْ» كتبهم ؛ واختاره الطبري . أي يسعى إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم ، وفي أيمانهم كتب أعمالهم . فالباء على هـذا بمعنى في . ويجوز على هذا أن يوقف على « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » ولا يوقف إذا كانت بمعنى عن . وقرأ سهل ابن سعد الساعدي وأبو حيوة «وبإيمانهم» بكسر الألف أراد الإيمان الذي هو ضد الكفر . وعطف ما ليس بظرف على الظرف ؛ لأن معنى الظرف الحال وهو متعلق بمحذوف . والمعنى

---

(١) راجع ج ٣ ص ٢٣٩ طبعة أولى أو ثانية .

يسعى كائنا « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » وكائنا « بِأَيْمَانِهِمْ » وليس قوله « بَيْنَ أَيْدِيهِمْ » متعلقا بنفس « يَسْعَى » . وقيل : أراد بالنور القرآن . وعن ابن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم ، وأدناهم نورا من نوره على إبهام رجله فيطفأ مرة ويوقد أخرى . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعدن أو ما بين المدينة وصنعاء ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلا موضع قدميه " قال الحسن : ليستضيئوا به على الصراط كما تقدم . وقال مقاتل : ليكون دليلا لهم إلى الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ التقدير يقال لهم « بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ » دخول جنات ولا بد من تقدير حذف المضاف ؛ لأن البشرى حدث والجنة عين فلا تكون هي هي . « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أي من تحتهم أنهار اللبن والماء والخمر والعسل من تحت مساكنها . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ حال من الدخول المحذوف ؛ التقدير « بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ » دخول جنات « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » مقدرين الخلود فيها ولا تكون الحال من بشراكم ؛ لأن فيه فصلا بين الصلة والموصول . ويجوز أن يكون مما دل عليه البشرى ، كأنه قال : تبشرون خالدين . ويجوز أن يكون الظرف الذي هو « الْيَوْمَ » خبرا عن « بُشْرَاكُمْ » و « جَنَّاتٌ » بدلا من البشرى على تقدير حذف المضاف كما تقدم . و « خَالِدِينَ » حال حسب ما تقدم . وأجاز الفراء نصب « جَنَّات » على الحال على أن يكون « الْيَوْمَ » خبرا عن « بُشْرَاكُمْ » وهو بعيد ؛ إذ ليس في « جَنَّات » معنى الفعل . وأجاز أن يكون « بشراكم » نصبا على معنى يبشرونهم بشرى وينصب « جنات » بالبشرى وفيه تفرقة بين الصلة والموصول .

قوله تعـالى : يَـوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ ﴾ العامل في « يوم » « ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » . وقيل : هو بدل من اليوم الأول . ﴿ ٱنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ ﴾ قراءة العامة بوصل الألف مضمومة الظاء من نظر؛ والنظر الانتظار أي انتظرونا . وقرأ الأعمش وحمزة ويحيى بن وثاب «أَنْظِرُونَا» بقطع الألف وكسر الظاء من الإنظار . أي أمهلونا وأخرونا ؛ أنظرته أخرته واستنظرته أي استمهلته . وقال الفراء : تقول العرب : أنظرني انتظرني ؛ وأنشد لعمرو بن كُلْثوم :

أَبَا هِندٍ فلا تَعجلْ عَلَيْنَا * وأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ اليقينَـا

أي انتظرنا . ﴿ نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ أي نستضيء من نوركم . قال ابن عباس وأبو أمامة : يغشى الناس يوم القيامة ظلمة — قال المـاوردي : أظنها بعد فصل القضاء — ثم يعطون نورا يمشون فيه . قال المفسرون : يعطى الله المؤمنين نورا يوم القيامة على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط، ويعطى المنافقين أيضا نورا خديعة لهم؛ دليله قوله تعالى : « وَهُوَ خَادِعُهُمْ » . وقيل : إنما يعطون النور ؛ لأن جميعهـم أهل دعوة دون الكافر ، ثم يسلب المنـافق نوره لنفاقه ؛ قاله ابن عباس . وقال أبو أمامة : يعطى المؤمن النور ويترك الكافر والمنافق بلا نور . وقال الكلبي : بل يستضيء المنافقون بنـور المؤمنين ولا يعطون النـور ، فبينما هم يمشـون

إذ بعث الله فيهم ريحا وظلمة فأطفأ بذلك نور المنافقين؛ فذلك قوله تعالى : « رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا » يقوله المؤمنون ؛ خشية أن يسلبوه كما سلبه المنافقون ، فإذا بقي المنافقون في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم قالوا للؤمنين : « ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » . ﴿ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ ﴾ أي قالت لهم الملائكة « ٱرْجِعُوا » . وقيل : بل هو قول المؤمنين لهم « ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ » إلى الموضع الذي أخذنا منه النور فآطلبوا هنالك لأنفسكم نورا فإنكم لا تقتبسون من نورنا . فلما رجعوا وانعزلوا في طلب النور ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ ﴾ . وقيل : أي هلا طلبتم النور من الدنيا بأن تؤمنوا . « بِسُورٍ » أي سُورٌ ؛ والباء صلة . قاله الكسائي . والسّور حاجز بين الجنة والنار . وروى أن ذلك السّور ببيت المقدس عند موضع يعرف بوادي جهنم . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ يعني ما يلي منه المؤمنين ﴿ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ يعني ما يلي المنافقين . قال كعب الأحبار : هو الباب الذي ببيت المقدس المعروف بباب الرحمة . وقال عبد الله بن عمرو : إنه سور بيت المقدس الشرقي باطنه فيه المسجد « وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعني جهنم . ونحوه عن آبن عباس . وقال زياد بن أبي سوادة : قام عبادة آبن الصامت على سور بيت المقدس الشرقي فبكى ، وقال : من هاهنا أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى جهنم . وقال قتادة : هو حائط بين الجنة والنار « بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ » يعني الجنة « وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ » يعني جهنم . وقال مجاهد : إنه حجاب كما في « الأعراف » وقد مضى القول فيه (١) . وقد قيل : إن الرحمة التي في باطنه نور المؤمنين ، والعذاب الذي في ظاهره ظلمة المنافقين .

قوله تعالى : ﴿ يُنَادُونَهُمْ ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين ﴿ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴾ في الدنيا يعني نصلي مثل ما تصلون ، ونغزو مثل ما تغزون ، ونفعل مثل ما تفعلون ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أي يقول المؤمنون « بَلَىٰ » قد كنتم معنا في الظاهر ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي آستعملتموها في الفتنة . وقال مجاهد : أهلكتموها بالنفاق . وقيل : بالمعاصي ؛ قاله أبو سنان . وقيل : بالشهوات واللذات

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

رواه أبو نمير الهمداني . ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أي «تَرَبَّصْتُمْ» بالنبي صلى الله عليه وسلم الموت وبالمؤمنين الدوائر . وقيل : «تَرَبَّصْتُمْ» بالتوبة «وَارْتَبْتُمْ» أي شككتم في التوحيد والنبوة ﴿ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أي الأباطيل . وقيل : طول الأمل . وقيل : هو ما كانوا يتمنونه من ضعف المؤمنين ونزول الدوائر بهم . وقال قتادة : الأماني هنا خدع الشيطان . وقيل : الدنيا ؛ قاله عبد الله بن عباس[1] . وقال أبو سنان : هو قولهم سيغفر لنا . وقال بلال بن سعد : ذكرك حسناتك ونسيانك سيئاتك غِرة . ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ يعني الموت . وقيل : نصرة نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال قتادة : إلقاؤهم في النار . ﴿ وَغَرَّكُم ﴾ أي خدعكم ﴿ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أي الشيطان . قاله عكرمة ؛ وقيل : الدنيا ؛ قاله الضحاك . وقال بعض العلماء : إن للباقي بالماضي معتبرا ، وللآخر بالأول مزدجرا ، والسعيد من لا يغتر بالطمع ، ولا يركن إلى الخدع ومن ذكر المنيّة نسي الأمنيّة ، ومن أطال الأمل نسي العمل ، وغفل عن الأجل . وجاء « الْغَرُورُ » على لفظ المبالغة للكثرة . وقرأ أبو حيوة ومحمد بن السَّمَيْقع وسِمَاك بن حرب «الْغُرُور» بضم الغين يعني الأباطيل وهو مصدر . وعن ابن عباس : أن نبي الله صلى الله عليه وسلم خط لنا خطوطا ، وخطّ منها خطّا ناحية فقال : " أتدرون ما هذا هذا مثل ابن آدم ومثل التمني وتلك الخطوط الآمال بينما هو يتمنى إذ جاءه الموت " . وعن ابن مسعود قال : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطّا مربعا ، وخطّ في وسطه خطّا وجعله خارجا منه ، وخط عن يمينه ويساره خطوطا صغارا فقال : " هذا ابن آدم وهذا أجله محيط به وهذا أمله قد جاوز أجله وهذه الخطوط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا وإن أخطأه هذا نهشه هذا " .

قوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ أيها المنافقون ﴿ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أيأسهم من النجاة . وقراءة العامة « يؤخذ » بالياء ؛ لأن التأنيث غير حقيقي ؛ ولأنه قد فصل بينها وبين الفعل . وقرأ ابن عامر ويعقوب «تُؤْخَذُ» بالتاء واختاره أبو حاتم لتأنيث الفدية . والأول

(١) في بعض الأصول : عبد الله بن عياش .

آختيار أبي عبيد؛ أي لا يقبل منكم بدل ولا عوض ولا نفس أخرى . ﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي مقامكم ومنزلكم ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أي أولى بكم والمولى من يتولى مصالح الإنسان، ثم آستعمل فيمن كان ملازما للشيء . وقيل : أي النار تملك أمرهم؛ بمعنى أن الله تبارك وتعالى يُركِّب فيها الحياة والعقل فهي تتميز غيظا على الكفار، ولهذا خوطبت في قوله تعالى : « يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » . ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أي ساءت مرجعا ومصيرا .

قوله تعالى : أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي يقرب ويحين، قال الشاعر :

أَلَمْ يَأْنِ لِي يَا قَلْبُ أَنْ أَتْرُكَ الجَهْلَا * وأن يُحْدِثَ الشَّيْبُ المبينُ لنا عَقْلَا

وماضيه أَنَى بالقصر يَأْنِي . ويقال : آن لك — بالمد — أن تفعل كذا يَئِين أَيْنًا أي حان، مثل أَنَى لك وهو مقلوب منه . وأنشد آبن السكيت :

أَلَمَّا يَئِنْ لِي أَنْ تُجَلَّى عَمَايَتِي * وأُقْصِرُ عن لَيْلَى بَلَى قد أَنَى لِيَا

فجمع بين اللغتين . وقرأ الحسن « أَلَمَّا يَأْنِ » وأصلها « أَلَمْ » زيدت « ما » فهي نفي لقول القائل : قد كان كذا؛ و « لم » نفي لقـوله : كان كذا . وفي صحيح مسلم عن آبن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهـذه الآية « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ» إلا أربع سنين . قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة المَوْجِدة؛ تقـول عاتبته معاتبة ﴿ أَنْ تَخْشَعَ ﴾ أي تذل وتلين ﴿ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

روى أن المزاح والضحك كثر في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لمـا ترفّهوا بالمدينة، فنزلت الآية؛ ولمـا نزلت هذه الآية قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله يستبطئكم بالخشوع " فقالوا عنـد ذلك : خَشَعنا . وقال آبن عباس : إن الله آستبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن . وقيل : نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة . وذلك أنهم سألوا سلمان أن يحدثهم بعجائب التوراة فنزلت « الۤر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » إلى قوله : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » الآية ؛ فأخبرهم أن هـذا القصص أحسن من غيره وأنفع لهم، فكفّوا عن سلمان، ثم سألوه مثل الأول فنزلت : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » فعلى هذا التأويل يكون الذين آمنوا في العلانية باللسان. قال السدي وغيره : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُـوا » بالظاهر وأسرّوا الكفر « أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » . وقيـل : نزلت في المؤمنين . قال سعد : قيـل يارسول الله لو قصصت علينا فنزل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » فقالوا بعد زمان : لو حدثتنا فنزل « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » فقالوا بعد مدة لو ذكرتنا فأنزل الله تعالى «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ» ونحوه عن آبن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين، فجعل ينظر بعضنا إلى بعض ويقول : ما أحدثنا ؟ قال الحسن : آستبطأهم وهم أحب خلقه إليه . وقيل : هذا الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى دون محمد عليهم السلام لأنه قال عقيب هذا : « والَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ » أي ألم يأن للذين آمنوا بالتوراة والإنجيل أن تلين قلوبهم للقرآن، وألا يكونوا كمتقدمي قوم موسى وعيسى؛ إذ طال عليهم الأمد بينهم وبين نبيهم فقست قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا ﴾ أي وألا يكونوا فهو منصوب عطفا على « أَنْ تَخْشَعَ » . وقيل : مجزوم على النهي ؛ مجازه ولا يكونن ؛ ودليل هذا التأويل رواية رُوَيس عن يعقوب « وَلَا تَكُونُوا » بالتاء ؛ وهي قراءة عيسى وآبن إسحـق . يقول : لا تسلكوا سبيل اليهـود والنصارى؛ أعطوا التوراة والإنجيل فطالت الازمان بهم . قال آبن مسعود : إن بني إسرائيل

لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم، فآخترعوا كتابا من عند أنفسهم آستحلته أنفسهم، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. ثم قالوا: أعرضوا هذا الكتاب على بنى إسرائيل، فإن تابعوكم فآتركوهم وإلا فآقتلوهم. ثم آصطلحوا على أن يرسلوه إلى عالم من علمائهم، وقالوا: إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد، وإن أبى قتلناه فلا يختلف علينا بعده أحد؛ فأرسلوا إليه، فكتب كتاب الله فى ورقة وجعلها فى [قرْن وعلّقه فى] (١) عنقه ثم لبس عليه ثيابه، فأتاهم فعرضوا عليه كتابهم، وقالوا: أتؤمن بهذا؟ فضرب بيده على صدره، وقال: آمنت بهذا يعنى المعلق على صدره. فآفترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة؛ وخير مللهم أصحاب ذى القَرْن. قال عبد الله: ومن يعش منكم فسيرى منكرا، وبحسب أحدكم إذا رأى المنكر لا يستطيع أن يغيره أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره. وقال مقاتل بن حيان (٢): يعنى مؤمنى أهل الكتاب طال عليهم الأمد وآستبطئوا بعث النبى صلى الله عليه وسلم ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعنى الذين ابتدعوا الرهبانية أصحاب الصوامع. وقيل: من لا يعلم ما يتدين به من الفقه ويخالف من يعلم. وقيل: هم من لا يؤمن فى علم الله تعالى. ثبتت طائفة منهم على دين عيسى حتى بُعث النبى صلى الله عليه وسلم فآمنوا به، وطائفة منهم رجعوا عن دين عيسى وهم الذين فسّقهم الله. وقال محمد بن كعب: كانت الصحابة بمكة مجدبين، فلما هاجروا أصابوا الرِّيف والنعمة، ففتروا عما كانوا فيه، فقست قلوبهم، فوعظهم الله فأفاقوا. وذكر آبن المبارك: أخبرنا مالك بن أنس، قال بلغنى أن عيسى عليه السلام قال لقومه: لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى فتقسو قلوبكم، فإن القلب القاسى بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب وآنظروا فيها — أو قال فى ذنوبكم — كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى، فآرحموا أهل البلاء، وآحمدوا الله على العافية. وهذه الآية «أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ» كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وآبن المبارك رحمهما الله

---

(١) الزيادة من تفسير الطبرى. (٢) فى بعض التفاسير مقاتل بن سليمان وهو المفسر.

تعالى . ذكر أبو المطرِّف عبد الرحمن بن مروان القَلَانسيّ قال : حدثنا أبو محمد الحسن بن رشيق، قال حدّثنا على بن يعقوب الزيات، قال حدثنا إبراهيم بن هشام، قال حدثنا زكريا آبن أبى أبان ؛ قال حدثنــا الليث بن الحرث قال حدّثنــا الحسن بن داهر ، قال سـئل عبد الله بن المبارك عن بدء زهده قال : كنت يوما مع إخوانى فى بستان لنــا ، وذلك حين حملت الثمار من ألوان الفواكه ، فأكلنا وشربنا حتى الليل فنمنا ، وكنت مولعا بضرب العود والطُّنبور ، فقمت فى بعض الليــل فضربت بصوت يقال له راشين السَّحَر (١) ، وأراد سنان يغنِّى ، وطائر يصيح فوق رأسى على شجرة ، والعود بيــدى لا يجيبنى إلى ما أريد ، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان — يعنى العود الذى بيده — ويقول : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَـعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » قلت : بلى والله ! وكسرت العود ، وصرفت من كان عندى ، فكان هذا أوّل زهدى وتشميرى . وبلغنا عن الشعر الذى أراد آبن المبارك أن يضرب به فى العود :

أَلَمْ يَــأْنِ لى منك أن تَرْحَمَا * وتَعْـصِ العَــواذِلَ واللُّوَّما
وتَرْثِى لصَبٍّ بكم مغرمٍ * أقام عــلى هجــرِكم مأتَمــا
يَبيتُ إذا جَنَّـــهُ لَيْــلُهُ * يُراعِى الكواكبَ والأنجُمَــا
وماذا على الظَّبيِ لَوْ أنّــهُ * أحَلَّ مِن الوَصْلِ ما حَرَّمَا

وأما الفضيل بن عياض فكان سبب توبته أنه عشق جارية فواعدته ليــلا ، فبينما هو يرتقى الجدران إليها إذ سمع قارئا يقرأ : « أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ » فرجع القهقرى وهو يقول : بلى والله قدآن ؛ فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة ، وبعضهم يقــول لبعض : إن فضيلا يقطع الطريق . فقال الفضيل : أوّاه ! أرانى بالليــل أســعى فى معاصى الله وقوم من المسلمين يخافــونى ! اللهم إنى قــد تبت إليك ، وجعلتُ توبتى إليك جوار بيتك الحرام .

---

(١) هكذا فى الأصول ولم نقف عليها بعد البحث .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أى « يُحْيِي الْأَرْضَ » الجدبة « بعـد موتها » بالمطر . وقال صالح المرى : المعنى يلين القلوب بعد قساوتها . وقال جعفر آبن محمد : يحييها بالعدل بعد الجور . وقيل : المعنى فكذلك يحيي الكافر بالهدى إلى الإيمان بعد موته بالكفر والضلالة . وقيل : كذلك يحيي الله الموتى من الأمم ، و يميز بين الخاشع قلبه و بين القاسى قلبه . ﴿ قَـدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى إحياء الله الأرض بعد موتها دليل على قدرة الله وأنه لمحيي الموتى .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ ﴾ قـرأ ابن كثير وأبو بـكر عن عاصم بتخفيف الصـاد فيهما من التصـديق ، أى المصدّقين بمـا أنزل الله تعـالى . الباقون بالتشـديد أى المتصـدقين والمتصدقات فأدغمت التـاء فى الصاد . وكذلك فى مصحف أبىّ وهو حثٌّ على الصدقات ، ولهذا قال : ﴿ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ بالصدقة والنفقة فى سـبيل الله . قال الحسن : كل ما فى القرآن من القرض الحسن فهو التطوع . وقيل : هو العمل الصالح من الصدقة وغيرها محتسبا صادقا . وإنمـا عطف بالفعل على الاسم ؛ لأن ذلك الاسم فى تقـدير الفعل ؛ أى إن الذين صدّقوا وأقرضوا ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أمثالها . وقراءة العامة بفتح العين على ما لم يسم فاعله . وقرأ الأعمش « يُضَاعِفُهُ » بكسر العين وزيادة هاء . وقرأ ابن كثير وآبن عامر و يعقـوب « يُضَعَّفُ » بفتح العين وتشـديدها . ﴿ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ يعنى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ آختلف في « الشُّهَدَاء » هل هو مقطوع مما قبل أو متصل به . فقال مجاهد وزيد آبن أسلم : إن الشهداء والصدّيقين هم المؤمنون وأنه متصل ؛ وروى معناه عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا يوقف على هذا على قوله « الصِّدِّيقُون » وهذا قول آبن مسعود في تأويل الآية . قال القشيري قال الله تعالى : « فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ » فالصدّيقون هم الذين يتلون الأنبياء ، والشهداء هم الذين يتلون الصدّيقين ، والصالحون يتلون الشهداء ، فيجوز أن تكون هذه الآية في جملة من صدّق بالرسل أعني « وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ » ويكون المعنى بالشهداء من شهد لله بالوحدانية ، فيكون صدّيق فوق صدّيق في الدرجات ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أهل الجنات العلا ليراهم من دونهم كما يرى أحدكم الكوكب الذي في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا[(١)] " وروى عن آبن عباس ومسروق أن الشهداء غير الصدّيقين . فالشهداء على هذا منفصل مما قبله والوقف على قوله : « الصدّيقون » حسن . والمعنى « وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ » أي لهم أجر أنفسهم ونور أنفسهم . وفيهم قولان : أحدهما — أنهم الرسل يشهدون على أممهم بالتصديق والتكذيب ؛ قاله الكلبي ؛ ودليله قوله تعالى : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » . الثاني — أنهم أمم الرسل يشهدون يوم القيامة ؛ وفيما يشهدون به قولان : أحدهما — أنهم يشهدون على أنفسهم بما عملوا من طاعة ومعصية . وهذا معنى قول مجاهد . الثاني — يشهدون لأنبيائهم بتبليغهم الرسالة إلى أممهم ؛ قاله الكلبي . وقال مقاتل قولا ثالثا : إنهم القتلى في سبيل الله تعالى . ونحوه عن آبن عباس أيضا قال : أراد شهداء المؤمنين . والواو واو الآبتداء . والصدّيقون على هذا القول مقطوع من الشهداء .

---

(١) " أنعما " أي زادا وفضلا . وقيل معناه صارا إلى النعيم ودخلا فيه .

وقد آختلف فى تعيينهم ؛ فقال الضحاك : هم ثمانية نفر؛ أبو بكر وعلى وزيد وعثمان وطلحة والزبير وسعد وحمزة . وتابعهم عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ؛ ألحقه الله بهم لما صدق نبيه صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل بن حيان : الصدّيقون هم الذين آمنوا بالرسل ولم يكذبوهم طرفة عين ، مثل مؤمن آل فرعون ، وصاحب آل ياسين ، وأبى بكر الصديق ، وأصحاب الأخدود .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى بالرسل والمعجزات ﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ فلا أجر لهم ولا نور .

قوله تعالى : ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ وجه الآتصال أن الإنسان قد يترك الجهاد خوفا على نفسه من القتل ، وخوفا من لزوم الموت فبين أن الحياة الدنيا منقضية فلا ينبغى أن يترك أمر الله محافظة على ما لا يبقى . و « ما » صلة تقديره : آعلموا أنّ الحياة الدنيا لعب باطل ولهو فرح ثم ينقضى . وقال قتادة : لعب ولهو أكل وشرب . وقيل : إنه على المعهود من آسمه ؛ قال مجاهد : كل لعب لهو . وقد مضى هذا المعنى

فى « الأنعام »[1] وقيل : اللعب ما رغّب فى الدنيا ، واللهو ما ألهى عن الآخرة ؛ أى شغل عنها . وقيل : اللعب الاقتناء واللهو النساء . ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ الزينة ما يتزين به ، فالكافر يتزين بالدنيا ولا يعمل للآخرة ، وكذلك من تزين فى غير طاعة الله . ﴿ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ أى يفخر بعضكم على بعض بها . وقيل : بالخلقة والقوة . وقيل : بالأنساب على عادة العرب فى المفاخرة بالآباء . وفى صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يبغى أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد" وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " أربع فى أمتى من أمر الجاهلية الفخر فى الأحساب " الحديث . وقد تقدم جميع هذا . ﴿ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ لأن عادة الجاهلية أن تتكاثر بالأبناء والأموال ، وتكاثر المؤمنين بالإيمان والطاعة . قال بعض المتأخرين : « لعب » كلعب الصبيان « ولهو » كلهو الفتيان « وزينة » كزينة النسوان « وتفاخر » كتفاخر الأقران « وتكاثر » كتكاثر الدهقان . وقيل : المعنى أن الدنيا كهذه الأشياء فى الزوال والفناء . وعن علىّ رضى الله عنه قال لعمّار : لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء ، مأكول ومشروب وملبوس ومشموم ومركوب ومنكوح ، فأحسن طعامها العسل وهو بزقة ذبابة ، وأكثر شرابها الماء ويستوى فيه جميع الحيوان ، وأفضل ملبوسها الديباج وهو نسج دودة ، وأفضل المشموم المسك وهو دم فأرة ، وأفضل المركوب الفرس وعليها يقتل الرجال ، وأما المنكوح فالنساء وهو مبال فى مبال ؛ والله إن المرأة لتزين أحسنها يراد به أقبحها . ثم ضرب الله تعالى لها مثلا بالزرع فى غيث فقال : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ ﴾ أى مطر ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ الكفّار هنا الزرّاع لأنهم يغطّون البذر . والمعنى أن الحياة الدنيا كالزرع يعجب الناظرين إليه لخضرته بكثرة الأمطار ، ثم لا يلبث أن يصير هشيما كأن لم يكن ، وإذا أعجب الزراع فهو غاية ما يستحسن . وقد مضى معنى هذا المثل فى « يونس »[2] و« الكهف »[3] . وقيل :

(١) راجع جـ ٦ ص ٤١٤ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٨ ص ٣٢٧ فما بعدها « « « .
(٣) راجع جـ ١٠ ص ٤١٢ فما بعدها « « « .

الكفّار هنا الكافرون بالله عز وجل؛ لأنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا من المؤمنين . وهـذا قول حسن؛ فإن أصل الإعجاب لهم وفيهم، ومنهم يظهر ذلك، وهو التعظيم للدنيا وما فيها . وفي الموحدين من ذلك فروع تحدث من شهواتهم، وتتقلل عندهم وتدق إذا ذكروا الآخرة . وموضع الكاف رفع على الصفة . ﴿ ثُمَّ يَهِيجُ ﴾ أي يجف بعد خضرته ﴿ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ أي متغيرا عما كان عليه من النضرة . ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ أي فتاتا وتبنا فيذهب بعد حسنه ، كذلك دنيا الكافر . ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أي للكافرين . والوقف عليه حسن ، ويبتدئ ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أي للمؤمنين . وقال الفراء : « وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ » تقديره إما عذاب شديد وإما مغفرة، فلا يوقف على «شديد» . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ هذا تأكيد ما سبق؛ أي تغر الكفار، فأما المؤمن فالدنيا له متاع بلاغ إلى الجنة . وقيل : العمل للحياة الدنيا متاع الغرور تزهيدا في العمل للدنيا ، وترغيبا في العمل للآخرة .

قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي سارعوا بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لكم من ربكم . وقيل: سارعوا بالتوبة؛ لأنها تؤدي إلى المغفرة؛ قاله الكلبي . وقيل: التكبيرة الأولى مع الإمام؛ قاله مكحول . وقيل : الصف الأول . ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ لو وصل بعضها ببعض . قال الحسن : يعني جميع السموات والأرضين مبسوطتان كل واحدة إلى صاحبتها . وقيل : يريد لرجل واحد أي لكل واحد جنة بهذه السعة . وقال ابن كيسان : عنى به جنة واحدة من الجنات . والعرض أقل من الطول؛ ومن عادة العرب أنها تعبر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله . قال :

كَأَنَّ بِلَادَ اللهِ وَهْيَ عَرِيضَةٌ ❊ على الخائف المطلوب كِفَّةُ حابِلِ

وقد مضى هذا كله في «آل عمران»[1] . وقال طارق بن شهاب : قال قوم من أهل الحيرة لعمر رضي الله عنه أرأيت قول الله عز وجل « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ »

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٠٤ فما بعدها .

فأين النار ؟ فقال لهم عمر : أرأيتم الليل إذا ولّى وجاء النهار أين يكون الليل ؟ فقالوا : لقد نزعت بما في التوراة مثله . ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ شرط الإيمان لا غير وفيه تقوية الرجاء . وقد قيل : شرط الإيمان هنا وزاد عليه في « آل عمران » فقال « أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » . ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي إن الجنة لا تنال ولا تدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله . وقد مضى هذا في « الأعراف »(١) وغيرها . ﴿ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال مقاتل : القحط وقلة النبات والثمار . وقيل : الجوائح في الزرع . ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ بالأوصاب والأسقام؛ قاله قتادة . وقيل : إقامة الحدود؛ قاله ابن حيان . وقيل : ضيق المعاش . وهذا معنى رواه ابن جريج ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ يعني في اللوح المحفوظ . ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ الضمير في « نبرأها » عائد على النفوس أو الأرض أو المصائب أو الجميع . وقال ابن عباس : من قبل أن يخلق المصيبة . وقال سعيد بن جبير : من قبل أن يخلق الأرض والنفس . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ أي خلق ذلك وحفظ جميعه « عَلَى اللهِ يَسِيرٌ » هين . قال الربيع بن صالح : لما أخذ سعيد بن جبير رضي الله عنه بكيت؛ فقال : ما يبكيك؟ قلت : أبكي لما أرى بك ولما تذهب إليه . قال :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٩ طبعة أولى أو ثانية .

فلا تبك فإنه كان فى علم الله أن يكون، ألم تسمع قوله تعالى: «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ» الآية . وقال ابن عباس : لما خلق الله القلم قال له اكتب، فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . وقد ترك لهذه الآية جماعة من الفضلاء الدواء فى أمراضهم فلم يستعملوه ثقة بربهم وتوكلا عليه، وقالوا قد علم الله أيام المرض وأيام الصحة، فلو حرص الخلق على تقليل ذلك أو زيادته ما قدروا؛ قال الله تعالى : «مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا» . وقد قيل : إن هذه الآية تتصل بما قبل، وهو أن الله سبحانه هون عليهم ما يصيبهم فى الجهاد من قتل وجرح، وبين أن ما يخلفهم عن الجهاد من المحافظة على الأموال وما يقع فيها من خسران، فالكل مكتوب مقدر لا مدفع له، وإنما على المرء امتثال الأمر، ثم أدبهم فقال هذا ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ أى حتى لا تحزنوا على ما فاتكم من الرزق؛ وذلك أنهم إذا علموا أن الرزق قد فُرِغ منه لم يأسوا على ما فاتهم منه . وعن ابن مسعود أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه " ثم قرأ « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ » أى كى لا تحزنوا على ما فاتكم من الدنيا فإنه لم يقدر لكم ولو قدر لكم لم يفتكم ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى من الدنيا؛ قاله ابن عباس . وقال سعيد بن جبير : من العافية والخصب . وروى عِكرمة عن ابن عباس : ليس من أحد إلا وهو يحزن و يفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبرا وغنيمته شكرا . والحزن والفرح المنهىّ عنهما هما اللذان يتعدّى فيهما إلى ما لا يجوز . قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى متكبر بما أوتى من الدنيا، فخور به على الناس . وقراءة العامة « آتاكم » بمد الألف أى أعطاكم من الدنيا . واختاره أبو حاتم . وقرأ أبو العالية ونصر بن عاصم وأبو عمرو « أَتَاكُمْ » بقصر الألف واختاره أبو عبيد . أى جاءكم، وهو معادل لـ«فاتكم» ولهذا لم يقل أفاتكم . قال جعفر بن محمد الصادق : يابن آدم مالك تأسى على مفقود لا يردّه عليك الفوت، أو تفرح بموجود لا يتركه فى يديك الموت . وقيل لبزرجمهر : أيها الحكيم ! مالك لا تحزن على ما فات، ولا تفرح بما هو آت ؟ قال : لأن الفائت لا يتلافى بالعَبْرة، والآتى لا يستدام بالحَبْرة .

وقال الفضيل بن عياض فى هذا المعنى : الدنيا مُبيد ومُفيد، فما أباد فلا رجعة له ، وما أفاد آذن بالرحيل . وقيل : المختال الذى ينظر إلى نفسه بعين الافتخار ، والفخور الذى ينظر إلى الناس بعين الاحتقار وكلاهما شرك خفىّ . والفخور بمنزلة المُصَرّاة تُشَدّ أخلافها ليجتمع فيها اللبن، فيتوهم المشترى أنّ ذلك معتاد وليس كذلك، فكذلك الذى يرى من نفسه حالا وزينة وهو مع ذلك مدّع فهو الفخور .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ أى لا يحب المختالين « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » فـ « الَّذِين » فى موضع خفض نعتا للمختال . وقيل : رفع بالابتداء أى الذين يبخلون فالله غنى عنهم . قيل : أراد رؤساء اليهود الذين يبخلون ببيان صفة محمد صلى الله عليه وسلم التى فى كتبهم ؛ لئلا يؤمن به الناس فتذهب مأ كلتهم (١) . قاله السدى والكلبى . وقال سعيد بن جبير : « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » يعنى بالعلم ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أى بألّا يعلموا الناس شيئا . زيد بن أسلم : إنه البخل بأداء حقّ الله عز وجل . وقيل : إنه البخل بالصدقة والحقوق ؛ قاله عامر بن عبد الله الأشعرىّ . وقال طاوس : إنه البخل بما فى يديه . وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى . وفرّق أصحاب الخواطر بين البخل والسخاء بفرقين : أحدهما أن البخيل الذى يلتذ بالإمساك . والسخىّ الذى يلتذ بالإعطاء . الثانى — إن البخيل الذى يعطى عند السؤال، والسخىّ الذى يعطى بغير سؤال . ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ ﴾ أى عن الإيمان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ ﴾ غنى عنه . ويجوز أن يكون لما حث على الصدقة أعلمهم أن الذين يبخلون بها ويأمرون الناس بالبخل بها فإن الله غنىّ عنهم . وقراءة العامة « بالبخل » بضم الباء وسكون الخاء . وقرأ أنس وعبيد بن عمير ويحيى ابن يعمر ومجاهد وحميد وابن محيصن وحمزة والكسائى « بِالْبَخَلِ » بفتحتين وهى لغة الأنصار . وقرأ أبو العالية وابن السَّمَيْقع « بِالْبَخْل » بفتح الباء وإسكان الخاء . وعن نصر بن عاصم « البُخُلِ » بضمتين وكلها لغات مشهورة . وقد تقدّم الفرق بين البخل والشح فى آخر « آل عمران » (٢) .

---

(١) يريد ما يأكلونه من الناس باسم الدين من الأموال .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

وقرأ نافع وابن عامر ﴿ فَإِنَّ اللهَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ بغير « هو » . والباقون « هُوَ الْغَنِيُّ » على أن يكون فصلا . ويجوز أن يكون مبتدأ و « الْغَنِيُّ » خبره والجملة خبر إن . ومن حذفها فالأحسن أن يكون فصلا؛ لأن حذف الفصل أسهل من حذف المبتدأ .

قوله تعالى : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالمعجزات البينة والشرائع الظاهرة . وقيل : الإخلاص لله تعالى فى العبادة ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة؛ بذلك دعت الرسل؛ نوح فمن دونه إلى محمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أى الكتب؛ أى أوحينا إليهم خبر ما كان قبلهم ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ قال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أى بالعدل فى معاملاتهم . وقوله : « بِالْقِسْطِ » يدل على أنه أراد الميزان المعروف . وقال قوم : أراد به العدل . قال القشيرى : وإذا حملناه على الميزان المعروف ، فالمعنى أنزلنا الكتاب ووضعنا الميزان فهو من باب :

* علفتها تبنا وماء باردا *

ويدل على هذا قوله تعالى : « وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ » ثم قال : « وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ » وقد مضى القول فيه[(١)] . ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ روى عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض الحديد

(١) راجع ص ١٥٤ من هذا الجزء .

والنار والماء والملح ". وروى عكرمة عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم عليه السلام، الحجر الأسود وكان أشد بياضا من الثلج وعصا موسى وكانت من آس الجنة، طولها عشرة أذرع مع طول موسى، والحديد أنزل معه ثلاثة أشياء السّندان والكَلْبتان والميقعة وهي المطرقة. ذكره الماوردي. وقال الثعلبي : قال ابن عباس نزل آدم من الجنة ومعه من الحديد خمسة أشياء من آلة الحدّادين: السّنْدان، والكَلْبَتان، والميقعة، والمِطْرقة، والإبرة. وحكاه القشيريّ قال : والمِيقعة ما يحدّد به؛ يقال وَقَعْتُ الحديدة أقعها أي أحددتها. وفي الصحاح: والمِيقَعة الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه، وخشبة القصّار التي يَدقّ عليها والمِطْرقة والمِسنّ الطويل. وروى أن الحديد أنزل في يوم الثلاثاء. « فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ » أي لإهراق الدماء. ولذلك نهى عن الفصد والحجامة في يوم الثلاثاء؛ لأنه يوم جرى فيه الدم. وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "في يوم الثلاثاء ساعة لا يرقأ فيها الدم". وقيل : «أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» أي أنشأناه وخلقناه؛ كقوله تعالى : «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ» وهذا قول الحسن. فيكون من الأرض غير منزل من السماء. وقال أهل المعاني : أي أخرج الحديد من المعادن وعلمهم صنعته بوحيه. «فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعني السلاح والكُرَاع والجُنّة. وقيل : أي فيه من خشية القتل خوف شديد. ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ قال مجاهد : يعني جُنّة. وقيل: يعني انتفاع الناس بالماعون من الحديد، مثل السكين والفأس والإبرة ونحوه. ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ أي أنزل الحديد ليعلم من ينصره. وقيل : هو عطف على قوله تعالى : « لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » أي أرسلنا رسلنا وأنزلنا معهم الكتاب، وهذه الأشياء؛ ليتعامل الناس بالحق، « وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وليرى الله من ينصر دينه ﴿ وَ ﴾ ينصر ﴿ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ قال ابن عباس : ينصرونهم لا يكذبونهم، ويؤمنون بهم « بِالْغَيْبِ » أي وهم لا يرونهم. ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ « قوىّ » في أخذه « عزيز » أي منيع غالب. وقد تقدّم. وقيل : « بالغيب » بالإخلاص.

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ فصل ما أجمل من إرسال الرّسل بالكتب ، وأخبر أنه أرسل نوحا و إبراهيم وجعل النبوّة فى نسلهما . ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أى جعلنا بعض ذريتهما الأنبياء ، و بعضهم أممـا يتلون الكتب المنزلة من السماء ؛ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . وقال آبن عباس : الكتاب الخط بالقلم ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أى من ٱئتم بإبراهيم ونوح ﴿ مُهْتَدٍ ﴾ . وقيل : « فمنهم مهتد » أى من ذريتهما مهتدون . ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ كافرون خارجون عن الطاعة .

قوله تعـالى : ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أى أتبعنا ﴿ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ أى على آثار الذرية . وقيـل : على آثار نوح و إبراهيم ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ موسى و إليـاس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهـة أمه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه . وتقدّم ٱشتقاقه فى أوّل سورة « آل عمران »(١) .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ على دينه يعنى الحواريين وأتباعهم ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَـةً ﴾ أى مودّة فكان يواد بعضهم بعضا . وقيل : هذا إشارة إلى أنهم أمروا فى الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهـم لذلك ، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضـعه . والرأفة اللين ، والرحمة الشفقة . وقيل : الرأفة

(١) راجع ج ٤ ص ٥ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

تخفيف الكَلّ والرحمة تحمل الثقل . وقيل : الرأفة أشد الرحمة . وتم الكلام . ثم قال : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أى من قبل أنفسهم . والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل ؛ قال أبو علي : وٱبتدعوها رهبانية ٱبتدعوها . وقال الزجاج : أى ٱبتدعوها رهبانية كما تقول رأيت زيدا وعمرا كلمت . وقيل : إنه معطوف على الرأفة والرحمة ؛ والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيروا وٱبتدعوا فيها . قال الماوردى : وفيها قراءتان؛ إحداهما بفتح الراء وهي الخوف من الرَّهب ، الثانية بضم الراء وهي منسوبة إلى الرُّهْبان كالرُّضْوانية من الرُّضْوان ؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الاْمتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع ؛ وذلك أن ملوكهم غيروا وبدّلوا وبقي نفر قليل فترهبوا وتبتلوا . قال الضحاك : إن ملوكا بعد عيسى عليه السلام ٱرتكبوا المحارم ثلثمائة سنة ، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم ، فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم ، فٱعتزلوا الناس وٱتخذوا الصوامع . وقال قتادة : الرهبانية التي ٱبتدعوها رفض النساء وٱتخاذ الصوامع . وفي خبر مرفوع : "هي لحوقهم بالبراري والجبال" . ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى ما فرضناها عليهم ولا أمرناهم بها؛ قاله ٱبن زيد . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللهِ ﴾ أى ما أمرناهم إلا بما يرضي الله؛ قاله ٱبن مسلم . وقال الزجاج : « مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ » معناه لم نكتب عليهم شيئا البتة . ويكون « ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللهِ » بدلا من الهاء والألف في « كَتَبْنَاهَا » والمعنى: ما كتبنا عليهم إلا ٱبتغاء رضوان الله . وقيل : « إِلَّا ٱبْتِغَاءَ » الاستثناء منقطع ، والتقدير ما كتبناها عليهم لكن ٱبتدعوها ٱبتغاء رضوان الله . ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ أى فما قاموا بها حق القيام . وهذا خصوص؛ لأن الذين لم يرعوها بعض القوم ، وإنما تسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة على الناس وأكل أموالهم؛ كما قال تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ » وهذا في قوم أداهم الترهب إلى طلب الرياسة في آخر الأمر . وروى سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس في قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا » قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل

وكان فيهم مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل ويدعون إلى دين الله تعالى ، فقال أناس لملكهم لو قتلت هـذه الطائفة . فقال المؤمنون : نحن نكفيكم أنفسنا . فطائفة قالت : ٱبنوا لنا أسطوانة ٱرفعونا فيها ، وأعطونا شيئا نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم . وقالت طائفة : دعونا نهيم في الأرض ونسيح ، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرية ، فإذا قدرتم علينا فٱقتلونا ، وطائفة قالت : ٱبنوا لنا دُورا في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا ترونا . وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا ، فمضى أولئك على منهاج عيسى ، وخلف قوم من بعدهم ممن قـد غير الكتاب فقالوا : نسـيح ونتعبد كما تعبد أولئـك ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان من تقدم من الذين ٱقتدوا بهم . فذلك قوله تعالى : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِـمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ » الآية . يقول : ٱبتـدعها هؤلاء الصالحون « فَمَا رَعَوْهَا » المتأخرون « حق رِعايتها » ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعني الذين ٱبتدعوها أولا ورعوها ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ يعني المتأخرين ، فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ولم يبق منهم إلا قليـل جاءوا ، من الكهوف والصَّوامع والغيران فآمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

الثالثـــة — وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة ، فينبغي لمن ٱبتدع خيرا أن يدوم عليه ، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآية . وعن أبي أمامة الباهلي — وٱسمه صُدَيّ بن عجلان — قال : أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم ، إنمـا كتب عليكم الصيام ، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه ، فإن ناسا من بني إسرائيل ٱبتدعوا بدعا لم يكتبها الله عليهم ٱبتغوا بها رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ، فعابهم الله بتركها فقال : « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَـا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » .

الرابعـــة — وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت ، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغير الأصدقاء والإخوان . وقد مضى بيان هذا في سورة «الكهف»(١) مستوفى والحمد لله . وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال :

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سرية من سراياه فقال : مَرَّ رجلٌ بغار فيه شيء من ماء، فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار، فيقوته ماكان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل ويتخلّى عن الدنيا . قال : لو أنى أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لى فعلت وإلا لم أفعل، فأتاه فقال : يا نبي الله ! إنى مررت بغار فيـه ما يقوتنى من المـاء والبقل، فحدثتنى نفسى بأن أقيم فيـه وأتخلى من الدنيا . قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنى لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة والذى نفس محمد بيده لغَدْوة أو رَوْحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم فى الصفّ الأوّل خير من صلاته ستين سنة" . وروى الكوفيون عن آبن مسعود، قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل تدرى أىّ النـاس أعلم " قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : " أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا آختلف الناس فيه وإن كان مقصرا فى العمل وإن كان يزحف على آسته هل تدرى من أين آتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصى الله فغضب أهل الإيمـان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمـان ثلاث مرات فلم يبق منهـم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبـق للدين أحد يدعوا إليه فتعالوا نفترق فى الأرض إلى أن يبعث الله النبي الأمى الذى وعدنا عيسى — يعنون محمـدا صلى الله عليه وسـلم — فتفرقوا فى غيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر — وتلا « وَرَهْبَانِيَّةً » الآية — أتدرى ما رهبانيـة أمتى الهجرة والجهاد والصوم والصـلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع يآبن مسعود آختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة فنجا منهم فرقة وهلك سائرها وآختلف من كان من قبلكم من النصارى على آثنين وسبعين فرقة فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى — عليـه السلام — حتى قتـلوا وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهرانى قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرانى قومهم فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى آبن مريم فساحوا فى الجبال وترهبوا فيها وهى التى قال الله تعالى فيهم « وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا » — الآية — فمن

آمن بى وآتبعنى وصدّقنى فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بى فأولئك هم الفاسـقون " يعنى الذين تهوّدوا وتنصروا . وقيل : هؤلاء الذين أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون . وفى الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى إن الأولين أصروا على الكفر أيضا فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر . والله أعلم .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى آمنوا بموسى وعيسى ﴿ اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى مثلين من الأجر على إيمانكم بعيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ؛ وهذا مثل قوله تعالى : « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » (١) وقـد تقدم القـول فيه (٢) . والكفل الحظ والنصيب وقد مضى فى « النساء » وهو فى الأصل كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط ؛ قاله آبن جريج . ونحوه قال الأزهرى ؛ قال : آشتقاقه من الكساء الذى يحويه راكب البعير على سنامه إذا آرتدفه لئلا يسقط ؛ فتأويله يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى كما يحفظ الكفل الراكب . وقال أبو موسى الأشعرى : « كِفْلَيْنِ » ضعفين بلسان الحبشة . وعن آبن زيد : « كِفْلَيْنِ » أجر الدنيا والآخرة . وقيل : لمـا نزلت « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا » آفتخر مؤمنو أهل

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٥ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الكتاب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هــذه الآية. وقــد آستدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الحســنة إنما لها من الأجر مِثْل واحد؛ فقال: الحســنة آسم عام ينطلق على كل نوع من الإيمان، وينطلق على عمومه، فإذا آنطلقت الحسنة على نوع واحد فليس له عليهــا من الثواب إلا مِثْل واحد. وإن آنطلقت على حســنة تشتمل على نوعين كان الثواب عليها مِثْلين؛ بدليل هــذه الآية فإنه قال: «كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ» والكِفل النصيب كالمِثــل، فجعــل لمن آتقى الله وآمن برســوله نصيبين؛ نصيبا لتقوى الله ونصيبا لإيمــانه برسوله. فدل على أن الحسنة التي جعل لها عشر هي التي جمعت عشرة أنواع من الحسنات، وهو الإيمان الذي جمع الله تعــالى في صــفته عشرة أنواع؛ لقوله تعــالى: «إِنَّ الْمُسْــلِمِينَ وَالْمُسْــلِمَاتِ» الآية بكمالها. فكانت هــذه الأنواع العشرة التي هي ثوابها أمثالها فيكون لكل نوع منها مِثْل. وهــذا تأويل فاســد؛ لخروجه عن عموم الظاهر؛ في قوله تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا» بمــا لا يحتمله تخصيص العموم؛ لأن ما جمــع عشر حسنات فليس يُجزَى عن كل حسنة إلا بمثلها. وبطل أن يكون جزاء الحسنة عشر أمثالهــا والأخبار دالة عليه. وقد تقدم ذكرها(١). ولو كان كما ذكر لمــا كان بين الحسنة والسيئة فرق.

﴿ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً ﴾ أي بيانا وهــدى؛ عن مجاهــد. وقال آبن عباس: هو القــرآن. وقيل: ضيــاء ﴿ تَمْشُونَ بِهِ ﴾ في الآخرة على الصراط، وفي القيامة إلى الجنة. وقيل تمشون به في الناس تدعونهم إلى الإســلام فتكونون رؤساء في دين الإسلام لا تزول عنكم رياســة كنتم فيها. وذلك أنهم خافوا أن تزول رياستهم لو آمنوا بمحمد عليه الســلام. وإنما كان يفوتهم أخذ رشوة يسيرة من الضعفة بتحريف أحكام الله، لا الرياسة الحقيقية في الدين.

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ ذنوبكم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْــلُ الْكِتَابِ ﴾ أي ليعلم و «أن لا» صــلة زائدة مؤكدة؛ قاله الأخفش. وقال الفراء: معناه لأن يعلم و «لا» صــلة زائدة في كل كلام دخل عليه

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٠ وجـ ١٣ ص ٢٤٤.

مجد . قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » أى لأن يعلم أهـل الكتاب أنهم ﴿ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ ﴾ . وقال مجاهد : قالت اليهود يوشك أن يخرج منا نبى يقطع الأيدى والأرجل ، فلما خرج من العرب كفروا فنزلت « لِئَلَّا يَعْلَمَ » أى ليعلم أهل الكتاب « أَنْ لَا يَقْدِرُونَ » أى أنهم لا يقدرون ؛ كقوله تعالى : « أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا » . وعن الحسن : « لَيْلَا(١) يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ » وروى ذلك عن آبن مجاهد . وروى قطرب بكسر اللام و إسكان(٢) الياء . وفتح لام الجرلغة معروفة . ووجه إسـكان الياء أنّ همـزة « أَنْ » حذفت فصـارت « لَنْ » فأدغمت النون فى اللام فصار « لِلَّا » فلما آجتمعت اللامات أبدلت الوسطى منها ياء؛ كما قالوا : فى أَمّا أَيْمَا . وكذلك القول فى قـراءة من قرأ « لِيْلَا » بكسر اللام إلا أنه أبق اللام على اللغـة المشهورة فيها فهو أقوى من هذه الجهة . وعن آبن مسعود «لِكَيْلَا يَعْلَمَ» وعن حطّان بن عبد الله «لِأَنْ يَعْلَمَ» وعن عِكرمة « لِيَعْلَمَ» وهو خلاف المرسوم . « مِنْ فَضْلِ اللهِ » قيل : الإسلام . وقيل : الثواب . وقال الكلبى : من رزق الله . وقيل : نعـم الله التى لا تحصى . « وَأَنَّ الْفَضْـلَ بِيَدِ اللهِ » ليس بأيديهم فيصرفون النبوّة عن محمد صلى الله عليه وسلم إلى من يحبون . وقيل : « وَأَنَّ الْفَضْـلَ بِيَدِ اللهِ » أى هو له ﴿ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ . وفى البخارى : حدثنا الحكم بن نافع ، قال حدثنا شعيب عن الزهرى ، قال أخبرنى سالم بن عبد الله ، أن عبد الله بن عمـر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر : "إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى آنتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا به حتى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطا قيراطا ثم أعطيتم القـرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين قال أهل التوراة ربنا هؤلاء أقل عملا وأكثر أجرا قال هل

(١) مثل ليلى آسم المرأة ورفع الفعل بعدها .

(٢) روى قطرب عن الحسن أيضا كما فى السمين وغيره ، فتكون للحسن قراءتان فتح اللام وكسرها مع إسـكان الياء فيهما .

ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا لا فقال فذلك فضلي أوتيه من أشاء" في رواية : "فغضبت اليهود والنصارى وقالوا ربنـا " الحديث . ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ . تم تفسير سورة « الحديد » والحمد لله .

تفســير ســورة المجـادلة

وهى آثنتان وعشرون آية

مدنية في قول الجميع . إلا رواية عن عطاء : أن العشر الأول منها مدنيّ وباقيها مكيّ . وقال الكلبي : نزل جميعها بالمدينة غير قوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ » نزلت بمكة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ (١)

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ التي آشتكت إلى الله هي خَوْلة بنت ثعلبة . وقيل بنت حكيم . وقيل آسمها جميلة . وخَوْلة أصح ؛ وزوجها أَوْس بن الصّامت أخو عُبادة بن الصّامت ، وقد مرّ بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافتـه والناس معه على حمار فآستوقفته طويلا ووعظته وقالت : يا عمر قد كنت تدعى عُميرا ، ثم قيل لك عمر ، ثم قيل لك أمير المؤمنين ؛ فآتق الله يا عمر ؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العـذاب . وهو واقف يسمع كلامها ؛ فقيل له : يا أمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستني من أوّل النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هي خَوْلة

بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع ربّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟
وقالت عائشة رضى الله عنها : تبارك الذى وسع سمعه كل شىء إنى لأسمع كلام خَوْلة بنت ثعلبة ويخفى علىّ بعضه، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهى تقول : يا رسول الله ! أكل شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وآنقطع ولدى ظاهر منى ؛ اللهم إنى أشكو إليك ! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ » خرجه آبن ماجه فى السنن . والذى فى البخارى من هذا عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا » . وقال الماوردى : هى خَوْلة بنت ثعلبة . وقيل : بنت خويلد . وليس هذا بمختلف ؛ لأن أحدهما أبوها والآخر جدها فنسبت إلى كل واحد منهما . وزوجها أَوْس بن الصّامت أخو عُبَادة بن الصّامت . وقال الثعلبى قال آبن عباس : هى خولة بنت خويلد الخزرجية ، كانت تحت أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت ، وكانت حسنة الجسم ؛ فرآها زوجها ساجدة فنظر عجيزتها فأعجبه أمرها ، فلما آنصرفت أرادها فأبت فغضب عليها — قال عُرْوة[1] : وكان آمرءا به لَمَم[2] فأصابه بعض لَمَمِه فقال لها : أنت علىّ كظهر أمى . وكان الإيلاء والظهار من الطلاق فى الجاهلية ، فسألت النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : " حرمت عليه " فقالت : والله ما ذكر طلاقا ؛ ثم قالت : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ووحشتى وفراق زوجى وآبن عمى وقد نفضت له بطنى ؛ فقال : " حرمت عليه " فما زالت تراجعه ويراجعها حتى نزلت عليه الآية . وروى الحسن : أنها قالت : يا رسول الله ! قد نسخ الله سنن الجاهلية وإن زوجى ظاهر منى ؛ فقال رسول الله عليه وسلم : " ما أوحى إلىّ فى هذا شىء " فقالت يا رسول الله : أوحى إليك فى كل شىء وطُوِى عنك هذا ؟ ! فقال : " هو ما قلت لك " فقالت : إلى الله أشكو لا إلى رسوله .

(١) عروة هو راوى حديث عائشة المتقدم .

(٢) اللمم طرف من الجنون يلم بالإنسان أى يعتريه .

فأنزل الله : « قَـدْ سَمِـعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ » الآية . وروى الدارقطنيّ من حديث قتـادة أن أنس بن مالك حدثه قال : إن أوس بن الصامت ظاهر من امرأته خُوَيْلة بنت ثعلبة فشكت ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : ظاهر حين كبِرت سنّي ورقّ عظمي . فأنزل الله تعالى آية الظهار ؛ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم لأوس : "أعتق رقبـة" قال : مالي بذلك يدان . قال : "فصم شهرين متتابعين" قال : أما إني إذا أخطأني أن آكل في يوم ثلاث مرات يكِلّ بصري . قـال : "فأطعم ستين مسكينا" قال : ما أجد إلا أن تعينني منك بعون وصـلة . قال : فأعانه رسـول الله صلى الله عليه وسلم بخمسة عشر صاعا حتى جمع الله له . ﴿ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ قال : فكانوا يرون أن عنـده مثلها وذلك لستين مسكينا . وفي الترمذيّ وسنن ابن ماجه : أن سلمة ابن صخر البياضيّ ظاهر من امرأته ، وأن النبي صلى الله عليه وسـلم قال له : "أعتق رقبـة" قال : فضربت صفحة عنق بيدي . فقلت : لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها . قال : "فصم شهرين" فقلت : يا رسول الله ! وهـل أصابني ما أصابني إلا في الصيام . قال : "فأطعم ستين مسكينا" الحـديث . وذكر ابن العربي في أحكامه : روي أن خولة بنت دليج ظاهر منها زوجها ، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك ، فقال النبي صـلى الله عليه وسلم : "قـد حرمت عليه" فقالت : أشكو إلى الله حاجتي . [ثم عادت فقال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : "حرمت عليه" فقالت : إلى الله أشكو حاجتي إليه][(1)] وعائشة تغسل شق رأسه الأيمن ، ثم تحولت إلى الشق الآخر وقد نزل عليه الوحي ، فذهبت أن تعيد ، فقالت عائشة : اسكتي فإنه قد نزل الوحي . فلما نزل القرآن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزوجها : "أعتق رقبـة" قال : لا أجد . قال : "صم شهرين متتابعين" قال : إن لم آكل في اليـوم ثلاث مرات خفت أن يعشو بصري . قال : "فأطعم سـتين مسكينا" . قال : فأعني . فأعانه بشيء . قال أبو جعفر النحاس : أهل التفسير على أنها خَوْلة

(١) الزيادة من الأحكام لابن العربي .

وزوجها أَوْس بن الصامت ، وآختلفوا في نسبها ، قال بعضهم : هي أنصارية وهي بنت ثعلبة ، وقال بعضهم : هي بنت دليج ، وقيل : هي بنت خُوَيلد ، وقال بعضهم : هي بنت الصامت ، وقال بعضهم : هي أمة كانت لعبد الله بن أبيّ ، وهي التي أنزل الله فيها «وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا» لأنه كان يكرهها على الزنى . وقيل : هي بنت حكيم . قال النحاس : وهذا ليس بمتناقض يجوز أن تنسب مرة إلى أبيها ، ومرة إلى أمها ، ومرة إلى جدّها ، ويجوز أن تكون أمة كانت لعبد الله بن أبيّ فقيل لها أنصارية بالولاء ؛ لأنه كان في عداد الأنصار وإن كان من المنافقين .

الثانيـة — قرئ «قَد سَّمِعَ اللهُ» بالإدغام و «قَدْ سَمِعَ اللهُ» بالإظهار . والأصل في السماع إدراك المسموعات ، وهو آختيار الشيخ أبي الحسن . وقال آبن فورك : الصحيح أنه إدراك المسموع . وقال الحاكم أبو عبد الله في معنى السميع : إنه المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أذن ، وذلك راجع إلى أن الأصوات لا تخفى عليه ، وإن كان غير موصوف بالحسّ المركّب في الأذن ؛ كالأصم من الناس لما لم تكن له هذه الحاسة لم يكن أهلا لإدراك الصوت . والسمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفا بهما . وشكى وآشتكى بمعنى واحد . وقرئ «تُحَاوِرُكَ» أي تراجعك الكلام و «تُجَادِلُكَ» أي تسائلك .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ (٢)

فيه ثلاث وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ ﴾ (١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف « يَظَّاهَرُونَ » بفتح اليـاء وتشديد الظاء وألف . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب « يَظَّهَّرونَ » بحذف الألف وتشديد الهاء والظاء وفتح اليـاء . وقرأ أبو العالية وعاصم وزِرّ ابن حُبَيش « يُظَاهِرُونَ » بضم اليـاء وتخفيف الظاء وألف وكسر الهاء . وقـد تقدّم هذا في « الأحزاب » (٢) . وفي قراءة أُبَيّ « يَتَظَاهَرُونَ » وهي معنى قراءة ابن عامر وحمزة . وذِكر الظهر كناية عن معنى الركوب ، والآدمية إنمـا يركب بطنها ولكن كُني عنه بالظهر ؛ لأن ما يركب من غير الآدميات فإنمـا يركب ظهره ، فكُني بالظهـر عن الركوب . ويقال : نزل عن امرأته أي طلقها كأنه نزل عن مركوب . ومعنى أنت عليّ كظهر أمي أي أنت عليّ محرّمة لا يحل لي ركوبك .

الثانيــة — حقيقة الظهار تشبيه ظهر بظهر ، والموجب للحكم منـه تشبيه ظهرٍ محلَّل بظهرٍ محرَّم ؛ ولهذا أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته : أنت عليّ كظهر أمي أنه مظاهر . وأكثرهم على أنه إن قال لها : أنت عليّ كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم أنه مظاهر . وهو مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما . واختلف فيه عن الشافعي رضي الله عنه ؛ فروى عنه نحو قول مالك ؛ لأنه شبه امرأته بظهر محرّم عليه مؤبد كالأم . وروى عنه أبو ثور : أن الظهار لا يكون إلا بالأم وحدها . وهو مذهب قتادة والشعبي . والأوّل قول الحسن والنخعيّ والزهريّ والأوزاعيّ والثوريّ .

الثـالثــة — أصل الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت عليّ كظهر أمي . وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وستـرا . فإن قال : أنت عليّ كأمي ولم يذكر الظهر ، أو قال : أنت عليّ مثل أمي ؛ فإن أراد الظهار فله نيته ، وإن أراد الطلاق كان مطلقا البتة عند مالك ،

---

(١) نسخ الأصل على « يظاهرون » وهي قراءة نافع التي سيذكرها المؤلف .

(٢) آية الظهار في جـ ١٤ ص ١١٨ ولم يذكر هناك شيئا بل أحال الكلام على هذه السورة .

وإن لم تكن له نيـة فى طلاق ولا ظهار كان مظاهرا . ولا ينصرف صريح الظهار بالنية إلى الطلاق ؛ كما لا ينصرف صريح الطلاق وكنايته المعروفة له إلى الظهار ، وكناية الظهار خاصة تنصرف بالنية إلى الطلاق البتّ .

الرابعـة — ألفاظ الظهار ضربان : صريح وكناية ؛ فالصريح أنت على كظهر أمى ، وأنتِ عنـدى وأنتِ منى وأنتِ معى كظهر أمى . وكذلك أنت على كبطن أمى أو كرأسها أو فرجها أو نحـوه ، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك على كظهر أمى فهو مظاهر ؛ مثل قـوله : يدك أو رجلك أو رأسك أو فرجك طالق تطلق عليـه . وقال الشافعى فى أحد قوليه : لا يكون ظهارا . وهذا ضعيف منه ؛ لأنه قد وافقنا على أنه يصح إضافة الطلاق إليه خاصـة حقيقة خلافا لأبى حنيفة فصح إضافة الظهار إليه . ومتى شبهها بأمه أو بإحدى جدّاته من قبل أبيه أو أمه فهو ظهار بلا خلاف . وإن شبهها بغيرهن من ذوات المحارم التى لا تحل له بحال كالبنت والأخت والعمة والخالة كان مظاهرا عند أكثر الفقهاء ، وعنـد الإمام الشافعى رضى الله عنه على الصحيح من المذهب على ما ذكرنا . والكناية أن يقول : أنت على كأمى أو مثل أمى فإنه يعتبر فيه النية . فإن أراد الظهار كان ظهارا ، وإن لم يرد الظهار لم يكن مظاهرا عند الشافعى وأبى حنيفة . وقد تقـدّم مذهب مالك رضى الله عنه فى ذلك ؛ والدليـل عليه أنه أطلق تشبيه آمرأته بأمّـه فكان ظهارا . أصله إذا ذكر الظهر وهـذا قوىّ فإن معنى اللفظ فيه موجود — واللفظ بمعناه — ولم يُلْزَم حكم الظهر للفظه وإنما أُلْزِمَه بمعناه وهو التحريم ؛ قاله آبن العربى .

الخـامسـة — إذا شبه جملة أهله بعضو من أعضـاء أمّه كان مظاهرا ؛ خلافا لأبى حنيفة فى قوله : إنه إن شبهها بعضو يحل له النظر إليه لم يكن مظاهرا . وهذا لا يصح ؛ لأن النظر إليه على طريق الآستمتاع لا يحـل له ، وفيه وقع التشبيه وإياه قصد المظاهر ؛ وقـد قال الإمام الشافعى فى قول : إنه لا يكون ظهارا إلا فى الظهر وحده . وهذا فاسد ؛ لأن كل عضو منها محـرّم ، فكان التشبيه به ظهارا كالظهر ؛ ولأن المظاهر إنما يقصد تشبيه المحلل بالمحرّم فلزم على المعنى .

السادسة — إن شبه آمرأته بأجنبية فإن ذكر الظهر كان ظهارا حملا على الأول ، وإن لم يذكر الظهر فآختلف فيه علماؤنا ؛ فمنهم من قال : يكون ظهارا . ومنهم من قال : يكون طلاقا . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يكون شيئا . قال آبن العربي : وهذا فاسد؛ لأنه شبه محللا من المرأة بمحرم فكان مقيدا بحكمه كالظهر ، والأسماء بمعانيها عندنا ، وعندهم بألفاظها وهذا نقض للأصل منهم .

قلت : الخلاف في الظهار بالأجنبية قوى عند مالك . وأصحابه منهم من لا يرى الظهار إلا بذوات المحارم خاصة ولا يرى الظهار بغيرهن . ومنهم من لا يجعله شيئا . ومنهم من يجعله في الأجنبية طلاقا . وهو عند مالك إذا قال : كظهر آبني أو غلامي أو كظهر زيد أو كظهر أجنبية ظهار لا يحل له وطؤها في حين يمينه . وقد روى عنه أيضا : أن الظهار بغير ذوات المحارم ليس بشيء ؛ كما قال الكوفي والشافعي . وقال الأوزاعي : لو قال لها أنت علي كظهر فلان رجل فهو يمين يكفرها . والله أعلم .

السابعة — إذا قال : أنت علي حرام كظهر أمي كان ظهارا ولم يكن طلاقا ؛ لأن قوله : أنت حرام علي يحتمل التحريم بالطلاق فهي مطلقة : ويحتمل التحريم بالظهار فلما صرح به كان تفسيرا لأحد الاحتمالين يقضي به فيه .

الثامنة — الظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها على أي الأحوال كانت من كل زوج يجوز طلاقه . وكذلك عند مالك من يجوز له وطؤها من إمائه ، إذا ظاهر منهن لزمه الظهار فيهن . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يلزم . قال القاضي أبو بكر آبن العربي : وهي مسئلة عسيرة جدا علينا ؛ لأن مالكا يقول : إذا قال لأمته أنت علي حرام لا يلزم . فكيف يبطل فيها صريح التحريم وتصح كنايته . ولكن تدخل الأمة في عموم قوله : «مِنْ نِسَائِهِمْ» لأنه أراد من محللاتهم . والمعنى فيه أنه لفظ يتعلق بالبضع دون رفع العقد فصح في الأمة ؛ أصله الحلف بالله تعالى .

التاسعة — ويلزم الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها عند مالك . ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ نِسَائِهِمْ » وهذه ليست من نسائه . وقد مضى أصل هذه المسئلة في سورة «براءة» عند قوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ »(١) الآية.

العاشرة — الذمي لا يلزم ظهاره . وبه قال أبو حنيفة . وقال الشافعي : يصح ظهار الذمي ؛ ودليلنا قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يعني من المسلمين . وهذا يقتضي خروج الذميّ من الخطاب . فإن قيل : هذا آستدلال بدليل الخطاب . قلنا : هو آستدلال بالاشتقاق والمعنى ؛ فإن أنكحة الكفار فاسدة مستحقة الفسخ ، فلا يتعلق بها حكم طلاق ولا ظهار ؛ وذلك كقوله تعالى : « وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ » وإذا خلت الأنكحة عن شروط الصحة فهي فاسدة ولا ظهار في النكاح الفاسد بحال .

الحادية عشرة — قوله تعالى : « مِنْكُمْ » يقتضي صحة ظهار العبد خلافا لمن منعه . وحكاه الثعلبي عن مالك ؛ لأنه من جملة المسلمين وأحكام النكاح في حقه ثابتة وإن تعذر عليه العتق والإطعام فإنه قادر على الصيام .

الثانية عشرة — وقال مالك رضي الله عنه : ليس على النساء تظاهر ، وإنما قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ » ولم يقل اللائي يظهرن منكن من أزواجهن ، إنما الظهار على الرجال . قال آبن العربي : هكذا روي عن آبن القاسم وسالم ويحيى بن سعيد وربيعة وأبي الزناد . وهو صحيح معنى ؛ لأن الحل والعقد [والتحليل والتحريم](٢) في النكاح بيد الرجال ليس بيد المرأة منه شيء وهذا إجماع . قال أبو عمر : ليس على النساء ظهار في قول جمهور العلماء . وقال الحسن بن زياد : هي مظاهرة . وقال الثوري وأبو حنيفة ومحمد : ليس ظهار المرأة من الرجل بشيء قبل النكاح كان أو بعده . وقال الشافعي : لا ظهار للمرأة من الرجل . وقال الأوزاعي : إذا قالت المرأة لزوجها ؛ أنت علي كظهر أمي

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الزيادة من آبن العربي .

فلانة فهي يمين تكفرها . وكذلك قال إسحق ؛ قال : لا تكون آمرأة متظاهرة من رجل ولكن عليها يمين تكفرها . وقال الزهري : أرى أن تكفّر كفّارة الظهار ولا يحول قولها هذا بينها و بين زوجها أن يصيبها . رواه عنه معمر. وابن جريج عن عطاء قال : حرمت ما أحل الله ، عليها كفارة يمين . وهو قول أبي يوسف . وقال محمد بن الحسن : لا شيء عليها .

الثالثة عشرة — من به لَمَمٌ وآنتظمت له في بعض الأوقات الكلم إذا ظاهر لزم ظهاره ؛ لما روى في الحديث : أن خَوْلة بنت ثعلبة وكان زوجها أَوْس بن الصّامت وكان به لَمَم فأصابه بعض لَمَمِه فظاهر من آمرأته .

الرابعة عشرة — من غضب وظاهر من آمرأته أو طلق لم يسقط عنه غضبه حكمه . وفي بعض طرق هذا الحديث ، قال يوسف بن عبد الله بن سلام : حدّثتني خَوْلة آمرأة أوس بن الصامت ، قالت : كان بيني و بينه شيء ، فقال : أنت علي كظهر أمي ثم خرج إلى نادي قومه . فقولها : كان بيني و بينه شيء . دليل على منازعة أحرجته فظاهر منها . والغضب لغو لا يرفع حكما ولا يغير شرعا وكذلك السكران . وهي :

الخامسة عشرة — يلزمه حكم الظهار والطلاق في حال سكره إذا عقل قوله ونظم كلامه ؛ لقوله تعالى : « حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ » على ما تقدم في « النساء »(1) بيانه . والله أعلم .

السادسة عشرة — ولا يقرب المظاهر آمرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ منها بشيء حتى يكفر خلافا للشافعي في أحد قوليه ؛ لأن قوله : أنت علي كظهر أمي يقتضي تحريم كل آستمتاع بلفظه ومعناه ، فإن وطئها قبل أن يكفر ، وهي :

السابعة عشرة — آستغفر الله تعالى وأمسك عنها حتى يكفر كفارة واحدة . وقال مجاهد وغيره : عليه كفارتان . روى سعيد عن قتادة ، ومطرف عن رجاء بن حيوة عن قبيصة آبن ذؤيب عن عمرو بن العاص في المظاهر : إذا وطئ قبل أن يكفر عليه كفارتان . ومعمر عن قتادة قال قال قبيصة بن ذؤيب : عليه كفارتان . وروى جماعة من الأئمة منهم آبن ماجه

(1) راجع جـ ٥ ص ٢٠٣ طبعة أولى أو ثانية .

والنسائي عن ابن عباس : أن رجلا ظاهر من امرأته فغشيها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال : "ما حملك على ذلك" فقال : يارسول الله ! رأيت بياض خلخالها في ضوء القمر فلم أملك نفسي أن وقعت عليها . فضحك النبي صلى الله عليه وسلم وأمره ألا يقربها حتى يكفر . وروى ابن ماجه والدار قطني عن سليمان بن يسار عن سلمة ابن صخر أنه ظاهر في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، ثم وقع بامرأته قبل أن يكفر، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فأمره أن يكفر تكفيرا واحدا .

الثامنة عشرة — إذا ظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة، كقوله : أنتن على كظهر أمي كان مظاهرا من كل واحدة منهن، ولم يجز له وطء إحداهن وأجزأته كفارة واحدة . وقال الشافعي : تلزمه أربع كفارات . وليس في الآية دليل على شيء من ذلك ؛ لأن لفظ الجمع إنما وقع في عامة المؤمنين والمعول على المعنى . وقد روى الدار قطني عن ابن عباس قال كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : إذا كان تحت الرجل أربع نسوة فظاهر منهن يجزيه كفارة واحدة، فإن ظاهر من واحدة بعد أخرى لزمه في كل واحدة منهن كفارة . وهذا إجماع .

التاسعة عشرة — فإن قال لأربع نسوة إن تزوجتكن فأنتن على كظهر أمي فتزوج إحداهن لم يقربها حتى يكفر، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهن . وقد قيل : لا يطأ البواقي منهن حتى يكفر . والأول هو المذهب .

الموفية عشرين — وإن قال لامرأته : أنت على كظهر أمي وأنت طالق البتة[1]، لزمه الطلاق والظهار معا، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفر، فإن قال لها : أنت طالق البتة وأنت على كظهر أمي لزمه الطلاق ولم يلزمه الظهار ؛ لأن المبتوتة لا يلحقها طلاق .

---

(١) يريد بالبتة هنا الطلاق الثلاث كما يفهم من العبارة بعد وكما في ابن العربي حيث قال : إذا طلقها ثلاثا بعد الظهار ثم عادت إليه بنكاح جديد لم يطأ حتى يكفر .

الحادية والعشرون — قال بعض العلماء : لايصح ظهار غير المدخول بها . وقال المزنى : لا يصح الظهار من المطلقة الرجعية وهذا ليس بشيء؛ لأن أحكام الزوجية فى الموضعين ثابتة وكما يلحقها الطلاق كذلك يلحقها الظهار قياسا ونظرا . والله أعلم .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ﴾ أى ما نساؤهم بأمهاتهم . وقراءة العامة « أُمَّهَاتِهِمْ » بخفض التاء على لغة أهل الحجاز ؛ كقوله تعالى : « مَا هَذَا بَشَرًا » . وقرأ أبو معمر والسلمى وغيرهما « أُمَّهَاتُهُمْ » بالرفع على لغة تميم . قال الفراء : أهل نجد وبنو تميم يقولون « مَا هَـذَا بَشَرٌ » ، و « مَاهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ » بالرفع . ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدْنَهُمْ ﴾ أى ما أمهاتهم إلا الوالدات . وفى المثل : ولدك مَنْ دَمَّى عَقِبَيْك . وقد تقدم القول فى اللائى فى « الأحزاب » (١) .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ﴾ أى فظيعا من القول لا يعرف فى الشرع . والزور الكذب ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إذ جعل الكفارة عليهم مخلصة لهم من هذا القول المنكر .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

(١) ليس فى الأحزاب كلام على اللائى و يبدو أن سقطا وقع فى نسخ الأصل التى بأيدينا .

فيه آثنتا عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ هذا آبتداء والخبر «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وحذف عليهم لدلالة الكلام عليه؛ أى فعليهم تحرير رقبة . وقيل : أى فكفارتهم عتق رقبة والمجمع عليه عند العلماء فى الظهار قول الرجل لأمرأته : أنت على كظهر أمى . وهو قول المنكر والزور الذى عنى الله بقوله : « وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا » فمن قال هذا القول حرم عليه وطء آمرأته . فمن عاد لما قال لزمته كفارة الظهار؛ لقوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » وهذا يدل على أن كفارة الظهار لا تلزم بالقول خاصة حتى ينضم إليها العود، وهذا حرف مشكل آختلف الناس فيه على أقوال سبعة :

الأول — إنه العزم على الوطء وهو مشهور قول العراقيين أبى حنيفة وأصحابه . وروى عن مالك : فإن عزم على وطئها كان عودا ، وإن لم يعزم لم يكن عودا . الثانى — العزم على الإمساك بعد التظاهر منها؛ قاله مالك . الثالث — العزم عليهما . وهو قول مالك فى موطئه؛ قال مالك فى قوله الله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » قال سمعت أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من آمرأته ثم يجمع على إصابتها وإمساكها . فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها وإصابتها فلا كفارة عليه . قال مالك : وإن تزوجها بعد ذلك لم يمسها حتى يكفر كفارة التظاهر . القول الرابع — إنه الوطء نفسه فإن لم يطأ لم يكن عودا . قاله الحسن ومالك أيضا . الخامس — وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : هو أن يمسكها زوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق؛ لأنه لما ظاهر قصد التحريم فإن وصل به الطلاق فقد جرى على خلاف ما آبتدأه من إيقاع التحريم ولا كفارة عليه . وإن أمسك عن الطلاق فقد عاد إلى ما كان عليه فتجب عليه الكفارة . السادس — إن الظهار يوجب تحريما لا يرفعه إلا الكفارة ومعنى العود عند القائلين بهذا أنه لا يستبيح وطأها إلا بكفارة يقدمها، قاله أبو حنيفة وأصحابه والليث بن سعد . السابع — هو تكرير الظهار بلفظه . وهذا قول أهل الظاهر النافين للقياس، قالوا : إذا كرر اللفظ بالظهار فهو العود ، وإن لم يكرر فليس بعود . يسند ذلك إلى بكير بن

الأشج وأبي العالية وأبي حنيفة أيضا وهو قول الفراء . وقال أبو العالية : وظاهر الآية يشهد له ؛ لأنه قال : « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » أي إلى قول ما قالوا . وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله عز وجل : « وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا » هو أن يقول لها أنت علي كظهر أمي . فإذا قال لها ذلك فليست تحل له حتى يكفر كفارة الظهار . قال ابن العربي : فأما القول بأنه العود إلى لفظ الظهار فهو باطل قطعا لا يصح عن بكير، وإنما يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه . وقد رويت قصص المتظاهرين وليس في ذكر الكفارة عليهم ذكر لعود القول منهم وأيضا فإن المعنى ينقضه ؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه منكر من القول وزور، فكيف يقال له إذا أعدت القول المحرم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة، وهذا لا يعقل ؛ ألا ترى أن كل سبب يوجب الكفار لا تشترط فيه الإعادة من قتل ووطء في صوم أو غيره .

قلت : قوله يشبه أن يكون من جهالة داود وأشياعه حمل منه عليه، وقد قال بقول داود من ذكرناه عنهم ، وأما قول الشافعي : بأنه ترك الطلاق مع القدرة عليه فينقضه ثلاثة أمور أمهات، الأول — أنه قال : « ثُمَّ » وهذا بظاهره يقتضي التراخي . الثاني — أن قوله تعالى : « ثُمَّ يَعُودُونَ » يقتضي وجود فعل من جهته ومرور الزمان ليس بفعل منه . الثالث — أن الطلاق الرجعي لا ينافي البقاء على الملك فلم يسقط حكم الظهار كالإيلاء . فإن قيل : فإذا رآها كالأم لم يمسكها إذ لا يصح إمساك الأم بالنكاح . وهذه عمدة أهل ما وراء النهر . قلنا : إذا عزم على خلاف ما قال ورآها خلاف الأم كفّر وعاد إلى أهله . وتحقيق هذا القول أن العزم قولٌ نفسيٌّ، وهذا رجل قال قولا اقتضى التحليل وهو النكاح ، وقال قولا اقتضى التحريم وهو الظهار، ثم عاد لما قال وهو التحليل ، ولا يصح أن يكون منه ابتداء عقد، لأن العقد باق فلم يبق إلا أنه قول عزم يخالف ما اعتقده وقاله في نفسه من الظهار الذي أخبر عنه بقوله أنت علي كظهر أمي ، وإذا كان ذلك كفر وعاد إلى أهله لقوله « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » . وهذا تفسير بالغ [في فنه](1) .

(١) الزيادة من أحكام القرآن لابن العربي .

الثانيـة — قال بعض أهل التأويل: الآية فيها تقديم وتأخير والمعنى «وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ» إلى ما كانوا عليه من الجماع «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» لما قالوا؛ أي فعليهم تحرير رقبة من أجل ما قالوا؛ فالجار في قوله «لِمَا قَالُوا» متعلق بالمحذوف الذي هو خبر الابتداء وهو عليهم. قاله الأخفش. وقال الزجاج: المعنى ثم يعودون إلى إرادة الجماع من أجل ما قالوا. وقيل: المعنى الذين كانوا يظّهرون من نسائهم في الجاهلية، ثم يعودون لما كانوا قالوه في الجاهلية في الإسلام فكفارة من عاد أن يحرر رقبة. الفراء: اللام بمعنى عن والمعنى ثم يرجعون عن ما قالوا ويريدون الوطء. وقال الأخفش: لما قالوا وإلى ما قالوا واحد، واللام وإلى يتعاقبان؛ قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا» وقال: «فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ» وقال: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» وقال: «وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ».

الثالثـة — قوله تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعليه إعتاق رقبة؛ يقال: حررته أي جعلته حرا. ثم هذه الرقبة يجب أن تكون كاملة سليمة من كل عيب؛ ومن كمالها إسلامها عند مالك والشافعي؛ كالرقبة في كفارة القتل. وعند أبي حنيفة وأصحابه تجزى الكافرة ومن فيها شائبة رِقّ(١) كالمكاتبة وغيرها.

الرابعـة — فإن أعتق نصفي عبدين فلا يجزيه عندنا ولا عند أبي حنيفة. وقال الشافعي: يجزئ؛ لأن نصف العبدين في معنى العبد الواحد؛ ولأن الكفارة بالعتق طريقها المال فجاز أن يدخلها التبعيض والتجزى كالإطعام؛ ودليلنا قوله تعالى: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» وهذا الاسم عبارة عن شخص واحد، وبعض الرقبة ليس برقبة، وليس ذلك مما يدخله التلفيق؛ لأن العبادة المتعلقة بالرقبة لا يقوم النصف من رقبتين مقامها؛ أصله إذا اشترك رجلان في أضحيتين؛ ولأنه لو أمر رجلين أن يحجا عنه حجة لم يجز أن يحج عنه واحد منهما نصفها كذلك هذا؛ ولأنه لو أوصى بأن تشترى رقبة فتعتق عنه لم يجز أن يعتق عنه نصف عبدين، كذلك في مسئلتنا وبهذا يبطل دليلهم. والإطعام وغيره لا يتجزّى في الكفارة عندنا.

(١) في بعض الأصول: شعبة رق؛ والمعنى واحد.

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ﴾ أى يجامعها فلا يجـوز للظاهر الوطء قبـل التكفير ، فإن جامعها قبـل التكفير أثم وعصى ولا يسـقط عنه التكفير . وحكى عن مجاهد : أنه إذا وطئ قبل أن يشرع فى التكفير لزمته كفارة أخرى . وعن غيره : أن الكفارة الواجبة بالظهار تسقط عنه ولا يلزمه شيء أصلا ؛ لأن الله تعالى أوجب الكفارة وأمر بها قبل المسيس، فإذا أخرها حتى مس فقد فات وقتها . والصحيح ثبوت الكفارة؛ لأنه بوطئه آرتكب إثما فلم يكن ذلك مسقطا للكفارة ، ويأتى بها قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها . وفى حديث أوس بن الصامت لما أخبر النبي صلى الله عليه وسـلم بأنه وطئ آمرأته أمره بالكفارة[1] . وهـذا نص وسواء كانت كفارة بالعتق أو الصوم أو الإطعام . وقال أبو حنيفة : إن كانت كفارته بالإطعام جاز أن يطأ ثم يطعم فأما غير الوطء من القبلة والمباشرة والتلذذ فلا يحرم فى قول أكثر العلماء . وقاله الحسن وسفيان وهو الصحيح من مذهب الشافعي . وقيل : وكل ذلك محرم وكل معانى المسيس . وهو قول مالك وأحد قولى الشافعي . وقد تقدم .

السادســة — قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ﴾ أى تؤمرون به ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ من التكفير وغيره .

السابعــة — من لم يجد الرقبة ولا ثمنها ، أو كان مالكا لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته ، أو كان مالكا لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته ، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئا سواه ، فله أن يصوم عند الشافعي . وقال أبو حنيفة : لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجا إلى ذلك . وقال مالك : إذا كان له دار وخادم لزمه العتق فإن عجز عن الرقبة ، وهى :

الثامنــة — فعليه صوم شهرين متتابعين . فإن أفطر فى أثنائهما بغير عذر آستأنفهما ، وإن أفطر لعذر من سفر أو مرض ، فقيل : يبنى ؛ قاله آبن المسيّب والحسن وعطاء بن أبى رَبَاح وعمرو بن دينار والشعبي . وهو أحد قولى الشافعي وهو الصحيح من مذهبه . وقال مالك :

(١) لم يتقدم العود فى حديث أوس ، وإنما هو فى مظاهر آخر وهو القائل : رأيت خلخالها فى ضوء القمر .

إنه إذا مرض فى صيام كفارة الظهار بنى إذا صح . ومذهب أبى حنيفة رضى الله عنه أنه يبتدئ . وهو أحد قولى الشافعى .

التاسعة — إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة أتم الصيام وأجزأه عند مالك والشافعى ؛ لأنه بذلك أمر حين دخل فيه . ويهدم الصوم ويعتق عند أبى حنيفة وأصحابه ؛ قياسا على الصغيرة المعتدة بالشهور ترى الدم قبل انقضائها ، فإنها تستأنف الحيض إجماعا من العلماء . وإذا ابتدأ سفرا فى صيامه فأفطر ، ابتدأ الصيام عند مالك والشافعى وأبى حنيفة ؛ لقوله : « مُتَتَابِعَيْنِ » . ويبنى فى قول الحسن البصرى ؛ لأنه عُذر وقياسا على رمضان ، فإن تخللها زمان لا يحل صومه فى الكفارة كالعيدين وشهر رمضان انقطع .

العاشرة — إذا وطئ المتظاهر فى خلال الشهرين نهارا ، بطل التتابع فى قول الشافعى ، وليلا فلا يبطل ؛ لأنه ليس محلا للصوم . وقال مالك وأبو حنيفة : يبطل بكل حال ووجب عليه ابتداء الكفارة ؛ لقوله تعالى : « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا » وهذا الشرط عائد إلى جملة الشهرين ، وإلى أبعاضهما ، فإذا وطئ قبل انقضائهما فليس هو الصيام المأمور به . فلزمه استئنافه ؛ كما لو قال : صلّ قبل أن تكلم زيدا . فكلم زيدا فى الصلاة ، أو قال : صلّ قبل أن تبصر زيدا فأبصره فى الصلاة لزمه استئنافها ؛ لأن هذه الصلاة ليست هى الصلاة المأمور بها كذلك هذا ؛ والله أعلم .

الحادية عشرة — ومن تطاول مرضه طولا لا يرجى برؤه كان بمنزلة العاجز من كبر ، وجاز له العدول عن الصيام إلى الإطعام . ولو كان مرضه مما يرجى برؤه واشتدت حاجته إلى وطء امرأته كان الاختيار له أن ينتظر البرء حتى يقدر على الصيام . ولو كفر بالإطعام ولم ينتظر القدرة على الصيام أجزأه .

الثانية عشرة — ومن تظاهر وهو معسر ثم أيسر لم يجزه الصوم . ومن تظاهر وهو موسر ثم أعسر قبل أن يكفر صام . وإنما يُنظَر إلى حاله يوم يكفّر . ولو جامعها فى عدمه

وعسره ولم يصم حتى أيسر لزمه العتق . ولو ابتدأ بالصوم ثم أيسر فإن كان مضى من صومه صدر صالح نحو الجمعة وشبهها تمادى . وإن كان اليوم واليومين ونحوهما ترك الصوم وعاد إلى العتق وليس ذلك بواجب عليه . ألا ترى أنه غير واجب على من طرأ الماء عليه وهو قد دخل بالتيمم فى الصلاة أن يقطع ويبتدئ الطهارة عند مالك .

الثالثة عشرة — ولو أعتق رقبتين عن كفارتى ظهار أو قتل أو فطر فى رمضان وأشرك بينهما فى كل واحدة منهما لم يجزه . وهو بمنزلة من أعتق رقبة واحدة عن كفارتين . وكذلك لو صام عنهما أربعة أشهر حتى يصوم عن كل واحدة منهما شهرين . وقد قيل : إن ذلك يجزيه . ولو ظاهر من آمرأتين له فأعتق رقبة عن إحداهما بغير عينها لم يجز له وطء واحدةٍ منهما حتّى يكفر كفارة أخرى . ولو عيّن الكفارة عن إحداهما جاز له أن يطأها قبل أن يكفر الكفارة عن الأخرى . ولو ظاهر من أربع نسوة فأعتق عنهنّ ثلاث رقاب ، وصام شهرين ، لم يجزه العتق ولا الصيام ؛ لأنه إنما صام عن كل واحدة خمسة عشر يوما . فإن كفر عنهنّ بالإطعام جاز أن يطعم عنهنّ مائتى مسكين ، وإن لم يقدر فرّق بخلاف العتق والصيام ؛ لأن صيام الشهرين لا يفرق والإطعام يفرق .

فصل وفيه ست مسائل :

الأولى — ذكر الله عز وجل الكفارة هنا مرتبة ؛ فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة ، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام ، فمن لم يطق الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكينا لكل مسكين مُدّان بمُد النبي صلى الله عليه وسلم . وإن أطعم مدّا بمد هشام ، وهو مدّان إلا ثلثا ، أو أطعم مدّا ونصفا بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم أجزأه . قال أبو عمر بن عبد البر : وأفضل ذلك مدّان بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله عز وجل لم يقل فى كفارة الظهار «مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ» فواجب قصد الشبع . قال آبن العربي : وقال مالك فى رواية آبن القاسم وآبن عبد الحكم مدّ بمدّ هشام وهو الشبع هاهنا ؛ لأن الله تعالى أطلق الطعام ولم يذكر الوسط . وقال فى رواية أشهب : مدّان بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم أحب إلى . وكذلك قال عنه آبن القاسم أيضا .

قلت : وهى رواية آبن وهب ومطرّف عن مالك : أنه يعطى مدّين لكل مسكين بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم . وهو مذهب أبى حنيفة وأصحابه . ومذهب الشافعى وغيره مدّ واحد لكل مسكين لا يلزمه أكثر من ذلك ؛ لأنه يكفّر بالإطعام ولم يلزمه صرف زيادة على المد ؛ أصله كفارة الإفطار واليمين . ودليلنا قوله تعالى : « فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً » وإطلاق الإطعام يتناول الشبع ، وذلك لا يحصل بالعادة بمدّ واحد إلا بزيادة عليه . وكذلك قال أشهب : قلت لمالك أيختلف الشّبع عندنا وعندكم ؟ قال نعم ! الشبع عندنا مدّ بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم والشّبع عندكم أكثر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة دونكم ، فأنتم تأكلون أكثر مما نأكل نحن . وقال أبو الحسن القابسى إنما أخذ أهل المدينة بمدّ هشام فى كفّارة الظهار تغليظا على المتظاهرين الذين شهد الله عليهم أنهم يقولون منكرا من القول وزورا . قال آبن العربى : وقع الكلام ها هنا فى مدّ هشام كما ترون ، ووددت أن يهشم الزمان ذكره ، ويمحو من الكتب رسمه ؛ فإن المدينة التى نزل الوحى بها وآستقرّ الرسول بها ووقع عندهم الظهار ، وقيل لهم فيه « فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا » فهموه وعرفوا المراد به وأنه الشّبع ، وقدره معروف عندهم متقرر لديهم ، وقد ورد ذلك الشّبع فى الأخبار كثيرا ، وآستمرّت الحال على ذلك أيام الخلفاء الراشدين المهديين حتى نفخ الشيطان فى أذن هشام ، فرأى أن مدّ النبي صلى الله عليه وسلم لا يشبعه ، ولا مثله من حواشيه ونظرائه فسوّل له أن يتخذ مدّا يكون فيه شبعه ، فجعله رطلين وحمل الناس عليه ، فإذا آبتلّ عاد نحو الثلاثة الأرطال ؛ فغيّر السنة وأذهب محل البركة . قال النبي صلى الله عليه وسلم حين دعا ربه لأهل المدينة بأن تبقى لهم البركة فى مدهم وصاعهم ، مثل ما بارك لإبراهيم بمكة ، فكانت البركة تجرى بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم فى مدّه ، فسعى الشيطان فى تغيير هذه السنة وإذهاب هذه البركة ، فلم يستجب له فى ذلك إلا هشام ، فكان من حق العلماء أن يلغوا ذكره ويمحوا رسمه إذا لم يغيروا أمره ، وأما أن يحيلوا على ذكره فى الأحكام ، ويجعلوه تفسيرا لما ذكر الله ورسوله بعد أن كان مفسرا عند الصحابة الذين نزل عليهم فخطب جسيم ؛ ولذلك كانت رواية أشهب فى ذكر مدّين بمد النبي صلى الله عليه وسلم فى كفارة الظهار أحبّ إلينا من

الرواية بأنها بمدّ هشام ، ألا ترى كيف نبه مالك على هذا العلم بقوله لأشهب : الشبع عندنا بمدّ النبي صلى الله عليه وسلم ، والشبع عندكم أكثر لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لنا بالبركة . وبهذا أقول فإن العبادة إذا أُديت بالسنة ، فإن كانت بالبدن كانت أسرع إلى القبول ، وإن كانت بالمـال كان قليلها أثقل في الميزان ، وأبرك في يد الآخذ ، وأطيب في شـدقه ، وأقل آفة في بطنه ، وأكثر إقامة لصلبه . والله أعلم .

الثانيـــة — ولا يجزئ عنـد مالك والشـافعي أن يطعم أقل من سـتين مسكينا . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إن أطعم مسكينا واحدا كل يوم نصف صاع حتى يكمل العـدد أجزأه .

الثالثـــة — قال أبو بكر بن العربي : من غريب الأمر أن أبا حنيفة قال إن الحجر على الحر باطل . واحتج بقوله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ » ولم يفرق بين الرشـيد والسفيه ؛ وهذا فقـه ضعيف لا يناسب قدره ، فإن هذه الآية عامّة ، وقـد كان القضاء بالحجر في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشيا والنظر يقتضيه ، ومن كان عليه حجر لصغر أو لولاية وبلغ سفيها قد نهى عن دفع المـال إليه ، فكيف ينفذ فعله فيه والخاص يقضي على العام .

الرابعـــة — وحكم الظهار عند بعض العلماء ناسخ لمـا كانوا عليه من كون الظهار طلاقا ؛ وقد روى معنى ذلك عن ابن عباس وأبي قلابة وغيرهما .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي ذلك الذي وصفنا من التغليظ في الكفارة « لِتُؤْمِنُوا » أي لتصـدّقوا أن الله أمر به . وقد استـدل بعض العلماء على أن هذه الكفارة إيمان بالله سبحانه وتعالى ؛ لمـا ذكرها وأوجبها قال : « ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ » أي ذلك لتكونوا مطيعين لله تعالى واقفين عنـد حدوده لا تتعدّوها ، فسمى التكفير لأنه طاعة ومراعاة للحد إيمانا ، فثبت أن كل ما أشبهه فهو إيمان . فإن قيل : معنى قوله : « ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ » أي لئلا تعودوا للظهار الذي هو منكر من القول وزور .

قيل له : قد يجوز أن يكون هذا مقصودا والأول مقصودا ؛ فيكون المعنى ذلك لئلا تعودوا للقول المنكر والزور ، بل تدعونهما طاعة لله سبحانه وتعالى إذ كان قد حرمهما ، ولتجتنبوا المظاهر منها إلى أن تكفّروا . إذ كان الله منع من مسيسها ، وتكفّروا إذ كان الله تعالى أمر بالكفّارة وألزم إخراجها منكم ؛ فتكونوا بهذا كله مؤمنين بالله ورسوله ؛ لأنها حدود تحفظونها ، وطاعات تؤدّونها والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم إيمان . وبالله التوفيق .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ ﴾ أي بين معصيته وطاعته ؛ فمعصيته الظهار ، وطاعته الكفارة . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي لمن لم يصدّق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ لما ذكر المؤمنين الواقفين عند حدوده ، ذكر المحادين المخالفين لها . والمحادّة المعاداة والمخالفة في الحدود ؛ وهو مثل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُشَاقُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ » . وقيل : « يُحَادُّونَ اللهَ » أي أولياء الله كما في الخبر : "من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة" . وقال الزجاج : المحادّة أن تكون في حدّ يخالف حدّ صاحبك . وأصلها الممانعة ومنه الحديد ومنه الحدّاد للبوّاب . ﴿ كُبِتُوا ﴾ قال أبو عبيدة والأخفش : أهلكوا . وقال قتادة : أخزوا كما أخزى الذين من قبلهم . وقال ابن زيد : عذبوا . وقال السدي : لعنوا . وقال الفراء : غيظوا يوم الخندق . وقيل : يوم بدر . والمراد المشركون . وقيل : المنافقون . ﴿ كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وقيل : « كُبِتُوا »

أى سيكبتون وهو بشارة من الله تعالى للؤمنين بالنصر، وأخرج الكلام بلفظ الماضى تقريبا للخبر عنه . وقيل: هى بلغة مذحج . ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ فيمن حاد الله ورسوله من الذين من قبلهم فيما فعلنا بهم . ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ ﴾ نصب بـ « عَذَابٌ مُهِينٌ » أو بفعل مضمر تقديره واذكر تعظيما لليوم . ﴿ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ أى الرجال والنساء يبعثهم من قبورهم فى حالة واحدة ﴿ فَيُنَبِّئُهُمْ ﴾ أى يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ فى الدنيا ﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ ﴾ عليهم فى صحائف أعمالهم ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ هم حتى ذكرهم به فى صحائفهم ليكون أبلغ فى الحجة عليهم . ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطلع وناظر لا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧)

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلا يخفى عليه سر ولا علانية . ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ﴾ قراءة العامة بالياء ؛ لأجل الحائل بينهما . وقرأ أبو جعفر بن القعقاع والأعرج وأبو حيوة وعيسى « مَا تَكُونُ » بالتاء لتأنيث الفعل . والنجوى السِّرار . وهو مصدر والمصدر قد يوصف به . يقال : قوم نجوى أى ذوو نجوى ؛ ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ هُمْ نَجْوَى » . وقوله تعالى : ﴿ ثَلَاثَةٍ ﴾ خفض بإضافة « نَجْوَى » إليها . قال الفراء : « ثَلَاثَةٍ » نعت للنجوى فانخفضت وإن شئت أضفت « نَجْوَى » إليها . ولو نصبت على إضمار فعل جاز ، وهى قراءة ابن أبى عبلة « ثَلَاثَةً » و « خَمْسَةً » بالنصب على الحال بإضمار يتناجون ؛ لأن نجوى يدل عليه ؛ قاله الزمخشرى . ويجوز رفع « ثلاثة » على البدل من موضع « نجوى » . ثم قيل : كل سرار نجوى . وقيل : النجوى ما يكون من

خلوة ثلاثة يسرون شيئا ويتناجون به ، والسِّرار ما كان بين ٱثنين . ﴿ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ يعلم ويسمع نجواهم ؛ يدل عليه ٱفتتاح الآية بالعلم ثم ختمها بالعلم . وقيل : النجوى من النجوة وهى ما ٱرتفع من الأرض ؛ فالمتناجيان يتناجيان ويخلوان بسرهما تخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به ؛ والمعنى أن سمع الله محيط بكل كلام ، وقد سمع الله مجادلة المرأة التى ظاهر منها زوجها . ﴿ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ ﴾ قرأ سلّام ويعقوب وأبو العالية ونصر وعيسى بالرفع على موضع « مِنْ نَجْوَى » قبل دخول « مِن » لأن تقديره ما يكون نجوى ، و « ثلاثةٌ » يجوز أن يكون مرفوعا على محل « لا » مع « أدنى » كقولك : لا حولَ ولا قوةٌ إلا بالله بفتح الحول ورفع القوة . ويجوز أن يكونا مرفوعين على الابتداء كقولك لا حولٌ ولا قوةٌ إلا بالله . وقد مضى فى « البقرة »(١) بيان هذا مستوفى . وقرأ الزهرى وعكرمة « أكبر » بالباء . والعامة بالثاء وفتح الراء على اللفظ وموضعها جر . وقال الفرّاء فى قوله « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ » قال : المعنى غير مصمود والعدد غير مقصود ؛ لأنه تعالى إنما قصد وهو أعلم أنه مع كل عدد قل أو كثر ، يعلم ما يقولون سرا وجهرا ولا تخفى عليه خافية ؛ فمن أجل ذلك ٱكتفى بذكر بعض العدد دون بعض . وقيل : معنى ذلك أن الله معهم بعلمه حيث كانوا من غير زوال ولا ٱنتقال . ونزل ذلك فى قوم من المنافقين كانوا فعلوا شيئا سرا فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك ؛ قاله ٱبن عباس . وقال قتادة ومجاهد : نزلت فى اليهود . ﴿ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم ﴾ يخبرهم ﴿ بِمَا عَمِلُوا ﴾ من حسن وسيء ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾

(١) راجع ج ٣ ص ٢٦٦ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴾ قيل : إن هذا في اليهود والمنافقين حسب ما قدمناه . وقيل : في المسلمين . قال ابن عباس : نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوءهم ذلك فكثرت شكواهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهاهم عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت . وقال مقاتل : كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادعة ، فإذا مر بهم رجل من المؤمنين تناجوا بينهم حتى يظن المؤمن شرا ، فيعرج عن طريقه ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينتهوا فنزلت . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيسأله الحاجة ويناجيه والأرض يومئذ حرب ، فيتوهمون أنه يناجيه في حرب أو بلية أو أمر مهم فيفزعون لذلك فنزلت .

الثانيـــة — روى أبو سعيد الخدري قال : كنا ذات ليلة نتحدث إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى" فقلنا : تبنا إلى الله يا رسول الله ؛ إنا كنا في ذكر المسيح — يعني الدجال — فرقا منه . فقال : "ألا أخبركم بما هو أخوف عندي منه" قلنا : بلى يا رسول الله ؛ قال : "الشرك الخفي أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل" ذكره الماوردي . وقرأ حمزة وخلف ورويس عن يعقوب «وَيَنْتَجُونَ» في وزن يفتعلون وهي قراءة عبد الله وأصحابه . وقرأ الباقون «وَيَتَنَاجَوْنَ» في وزن يتفاعلون ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . لقوله تعالى : «إِذَا تَنَاجَيْتُمْ» و «تَنَاجَوْا» . النحاس : وحكى سيبويه أن تفاعلوا وافتعلوا يأتيان بمعنى واحد ، نحو تخاصموا واختصموا ، وتقاتلوا واقتتلوا فعلى هذا «يَتَنَاجَوْنَ» و «يَنْتَجُونَ» واحد . ومعنى ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ أي الكذب والظلم . ﴿ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴾ أي مخالفته . وقرأ الضحاك ومجاهد وحميد «وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ» بالجمع .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ لا خلاف بين النقلة أن المراد بها اليهود ؛ كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون : السام عليك . يريدون بذلك السلام ظاهرا وهم يعنون الموت باطنا ، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم : "عليكم" في رواية وفي رواية أخرى "وعليكم" . قال ابن العربي : وهي مشكلة . وكانوا يقولون : لو كان محمد نبيا لما أمهلنا الله بسبه والاستخفاف به ، وجهلوا أن البارى تعالى حليم لا يعاجل من سبّه ، فكيف من سبّ نبيه . وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا أحد أصبر على الأذى من الله يدعون له الصاحبة والولد وهو يعافيهم و يرزقهم" فأنزل الله تعالى هذا كشفا لسرائرهم ، وفضحا لبواطنهم ، ومعزة لرسوله صلى الله عليه وسلم . وقد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهوديا أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه فقال : السام عليكم . فرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : "أتدرون ما قال هذا" قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : "قال كذا ردوه عليّ" فردوه ؛ قال : "قلت السام عليكم" قال : نعم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك : "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا عليك ما قلت" فأنزل الله تعالى : «وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ» .

قلت : خرجه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح . وثبت عن عائشة أنها قالت : جاء أناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم . فقلت : السام عليكم وفعل الله بكم وفعل . فقال عليه السلام : "مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفحش ولا التفحش" فقلت : يارسول الله ألست ترى مايقولون ؟! فقال : "ألست ترين أرد عليهم مايقولون أقول وعليكم" فنزلت هذه الآية « بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » أى إن الله سلم عليك وهم يقولون السام عليك ، والسام الموت . خرجه البخاري ومسلم بمعناه . وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم" كذا الرواية "وعليكم" بالواو وتكلم عليها العلماء ؛ لأن الواو العاطفة تقتضي التشريك فيلزم منه أن يدخل معهم فيما دعوا به علينا من الموت ، أو من

سآمة ديننا وهو الملال . يقال : سئم يسام سآمة وسآما . فقال بعضهم : الواو زائدة كما زيدت في قول الشاعر :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحَةَ الحَيِّ وٱنْتَحَى *

أي لما أجزنا ٱنتحى فزاد الواو . وقال بعضهم : هي للاستئناف ، كأنه قال : والسام عليكم . وقال بعضهم : هي على بابها من العطف ولا يضرنا ذلك ؛ لأنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا ؛ كما قال النبي صلى الله عليه وسلم . روى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : سلم ناس من يهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ؛ فقال : " وعليكم " فقالت عائشة وغضبت : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : " بلى قد سمعت فرددت عليهم و إنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا " خرجه مسلم . ورواية الواو أحسن معنى ، و إثباتها أصح رواية وأشهر .

وقد ٱختلف في رد السلام على أهل الذمة هل هو واجب كالرد على المسلمين ، و إليه ذهب ٱبن عباس والشعبي وقتادة ؛ للأمر بذلك . وذهب مالك فيما روى عنه أشهب وٱبن وهب إلى أن ذلك ليس بواجب فإن رددت فقل عليك . وقد ٱختار ٱبن طاوس أن يقول في الرد عليهم : علاك السلام أي ٱرتفع عنك . وٱختار بعض أصحابنا : السِّلام بكسر السين يعني الحجارة . وما قاله مالك أولى ٱتباعا للسنة ؛ والله أعلم . وروى مسروق عن عائشة قالت : أتى النبي صلى الله عليه وسلم ناسٌ من اليهود، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ؛ قال : " وعليكم " قالت عائشة : قلت بل عليكم السَّامُ والذَّامُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا عائشة لا تكوني فاحشة " فقالت : ما سمعت ما قالوا ! فقال : " أو ليس قد رددتُ عليهم الذي قالوا قلتُ وعليكم " . في رواية قال : ففطنت بهم عائشة فسبتهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَهْ يا عائشة فإن الله لا يحبّ الفحش والتفحش " وزاد فأنزل الله تبارك وتعالى : « و إِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ » إلى آخر الآية . الذام بتخفيف الميم هو العيب ؛ وفي المثل (لا تَعْدَم الحسناءُ ذامًا) أي عيبا ، ويهمز ولا يهمز ؛

يقال : ذَأَمَهَ يَذْأَمُه ، مثل ذأب يذأب ، والمفعول مذءوم مهموزا ، ومنه « مَذْءُومًا مَدْحُورًا »
ويقال : ذامَه يَذُومُه مخففا كرامه يرومه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ قالوا : لو كان محمد نبيا لعذّبنا الله بما نقول فهلا يعذبنا الله . وقيل : قالوا إنه يرد علينا ويقول وعليكم السام والسام الموت ، فلو كان نبيا لاستجيب له فينا ومتنا . وهذا موضع تعجب منهم ؛ فإنهم كانوا أهل كتاب ، وكانوا يعلمون أن الأنبياء قد يُغضَبون فلا يعاجل من يغضبهم بالعذاب . ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى كافيهم جهنم عقابا غدا ﴿ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى المرجع .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩)

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ ﴾ نهى المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم كفعل المنافقين واليهود فقال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ » أى تساررتم . ﴿ فَلَا تَتَنَاجَوْا ﴾ هذه قراءة العامة . وقرأ يحيى بن وثاب وعاصم ورويس عن يعقوب « فَلَا تَنْتَجُوا » من الانتجاء . ﴿ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ ﴾ أى بالطاعة ﴿ وَالتَّقْوَى ﴾ بالعفاف عما نهى الله عنه . وقيل : الخطاب للنافقين ؛ أى يأيها الذين آمنوا بزعمهم . وقيل : أى يأيها الذين آمنوا بموسى . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى تجمعون فى الآخرة .

قوله تعالى : إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١٠)

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ أى من تزيين الشياطين ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إذ توهموا أن المسلمين أصيبوا فى السرايا ، أو إذا أجروا آجتماعهم على مكايدة المسلمين ، وربمـا كانوا يناجون النبي صلى الله عليه وسـلم فيظن المسلمون أنهم ينتقصونهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ﴾ أى التناجى ﴿شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى بمشيئته . وقيل : بعلمه . وعن آبن عباس : بأمره . ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى يكلون أمرهم إليه ، ويفوّضون جميع شؤونهم إلى عونه ، ويستعيذون به من الشيطان ومن كل شر ، فهو الذى سلط الشيطان بالوساوس آبتلاء للعبد وآمتحانا ولو شاء لصرفه عنه .

الثانيـــة — فى الصحيحين عن آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا كان ثلاثة فـلا يتناجى آثنان دون الواحد " وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى آثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن يحزنه" فبين فى هذا الحديث غاية المنع وهى أن يجد الثالث من يتحدّث معه كما فعل آبن عمر ؛ وذلك أنه كان يتحدّث مع رجل فجاء آخر يريد أن يناجيه فـلم يناجه حتى دعا رابعا ، فقال له وللأوّل : تأخرا وناجى الرجل الطالب للمناجاة . خرجه الموطأ . وفيه أيضا التنبيه على التعليل بقوله : "من أجل أن يحزنه " أى يقع فى نفسه ما يحزن لأجله . وذلك بأن يقدّر فى نفسه أن الحديث عنه بما يكره ، أو أنه لم يروه أهلا ليشركوه فى حديثهم ، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان وأحاديث النفس . وحصل ذلك كله من بقائه وحده ، فإذا كان معه غيره أَمِن ذلك ؛ وعلى هذا يستوى فى ذلك كل الأعداد ، فـلا يتناجى أربعة دون واحدٍ ولا عشرة ولا ألف مثلا ؛ لوجود ذلك المعنى فى حقه ؛ بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع ، فيكون بالمنع أولى . وإنمـا خص الثلاثة بالذكر ؛ لأنه أوّل عددٍ يتأتى ذلك المعنى فيه . وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال ، وإليه ذهب آبن عمر ومالك والجمهور . وسواء أكان التناجى فى مندوبٍ أو مباح أو واجب فإن الحزن يقع به . وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان

فى أول الإسلام ؛ لأن ذلك كان فى حال المنافقين فيتناجى المنافقون دون المؤمنين ، فلما فشا الإسلام سقط ذلك . وقال بعضهم : ذلك خاص بالسفر فى المواضع التى لا يأمن الرجل فيها صاحبه ، فأما فى الحضر وبين العمارة فلا ؛ فإنه يجد من يعينه ، بخلاف السفر فإنه مظنة الاغتيال وعدم المغيث . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ﴾ (١) لما بين أن اليهود يحيونه بما لم يحيه به الله وذمهم على ذلك وصل به الأمر بتحسين الأدب فى مجالسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى لا يضيقوا عليه المجالس ، وأمر المسلمين بالتعاطف والتآلف حتى يفسح بعضهم لبعض ، حتى يتمكنوا من الاستماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم والنظر إليه . قال قتادة ومجاهد : كانوا يتنافسون فى مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض . وقاله الضحاك . وقال ابن عباس : المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب . قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول فلا يوسع بعضهم لبعض ، رغبة فى القتال والشهادة فنزلت . فيكون كقوله : « مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » . وقال مقاتل : كان النبي صلى الله عليه وسلم فى الصُّفَّة ، وكان فى المكان ضيق يوم الجمعة ، وكان النبي صلى الله عليه

(١) الأصول على قراءة نافع « فى المجالس » بالأفراد .

وسلم يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس ابن شماس وقد سُبِقوا فى المجلس ، فقاموا حيال النبي صلى الله عليه وسلم على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم فلم يفسحوا لهم ، فشقّ ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لمن حوله من [غير](١) أهل بدر : "قم يافلان وأنت يافلان" بعدد القائمين من أهل بدر، فشقّ ذلك على من أقيم ، وعرف النبيّ صلى الله عليه وسلم الكراهية فى وجوههم ، فغمز المنافقون وتكلموا بأنِ قالوا : ما أُنصف هؤلاء وقد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان . فأنزل الله عز وجل هذه الآية . « تَفَسَّحُوا » أى توسعوا . وفَسَحَ فلان لأخيه فى مجلسه يَفْسَح فَسْحا أى وَسَّع له ؛ ومنه قولهم بلد فَسِيح ولك فى كذا فُسْحة ، وفَسَح يَفْسَح مثل مَنَع يَمْنَع ، أى وسّع فى المجلس ، وفَسُح يَفْسُح فَسَاحة مثل كَرُم يَكْرُم أى صار واسعا ؛ ومنه مكان فسيح .

الثانيــة ــ قرأ السُّلَمِىّ و زِرّ بن حُبَيْش وعاصم « فِى المجَالِسِ » وقرأ قتادة وداود ابن أبى هند والحسن بآختلاف عنه « إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَاسَحُوا » الباقون « تَفَسَّحُوا فِى المَجْلِسِ » فمن جمع فلأن قوله : « تَفَسَّحُوا فِى المَجَالِسِ » ينبئ أن لكل واحد مجلسا . وكذلك إن أريد به الحرب . وكذلك يجوز أن يراد مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم وجمع لأن لكل جالس مجلسا . وكذلك يجوز إن أريد بالمجلس المفرد مجلس النبيّ صلى الله عليه وسلم، و يجوز أن يراد به الجمع على مذهب الجنس؛ كقولهم : كثر الدينار والدرهم .

قلت : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس آجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حرب أو ذكر أو مجلس يوم الجمعة، فإن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه [قال صلى الله عليه وسلم : "من سَبَق إلى ما لم يُسْبَق إليه فهو أحق به"](٢) ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه . روى البخارى ومسلم عن آبن عمر عن

(١) الزيادة من أسباب النزول و بعض التفاسير .

(٢) الزيادة من حاشية الجمل نقلا عن القرطبي .

النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لا يُقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه" . وعنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم انه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا . وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه . لفظ البخاري .

الثالثـــة — إذا قعـد واحد من الناس في موضع من المسجد لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعـد مكانه؛ لمـا روى مسـلم عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صـلى الله عليه وسـلم قال : " لا يقيمنّ أحدكم أخاه يوم الجمعـة ثم يخالف إلى مقعده فيقعد فيـه ولكن يقـول افسحوا " .

فـــرع — القاعد في المكان إذا قام حـتى يقعد غيره موضعه نُظر؛ فإن كان الموضع الذي قام إليه مثـل الأوّل في سماع كلام الإمام لم يكره له ذلك ، وإن كان أبعد من الإمام كره له ذلك؛ لأن فيه تفويت حظّه .

الرابعـــة — إذا أمر إنسان إنسانا أن يبكر إلى الجامع فيأخذ له مكانا يقعد فيه لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع ؛ لمـا روى : أن ابن سيرين كان يرسل غلامه إلى مجلس له في يوم الجمعة فيجلس له فيه، فإذا جاء قام له منه .

فـــرع — وعلى هذا من أرسـل بساطا أو سجادة فتبسط له في موضع من المسجد .

الخامســـة — روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسـلم قال : " إذا قام أحدكم — وفي حديث أبي عوانة من قام من مجلسه — ثم رجع إليـه فهو أحقّ به" قال علماؤنا : هذا يدل على صحة القول بوجوب اختصاص الجالس بموضعه إلى أن يقوم منه ؛ لأنه إذا كان أولى به بعد قيامه فقبله أولى به وأحرى . وقد قيل : إن ذلك على الندب ؛ لأنه موضع غير متملك لأحد لا قبل الجلوس ولا بعده . وهـذا فيه نظر ؛ وهو أن يقال : سلمنا أنه غير متملك لكنه يختص به إلى أن يفرغ غرضه منـه ، فصار كأنه يملك منفعته ؛ إذ قد منع غيره من أن يزاحمه عليه . والله أعلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى فى قبوركم . وقيل : فى قلوبكم . وقيل : يوسع عليكم فى الدنيا والآخرة . ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم بضم الشين فيهما . وكسر الباقون وهما لغتان مثل « يَعْكُفُونَ » و « يَعْرِشُونَ » والمعنى انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير؛ قاله أكثر المفسرين. وقال مجاهد والضحاك : إذا نودى للصلاة فقوموا إليها . وذلك أن رجالا تثاقلوا عن الصلاة فنزلت . وقال الحسن ومجاهد أيضا : أى انهضوا إلى الحرب . وقال ابن زيد : هذا فى بيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ كان كل رجل منهم يحبّ أن يكون آخر عهده بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا ﴾ عن النبي صلى الله عليه وسلم « فَانْشُزُوا » فإن له حوائج فلا تمكثوا . وقال قتادة : المعنى أجيبوا إذا دعيتم إلى أمر بمعروف . وهذا هو الصحيح ؛ لأنه يعم . والنشز الارتفاع مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها ؛ يقال : نَشَز يَنْشُز ويَنْشِز إذا انتحى من موضعه ؛ أى ارتفع منه . وامرأة ناشز منتحية عن زوجها . وأصل هذا من النَّشَز، والنَّشز هو ما ارتفع من الأرض وتنحى . ذكره النحاس .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ أى فى الثواب فى الآخرة وفى الكرامة فى الدنيا ، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم . وقال ابن مسعود : مدح الله العلماء فى هذه الآية . والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم « دَرَجَاتٍ » أى درجات فى دينهم إذا فعلوا ما أمروا به . وقيل : كان أهل الغنى يكرهون أن يزاحمهم من يلبس الصوف فيستبقون إلى مجالس النبي صلى الله عليه وسلم فالخطاب لهم . ورأى عليه الصلاة والسلام رجلا من الأغنياء يقبض ثوبه نفورا من بعض الفقراء أراد أن يجلس إليه فقال: "يا فلان خشيتَ أن يتعدّى غناكَ إليه أو فقره إليك" وبين فى هذه الآية أن الرفعة عند الله بالعلم والإيمان لا بالسبق إلى صدور المجالس . وقيل : أراد بالذين أوتوا العلم الذين قرءوا القرآن . وقال يحيى بن يحيى عن مالك : « يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» الصحابة « وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » يرفع الله بها العالم والطالب للحق .

قلت : والعموم أوقع فى المسئلة وأولى بمعنى الآية ؛ فيرفع المؤمن بإيمانه أولا ثم بعلمه ثانيا . وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه، وسألهم عن تفسير « إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ » فسكتوا ، فقال ٱبن عباس : هو أَجَلُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله إياه . فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم . وفى البخارى عن عبد الله ٱبن عباس قال : قدم عُيَينة ٱبن حِصن بن حذيفة بن بدرٍ فنزل على ٱبن أخيه الحُرِّ بن قيس بن حصن ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر،وكان القرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا . الحديث . وقد مضى فى آخر « الأعراف »[1] . وفى صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحرث لقى عمر بعُسْفَان وكان عمر يستعمله على مكة فقال : من ٱستعملته على أهل الوادى ؟ فقال : ٱبن أبزى . فقال: ومن ٱبن أبزى؟ قال : مولى من موالينا . قال : فاستخلفت عليهم مولى ! قال : إنه قارئ لكتاب الله وإنه عالم بالفرائض . قال عمر : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال : "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين" وقد مضى أول الكتاب[2] . ومضى القول فى فضل العلم والعلماء فى غير موضع من هذا الكتاب[3] . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حُضْر الجواد المُضَمَّر سبعين سنة". وعنه صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب". وعنه عليه الصلاة والسلام : " يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء " فأعظِم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن ٱبن عباس : خُيِّر سليمانُ بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطى المال والملك معه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ١ ص ٦ فما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع جـ ١٤ ص ٣٤٣ فما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ « ناجيتم » ساررتم . قال آبن عباس : نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقّوا عليه، فأراد الله عز وجل أن يخفّف عن نبيه صلى الله عليه وسلم، فلما قال ذلك كفّ كثير من الناس . ثم وسع الله عليهم بالآية التى بعدها . وقال الحسن : نزلت بسبب أن قوما من المسلمين كانوا يستخلون النبي صلى الله عليه وسلم ويناجونه ، فظن بهم قوم من المسلمين انهم ينتقصونهم فى النجوى ، فشقّ عليهم ذلك فأمرهم الله تعالى بالصدقة عند النجوى ليقطعهم عن آستخلائه . وقال زيد بن أسلم : نزلت بسبب أن المنافقين واليهود كانوا يناجون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون : إنه أُذن يسمع كل ما قيل له ، وكان لا يمنع أحدا مناجاته . فكان ذلك يشقّ على المسلمين ؛ لأن الشيطان كان يلقى فى أنفسهم أنهم ناجوه بأن جموعا آجتمعت لقتاله . قال : فأنزل الله تبارك وتعالى « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ » الآية ، فلم ينتهوا فأنزل الله هذه الآية ، فآنتهى أهل الباطل عن النجوى؛ لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة ، وشقّ ذلك على أهل الإيمان وآمتنعوا من النجوى؛ لضعف مقدرة كثير منهم عن الصدقة فخفف الله عنهم بما بعد الآية .

الثانية — قال آبن العربي : وفى هذا الخبر عن زيد مايدل على أن الأحكام لا تترتب بحسب المصالح، فإن الله تعالى قال : « ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ » ثم نسخه مع كونه خيرا وأطهر،

وهـذا رد على المعتزلة عظيم فى التزام المصالح، لكن راوى الحديث عن زيد آبنه عبد الرحمن وقد ضعفه العلماء . والأمر فى قوله تعـالى : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ » نص متـواتر فى الرد على المعتزلة . والله أعلم .

الثالثـة — روى الترمذى عن علىّ بن علقمة الأنمارى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لما نزلت « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » قال لى النبى صلى الله عليه وسلم : "ماترى دينارا" قلت لا يطيقونه . قال : "فنصف دينار" قلت : لا يطيقونه . قال : "فكم" قلت : شعيرة . قال : "إنك لزهيد" قال فنزلت « أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ » الآية . قال : فبى خفف الله عن هذه الأمة . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه، ومعنى قوله : شعيرة يعنى وزن شعيرة من ذهب . قال آبن العربى : وهـذا يدل على مسئلتين حسنتين أصوليتين ؛ الأولى — نسـخ العبادة قبـل فعلها . والثانيـة — النظر فى المقدّرات بالقياس ؛ خلافا لأبى حنيفة .

قلت : الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة . وقد روى عن مجاهد : أن أوّل من تصدّق فى ذلك علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وناجى النبى صلى الله عليه وسلم . روى أنه تصدّق بخاتم . وذكر القشيرى وغيره عن علىّ بن أبى طالب أنه قال : "فى كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى، وهى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » كان لى دينار فبعته، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدّقت بدرهم حتى نفد ؛ فنسخت بالآية الأخرى « أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ » . وكذلك قال آبن عباس : نسخها الله بالآية التى بعدها . وقال آبن عمر : لقد كانت لعلىّ رضى الله عنه ثلاث لو كانت لى واحدة منهن كانت أحب إلىّ من حمر النّعم، تزويجه فاطمة، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى . ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى من إمساكها ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ لقلوبكم من المعاصى . ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا ﴾ يعنى الفقراء ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ ﴾ آستفهام معناه التقرير . قال آبن عباس : « أَأَشْفَقْتُمْ » أى أبخلتم بالصدقة ؛ وقيل : خفتم والإشفاق الخوف من المكروه . أى خفتم وبخلتم بالصدقة وشقّ عليكم ﴿ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾ . قال مقاتل بن حيان : إنما كان ذلك عشر ليالٍ ثم نسخ . وقال الكلبي : ما كان ذلك إلا ليلة واحدة . وقال آبن عباس : ما بقى إلا ساعة من النهار حتى نسخ . وكذا قال قتادة . والله أعلم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أى نسخ الله ذلك الحكم . وهذا خطاب لمن وجد ما يتصدّق به ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فنسخت فرضية الزكاة هذه الصدقة . وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل ، وما روى عن علىّ رضى الله عنه ضعيف ؛ لأن الله تعالى قال : « فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا » وهذا يدل على أن أحدا لم يتصدّق بشىء . والله أعلم . ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ﴾ فى فرائضه ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فى سننه ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ قال قتادة : هم المنافقون تولوا اليهود ﴿ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ يقول : ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين بل هم مذبذبون بين ذلك ، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم . قال السدى ومقاتل : نزلت فى عبد الله بن أبى وعبد الله بن نبتل المنافقين ؛ كان أحدهما يجالس النبي صلى الله عليه وسلم ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينا النبي صلى الله عليه وسلم فى حجرة من حجراته إذ قال : "يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار وينظر بعيني شيطان" فدخل عبد الله بن نبتل — وكان أزرق أسمر قصيرا خفيف اللحية — فقال عليه الصلاة والسلام : "علام تشتمنى أنت وأصحابك" فحلف بالله ما فعل ذلك . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "فعلت" فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه ؛ فنزلت هذه الآية . وقال معناه ابن عباس . روى عكرمة عنه ؛ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل شجرة قد كاد الظل يتقلص عنه إذ قال : "يجيئكم الساعة رجل أزرق ينظر إليكم نظر شيطان" فنحن على ذلك إذ أقبل رجل أزرق ، فدعا به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "علام تشتمنى أنت وأصحابك" قال : دعنى أجئك بهم . فمر فجاء بهم فحلفوا جميعا أنه ما كان من ذلك شيء، فأنزل الله عز وجل « يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا » إلى قوله : « هُمُ الْخَاسِرُونَ » واليهود مذكورون فى القرآن بـ « مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ » .

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أى لهؤلاء المنافقين ﴿ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فى جهنم وهو الدرك الأسفل . ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى بئس الأعمال أعمالهم ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ يستجنون بها من القتل . وقرأ الحسن وأبو العالية « إِيمَانَهُمْ » بكسر الهمزة هنا وفى «المنافقين» . أى إقرارهم اتخذوه جنة ، فآمنت ألسنتهم من خوف القتل ، وكفرت قلوبهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار . والصد المنع « عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن الإسلام . وقيل : فى قتلهم بالكفر لما أظهروه من النفاق . وقيل : أى بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم .

قوله تعالى : لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ أى من عذابه شيئا . وقال مقاتل : قال المنافقون إن محمدا يزعم أنه يُنْصَر يوم القيامة ؛ لقد شقينا إذًا ! فوالله لننصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة . فنزلت : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا ﴾ أى لهم عذاب مهين يوم يبعثهم ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ اليوم . وهذا أمر عجيب وهو مغالطتهم باليمين غدا ، وقد صارت المعارف ضرورية . وقال ابن عباس : هو قولهم «وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ بإنكارهم وحلفهم . قال ابن زيد : ظنوا أنهم ينفعهم فى الآخرة . وقيل : «يَحْسَبُونَ» فى الدنيا «أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ» لأنهم فى الآخرة يعلمون الحق باضطرار . والأول أظهر . وعن ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ينادى منادٍ يوم القيامة أين خصماء الله فتقوم القَدَرية مسودّة وجوههم مزرقّة أعينهم مائل شدقهم يسيل لعابهم فيقولون والله ما عبدنا من دونك شمسا ولا قمرا ولا صنما ولا وثنا ولا اتخذنا من دونك إلها " قال ابن عباس : صدقوا والله ! أتاهم الشرك من حيث لا يعلمون ثم تلا ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ هم والله القَدَرية . ثلاثا .

قوله تعالى : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ﴾ أى غلب واستعلى أى بوسوسته فى الدنيا . وقيل : قوى عليهم . وقال المفضّل : أحاط بهم . ويحتمل رابعا أى جمعهم وضمهم . يقال : أحوذ الشيء أى جمعه وضم بعضه إلى بعض ، وإذا جمعهم فقد غلبهم وقوى عليهم وأحاط بهم . ﴿ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ ﴾ أى أوامره فى العمل بطاعته . وقيل : زواجره فى النهى عن معصيته .

والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة ، ويكون بمعنى الترك ، والوجهان محتملان هنا . ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ﴾ طائفته ورهطه ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ في بيعهم ؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم ، وباعوا الهدى بالضلالة .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تقدم أول السورة . ﴿ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ أي من جملة الأذلاء لا أذل منهم ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ ﴾ أي قضى الله ذلك . وقيل : كتب في اللوح المحفوظ ؛ عن قتادة . الفراء : كتب بمعنى قال . ﴿ أَنَا ﴾ توكيد ﴿ وَرُسُلِي ﴾ من بعث منهم بالحرب فإنه غالب بالحرب ، ومن بعث منهم بالحجة فإنه غالب بالحجة . قال مقاتل قال المؤمنون : لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهن رجونا أن يظهرنا الله على فارس والروم ؛ فقال عبد الله بن أبي بن سلول : أتظنون الروم وفارس مثل القرى التي غلبتم عليها ؟ ! والله إنهم لأكثر عددا ، وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك . فنزلت : « لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » . نظيره : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

قوله تعالى : لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ ﴾ أى يحبون ويوالون ﴿ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ تقدم (١) ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ قال السدى : نزلت فى [عبد الله بن] (٢) عبد الله بن أبىّ ، جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فشرب النبي صلى الله عليه وسلم ماء ؛ فقال له : بالله يا رسول الله ما أبقيت من شرابك فضلة أسقيها أبى ، لعل الله يطهر بها قلبه ؟ فأفضل له فأتاه بها ؛ فقال له عبد الله : ما هذا ؟ فقال : هى فضلة من شراب النبي صلى الله عليه وسلم جئتك بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بها . فقال له أبوه : فهلا جئتنى ببول أمك فإنه أطهر منها . فغضب وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله ! أما أذنت لى فى قتل أبى ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "بل ترفق به وتحسن إليه" . وقال ابن جريج : حُدِّثت أن أبا قحافة سبّ النبي صلى الله عليه وسلم فصكه أبو بكر ابنه صكة فسقط منها على وجهه ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، فقال : "أو فعلته لا تعد إليه" فقال : والذى بعثك بالحق نبيا لو كان السيف منى قريبا لقتلته . وقال ابن مسعود : نزلت فى أبى عبيدة بن الجراح ؛ قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد وقيل يوم بدر . وكان الجراح يتصدّى لأبى عبيدة وأبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصد إليه أبو عبيدة فقتله ؛ فأنزل الله حين قتل أباه : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » الآية . قال الواقدى : كذلك يقول أهل الشام . ولقد سألت رجالا من بنى الحرث بن فهر فقالوا : توفى أبوه من قبل الإسلام . ﴿ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ يعنى أبا بكر دعى ابنه عبد الله إلى البراز يوم بدر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "متّعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندى بمنزلة السمع والبصر" . ﴿ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾ يعنى مصعب بن عمير

---

(١) راجع جـ ٨ ص ١٩٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) زيادة لازمة ؛ فقد كان عبد الله بن عبدالله بن أبى بن سلول رضى الله عنه من فضلاء الصحابة وخيارهم وكان أبوه عبد الله رأس المنافقين .

قتل أخاه عبيد بن عمير يوم بدر . ﴿ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ يعني عمر بن الخطاب قتل خاله العاص ابن هشام بن المغيرة يوم بدر ، وعليا وحمزة قتلا عُتبة وشيبة والوليد يوم بدر . وقيل : إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بَلْتعة ، لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح . على ما يأتي بيانه أوّل سورة « الممتحنة » إن شاء الله تعالى . بين أن الإيمان يفسد بموالاة الكفار وإن كانوا أقارب .

الثانيــة — استدل مالك رحمه الله من هذه الآية على معاداة القدرية وترك مجالستهم . قال أشهب عن مالك : لا تجالس القَدَرية وعادِهم في الله ؛ لقوله تعالى : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ » .

قلت : وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان . وعن الثوري أنه قال : كانوا يرون أنها نزلت في من كان يصحب السلطان . وعن عبد العزيز بن أبي داود أنه لقي المنصور في الطواف فلما عرفه هرب منه وتلاها . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : "اللهم لا تجعل لفاجر عندي نعمة فإني وجدت فيما أوحيت « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ — إلى قوله — أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ »" أي خلق في قلوبهم التصديق يعني من لم يوالِ من حاد الله . وقيل : كتب أثبت ؛ قاله الربيع بن أنس . وقيل : جعل ؛ كقوله تعالى : « فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » أي اجعلنا . وقوله : « فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » . وقيل : « كَتَبَ » أي جمع ؛ ومنه الكتيبة ؛ أي لم يكونوا ممن يقول نؤمن ببعض ونكفر ببعض . وقراءة العامة بفتح الكاف من « كتب » ونصب النون من « الإيمان » بمعنى كَتَبَ الله وهو الأجود ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ وقرأ أبو العالية وزر بن حبيش والمفضّل عن عاصم « كُتِبَ » على ما لم يسمّ فاعله « الْإِيمَانُ » برفع النون . وقرأ زِرّ بن حُبَيش « وَعَشِيرَاتِهِمْ » بألف وكسر التاء على الجمع . ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم . وقيل : « كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ » أي على قلوبهم ، كما في قوله : « فِي جُذُوعِ النَّخْلِ » وخص القلوب بالذكر لأنها موضع الإيمان . « وَأَيَّدَهُمْ » قوّاهم ونصرهم بروح منه ؛ قال الحسن : بنصر منه . وقال

الربيع بن أنس : بالقرآن وحججه . وقال ابن جريج : بنور وإيمان وبرهان وهدى . وقيل : برحمة من الله . وقال بعضهم : أيدهم بجبريل عليه السلام . ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أى قبل أعمالهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ فرحوا بما أعطاهم ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ قال سعيد بن أبى سعيد الجرجانى عن بعض مشايخه ، قال داود عليه السلام : إلهى ! من حزبك وحول عرشك ؟ فأوحى الله إليه : « يا داود الغاضة أبصارهم ، النقية قلوبهم ، السليمة أكفهم ؛ أولئك حزبى وحول عرشى » .

ختمت والحمد لله " سورة المجادلة "

* * *

تم بعون الله تعالى الجزء السابع عشر من تفسير القرطبي ،
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن عشر ، وأوله :
" سورة (الحشر) "

* * *

كمل طبع الجزء السابع عشر من كتاب " الجامع لأحكام القرآن للقرطبي "
بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم السبت ٢٣ شوال سنة ١٣٦٧
(٢٨ أغسطس سنة ١٩٤٨) م

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٣٣/١٩٤٦/٣٠٠٠)